

شَرَحُ

الْمِنْظُومَةُ الْعِلْمِيَّةُ

فِي

الْوَصَايَا وَالْآدَابِ الْعِلْمِيَّةِ

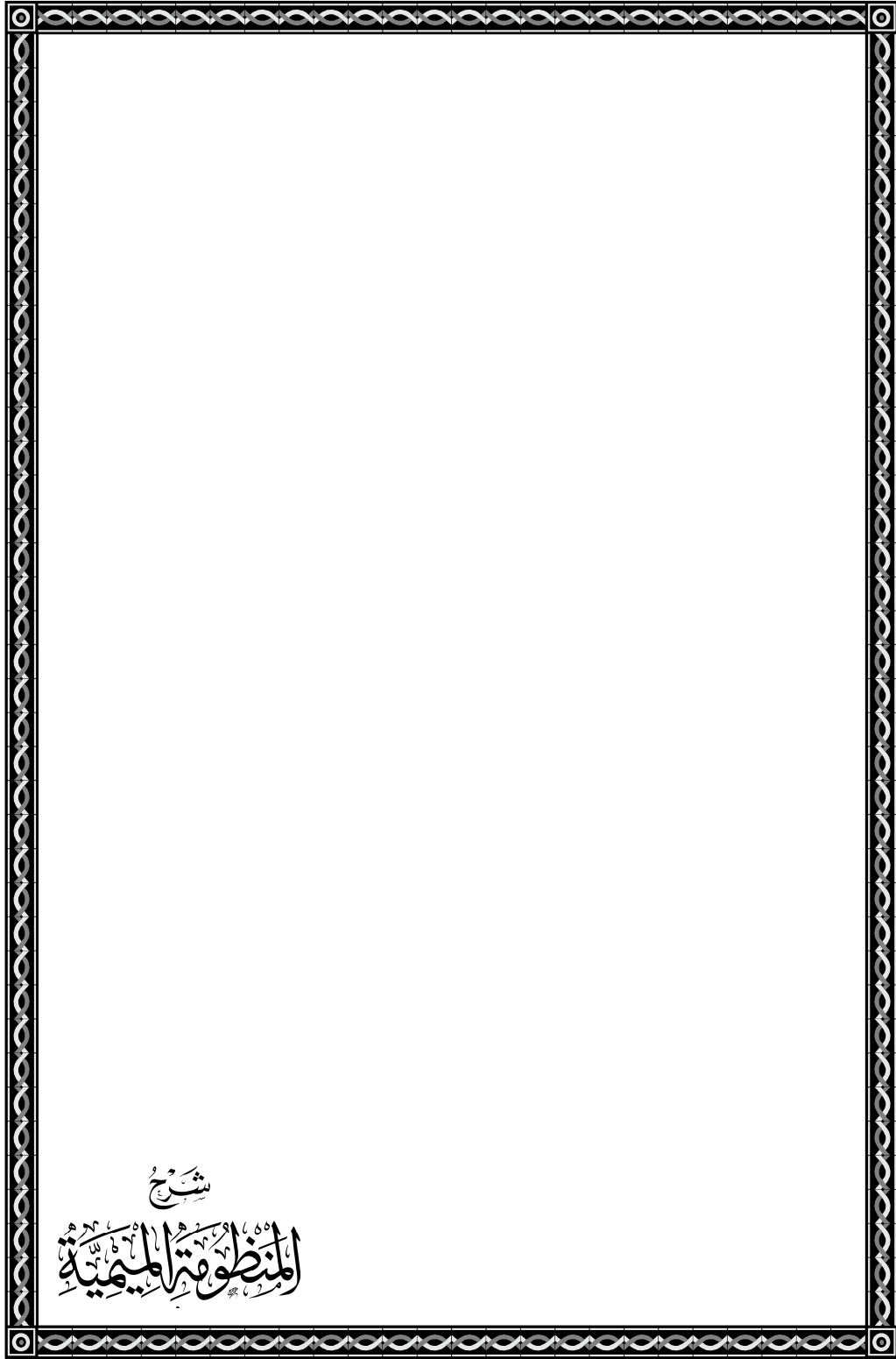
لِلشَّيْخِ حَافِظِ بْنِ أَحْمَدَ الْحَكَمِيِّ

شَرَحَهَا

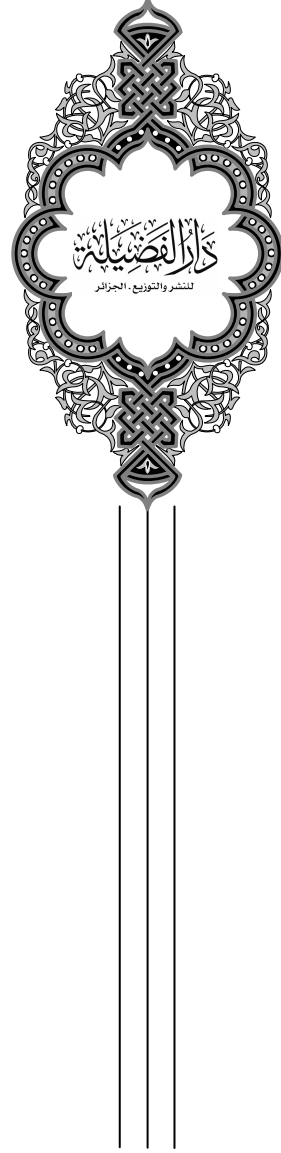
عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَدْرُ

طبع على نفقة بعض المحسنين

جزاهم الله خيرا وأعظم لهم المثوبة



شَهِيدُ
الْمَنْظُومَةِ الْمِيمِيَّةِ



حقوق الطب مع محفوظة

الطبعة الثانية لدار الفضيلة

(1432 هـ - 2011 م)

رقم الإيداع: 1134 - 2010

ردمك: 1 - 19 - 866 - 9947 - 978

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

العنوان: حي باحة (03)، رقم (28) الليدو - المحمدية - الجزائر

هاتف وفاكس: 021519463

التوزيع: 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني: darelfadhila@maktoob.com

موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

شَرْحُ
الْمَنْظُومَةِ الْمَعْنِيَةِ

فِي
الْوَصَايَا وَالْآدَابِ الْعِلْمِيَّةِ
لِلشَّيْخِ حَافِظِ بْنِ أَحْمَدَ الْحَكَمِيِّ

شَرَحَهَا
عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَصَّارُ

دار الفضيحة

تَقْرِيط

فضيلة الشيخ زيد بن محمد بن هادي المدخلي حفظه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن آمن به واتبعه أما بعد :

فعلى الابن الصالح الشيخ / عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر السلام ورحمة الله وبركاته

وأفيدكم بوصول خطابكم الموجّه إليّ ، والذي يحمل في حروفه وجمله التحية الطيبة ، والدعاء الشرعي المبارك الدال على محبتكم الإيمانية الصادقة ، وخلقكم الكريم ، فأسال الله أن يبارك لكم في العلم والعمل والأهل والمال والولد في المحيا والممات ، وكان برفق خطابكم هذا شرحكم الوافي الكافي للمنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية ، وقد طلبتم مني الاطلاع على شرحكم للمنظومة المذكورة ، وقد قرئ عليّ بعضه فأعجبنتني ألفاظ الشرح ، ومعانيه ، وأسلوبه ، وإن الكتاب لجدير بالطبع ، والنشر لما فيه من الخير الكثير لكل سامع وقارئ .

وإنني لأوصي طلاب العلم باقتنائه بعد طبعه ، والعناية بحفظ القصيدة أو قل المنظومة حفظاً جيداً مع العناية التامة بقراءة الشرح المشتمل على النصوص العظيمة من الكتاب العزيز والسنة الكريمة ، والآثار الماثورة عن أئمة العلم البارزين ذات الفوائد المأخوذة من نصوص الوحي المبين .

فجزيت خيراً يا بنيّ على ما بذلت من جهد كبير في نشر النظم بما اتفق معه في الأسلوب والمعاني والأهداف ، وكان الله في عونكم ، وعون كل ناصح لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم .

وتقبلوا تحيات والدكم زيد بن محمد هادي المدخلي ، وسلّموا لي على والدكم العزيز الذي بذل لنا الكثير من مؤلفاته التي أسأل الله أن ينفع بها قارئها ، وسامعها ، وأن يثيبه عليها الثواب الجزيل ، إنه حسبنا ونعم الوكيل .

التوقيع
زيد بن محمد بن هادي المدخلي
١٤٣١/١١/١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إِنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضللَّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله، صَلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعد:

فهذه منظومة طيِّبة نافعة مباركة للعلامة الشَّيخ حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ اللهُ، ضَمَّنَهَا جملةً من الوصايا العظيمة والآداب الكريمة والأخلاق الفاضلة التي ينبغي أن يتحلَّى بها طالبُ العلم.

وقدَّم قبل ذلك بيانًا وافيًا لمكانة العلم الرَّفِيعَة ومنزلته الشَّرِيفَة، وساق في نظمه البديع جملةً من الآيات أشار فيها إلى الآيات الكريّمات والأحاديث عن رسول الله ﷺ في بيان مكانة العلم وفضله ومنزلته.

وكذلك ضَمَّنَ هذه المنظومة ما ينبغي أن يُعْنَى به طالبُ العلم من العلوم، وذكر العلوم والتَّدرج فيها، وطريقة التَّلَقِّي، إلى غير ذلك ممَّا اشتملت عليه هذه المنظومة، والتي سَمَّاها رَحِمَهُ اللهُ: «المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلميَّة» قال عنها تلميذه الشَّيخ زيد بن محمَّد بن هادي المدخلي: «وهي

منظومة عظيمة النفع جمّة الفوائد، تحمل في جملها التّربية الإسلاميّة الأصيلة وتحتُّ على بذل الجهد في طلب العلم الشرعي الشّريف وترغب فيه، وتدعو إلى الإخلاص فيه وإلى تعلّمه والدّعوة إليه، وقد دلّل فيها رَحِمَهُ اللهُ على صحّة ما قال براهين قاطعة وأدلة صائبة واضحة^(١).

وقد طُبعت أُولى طبعاتها في حياته رَحِمَهُ اللهُ عام (١٣٧٣هـ)، وكانت وفاته رَحِمَهُ اللهُ عام (١٣٧٧هـ)، ثمّ بعد ذلك طُبعت طبعاتٍ عديدة، ولا أعلم لها إلى هذه السّاعة شرحًا مطبوعًا.

وهي منظومةٌ حافلةٌ بالمعاني العظيمة والآداب الكريمة والأخلاق الفاضلة الّتي هي جمال المسلم وحليّة طالب العلم.

وحرّى بكلّ طالب علم أن يُعنى بهذه المنظومة؛ إن تيسّر له أن يحفظها، فهذا خيرٌ عظيمٌ، وإن لم يتيسّر الحفظ؛ فليقرأها مرّات عديدة حتّى تكون أشبه بالمحفوظ مع العناية بفهم معاني الأبيات ومعرفة دلائلها وشواهداها، ثم تتويج ذلك بالعمل الّذي هو مقصود العلم، وأرجو الله الكريم عزّ وجلّ أن يجعل في هذا الشّرح ما يعين على تحقيق ذلك - مع الإقرار بالقصور والتّقصير - وقد كان شرحي هذا في أصله دروسًا أُمليتها في دورة علميّة أُقيمت في المدينة النبويّة تمّ تفرّيعها من الأشرطة ثمّ عملتُ على تنقيحها وتهذيبها بما تيسّر والله الحمد أولاً وآخرًا، والمرجو منه سبحانه الرّضا والقبول، وأن يبارك في هذا

(١) «الشّيخ حافظ الحكمي حياته وجهوده العلميّة والعمليّة» للشّيخ زيد بن محمّد ابن هادي المدخلي (ص ٤٧).

الجهد وأن يجعله لوجهه خالصاً و لعباده نافعاَ إِنَّه جوادٌ كريمٌ.
ولا يفوتني هنا أن أشكر والدنا الكريم صاحب الفضيلة الشيخ الوقور
والعالم الجليل زيد بن محمد بن هادي المدخلي المعروف بوفائه وبرّه بشيخه
الشيخ حافظ حكيمي رَحِمَهُ اللهُ عَلَى تَكْرُمِهِ بِالاطِّلاعِ عَلَى هَذَا الشَّرْحِ والتَّعْرِيفِ لَهُ،
فشكر الله مسعاه وأثابه وأحسنَ إليه وبارك في حياته وذريّته، وأسأل الله أن
يغفر للشيخ حافظ وأن يرحمه وأن يجزيه عن طلاب العلم خير الجزاء وأن يرفع
درجته في عليّين، كما أسأله أن يثب كلّ من أعان في ضبط هذه المنظومة
وتدقيقها^(١)، وتصحيح شرحها وتنقيحها، وأسأله سبحانه أن يمنّ علينا أجمعين
بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن
يزيدنا علماً، وأن يجعل ما نتعلّمه حجّة لنا لا علينا، وأن يبارك في هذه المنظومة
وشرحها، إِنَّه - تبارك وتعالى - سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.
وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتب

عبد الرزاق بن عبد الرحمن البدر

غفر الله له وعفا عنه

المدينة النبويّة ٦ / ١١ / ١٤٣٠ هـ

(١) وقد استفدت كثيراً من ذوي الاختصاص في اللّغة والعروض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية
للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله^(١)

- ١- الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى
- ٢- ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ ال-
- ٣- مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ مَا لَا يَعْلَمُونَ وَبِالْ-
- ٤- ثَمِّ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُخْتَارِ أَكْرَمَ مَبْ-
- ٥- وَالْآلِ وَالصَّحْبِ وَالْأَتْبَاعِ قَاطِبَةً
- ٦- مَا لَاحَ نَجْمٌ وَمَا شَمْسٌ الضُّحَى طَلَعَتْ
- ٧- وَبَعْدُ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِهِ
- ٨- وَحَثَّ رَبِّي وَحَضَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
- ٩- وَامْتَنَ رَبِّي عَلَى كُلِّ الْعِبَادِ وَكُلِّ-
- ١٠- يَكْفِيكَ فِي ذَاكَ أُولَى سُورَةٍ نَزَلَتْ
- ١١- كَذَلِكَ فِي عِدَّةِ الْآلَاءِ قَدَّمَهُ
- ١٢- وَمَيَّزَ اللَّهُ حَتَّى فِي الْجَوَارِحِ مَا
- ١٣- وَذَمَّ رَبِّي تَعَالَى الْجَاهِلِينَ بِهِ
- ١٤- وَلَيْسَ غِبْطَةً إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ هُمَا الْ-
- ١٥- وَمِنْ صِفَاتِ أُولَى الْإِيمَانِ نَهَمَتْهُمْ
- ١٦- الْعِلْمُ أَعْلَى وَأَخْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعَتْ
- الْآئِهِ وَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالنَّعَمِ
- بَرَّ الْمَهْيَمِينَ مُبْدِي الْخَلْقِ مَنْ عَدَمَ
- بَيَانٍ أَنْطَقَهُهُمْ وَالْخَطِّ بِالْقَلَمِ
- عُوثٍ بِخَيْرِ هُدًى فِي أَفْضَلِ الْأُمَمِ
- وَالْتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ لِنَهْجِهِمْ
- وَعَدُ أَنْفَاسٍ مَا فِي الْكُونِ مِنْ نَسَمِ
- خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي دِينِهِ الْقِيمِ
- تَفَقَّهِ الدِّينِ مَعَ إِنْذَارِ قَوْمِهِمْ
- لِ الرُّسُلِ بِالْعِلْمِ فَادْكُرْ أَكْبَرَ النَّعَمِ
- عَلَى نَبِيِّكَ أَغْنَى سُورَةَ الْقَلَمِ
- ذِكْرًا وَقَدَّمَهُ فِي سُورَةِ النَّعَمِ
- مِنْهَا يُعَلِّمُ عَنْ بَاغٍ وَمُغْتَشِمِ
- أَشَدَّ ذَمٍّ فَهُمْ أَذْنَى مِنْ الْبَهَمِ
- إِحْسَانٌ فِي الْمَالِ أَوْ فِي الْعِلْمِ وَالْحَكَمِ
- فِي الْعِلْمِ حَتَّى اللَّقَى أَغْبِطُ بِذِي النَّهَمِ
- أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

(١) من أراد سماع هذه المنظومة بقراءة موافقة لهذا الضبط يمكنه الدُّخُولُ عَلَى الرَّابِطِ التَّالِي:

<http://www.al-badr.net/qiroah-al-mimiyah.php>

- ١٧- الْعِلْمُ غَايَتُهُ الْقُصْوَى وَرُبُّتُهُ الْـ
- ١٨- الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ
- ١٩- الْعِلْمُ نَوْرٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ
- ٢٠- الْعِلْمُ أَعْلَى حَيَاةٍ لِلْعِبَادِ كَمَا
- ٢١- لَا سَمْعَ لَا عَقْلَ بَلْ لَا يُبْصِرُونَ وَفِي السَّدِّ
- ٢٢- فَالْجَهْلُ أَضْلُ ضَلَالِ الْخَلْقِ قَاطِبَةً
- ٢٣- وَالْعِلْمُ أَضْلُ هُدَاهُمْ مَعَ سَعَادَتِهِمْ
- ٢٤- وَالْخَوْفُ بِالْجَهْلِ وَالْحُزْنُ الطَّوِيلُ بِهِ
- ٢٥- الْعِلْمُ وَاللَّهُ مِيرَاثُ النَّبُوَّةِ لَا
- ٢٦- لِأَنَّهُ إِرْثٌ حَقٌّ دَائِمٌ أَبَدًا
- ٢٧- وَمِنْهُ إِرْثُ سُلَيْمَانَ النَّبُوَّةِ وَالـ
- ٢٨- كَذَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ بِوَلِيٍّ
- ٢٩- الْعِلْمُ مِيزَانُ شَرْعِ اللَّهِ حَيْثُ بِهِ
- ٣٠- وَكُلَّمَا ذُكِرَ السُّلْطَانُ فِي حُجَجٍ
- ٣١- فَسُلْطَةُ الْيَدِ بِالْأَبْدَانِ قَاصِرَةٌ
- ٣٢- وَسُلْطَةُ الْعِلْمِ تَنْقَادُ الْقُلُوبُ هَا
- ٣٣- وَيَذْهَبُ الدِّينُ وَالْدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْـ
- ٣٤- الْعِلْمُ يَا صَاحِبِ يَسْتَغْفِرُ لِصَاحِبِهِ
- ٣٥- كَذَلِكَ تَسْتَغْفِرُ الْحَيْتَانُ فِي الْجُجِّ
- ٣٦- وَخَارِجٌ فِي طِلَابِ الْعِلْمِ مُحْتَسِبًا
- ٣٧- وَإِنَّ أَجْنَحَةَ الْأَمْلاكَ تَبْسُطُهَا
- ٣٨- وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْعِلْمِ يَسْلُكُهُمْ
- عَلِيَاءُ فَاسْعَوْا إِلَيْهِ يَا أُولِي الْهِمَمِ
- لِلَّهِ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
- أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالْجَهَّالُ فِي الظُّلَمِ
- أَهْلُ الْجَهَالَةِ أَمْوَاتٌ بِجَهْلِهِمْ
- سَعِيرٌ مُعْرِفٌ كُلُّ بَذْنِهِمْ
- وَأَضْلُ شَقَوَتِهِمْ طُرًّا وَظُلْمِهِمْ
- فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى دَوُو الْحَكَمِ
- وَعَنْ أُولِي الْعِلْمِ مَنْفِيَّانِ فَاغْتَصِمِ
- مِيرَاثُ يُشَبِّهُهُ طُوبَى لِقَتْسِمِ
- وَمَا سِوَاهُ إِلَى الْإِفْتَاءِ وَالْعَدَمِ
- فَضْلُ الْمُبِينِ فَمَا أَوْلَاهُ بِالنَّعَمِ
- أَلَالِ خَوْفِ الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِهِمْ
- قِوَامُهُ وَبِدُونِ الْعِلْمِ لَمْ يَقُمْ
- فَالْعِلْمُ لَا سُلْطَةَ الْأَيْدِي لِمُحْتَكِمِ
- تَكُونُ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالظُّلْمِ وَالْغَشَمِ
- إِلَى الْمُهْدَى وَإِلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ
- لِعِلْمِ الَّذِي فِيهِ مَنْجَاةٌ لِمُعْتَصِمِ
- أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مِنْ لَمَمِ
- مِنَ الْبَحَارِ لَهُ فِي الضُّوْءِ وَالظُّلَمِ
- مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيُّ كَمِي
- لِطَالِبِيهِ رَضَى مِنْهُمْ بِصُنْعِهِمْ
- إِلَى الْجِنَانِ طَرِيقًا بَارِئُ النَّسَمِ

- ٣٩- وَالسَّامِعُ الْعِلْمَ وَالْوَاعِي لِيَحْفَظَهُ
- ٤٠- فَيَا نَضَارَتَهُ إِذْ كَانَ مُتَّصِفًا
- ٤١- كَفَاكَ فِي فَضْلِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ رُفِعُوا
- ٤٢- وَكَانَ فَضْلُ آبِنَا فِي الْقَدِيمِ عَلَى الْ
- ٤٣- كَذَاكَ يَوْسُفُ لَمْ تَظْهَرْ فَضِيلَتُهُ
- ٤٤- وَمَا اتَّبَاعُ كَلِيمِ اللَّهِ لِلْخَضِرِ الْ
- ٤٥- مَعَ فَضْلِهِ بِرِسَالَاتِ الْإِلَهِ لَهُ
- ٤٦- وَقَدَّمَ الْمُصْطَفَى بِالْعِلْمِ حَامِلَهُ
- ٤٧- كَفَاهُمُو أَنْ غَدَوْا لِلْوَحْيِ أَوْعِيَةً
- ٤٨- وَأَنْ غَدَوْا وَكَلَاءَ فِي الْقِيَامِ بِهِ
- ٤٩- وَخَصَّهِمْ رَبُّنَا قَصْرًا بِخَشْيَتِهِ
- ٥٠- وَمَعَ شَهَادَتِهِ جَاءَتْ شَهَادَتُهُمْ
- ٥١- وَيَشْهَدُونَ عَلَى أَهْلِ الْجَهَالَةِ بِالْ
- ٥٢- وَالْعَالِمُونَ عَلَى الْعَبَادِ فَضْلُهُمْ
- ٥٣- وَعَالِمٌ مِنْ أُولِي التَّقْوَى أَشَدُّ عَلَى الْ
- ٥٤- وَمَوْتُ قَوْمٍ كَثِيرٍ وَالْعَدَّ أَيْسَرُ مِنْ
- ٥٥- كَمَا مَنَافِعُهُ فِي الْعَالَمِ اتَّسَعَتْ
- ٥٦- تَالله لَوْ عَلِمُوا شَيْئًا لَمَا فَرَحُوا
- ٥٧- هُمْ الرُّجُومُ بِحَقِّ كُلِّ مُسْتَرَقٍ
- ٥٨- لِأَنَّهُمَا لِكِلَا الْجَنَسَيْنِ صَائِبَةٌ
- ٥٩- هُمُ الْهُدَاةُ إِلَى أَهْدَى السَّبِيلِ وَأَهْلُ
- ٦٠- وَفَضْلُهُمْ جَاءَ فِي نَصِّ الْكِتَابِ وَفِي الْ
- مُؤَدِّبَانَا نَاشِرًا إِيَّاهُ فِي الْأُمَمِ
- بِذَا بِدَعْوَةِ خَيْرِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
- مَنْ أَجْلِهِ دَرَجَاتٍ فَوْقَ غَيْرِهِمْ
- أَمْلَاكَ بِالْعِلْمِ مِنْ تَعْلِيمِ رَبِّهِمْ
- لِلْعَالَمِينَ بِغَيْرِ الْعِلْمِ وَالْحُكْمِ
- مَعْرُوفٍ إِلَّا لِعِلْمٍ عَنْهُ مُنَبِّهِمْ
- وَمَوْعِدٍ وَسَمَاعٍ مِنْهُ لِلْكَلِمِ
- أَعْظَمُ بِذَلِكَ تَقْدِيمًا لِذِي قَدَمٍ
- وَأَضَحَّتِ الْآيُ مِنْهُ فِي صُدُورِهِمْ
- قَوْلًا وَفِعْلًا وَتَعْلِيمًا لغيرِهِمْ
- وَعَقْلًا أَمْثَالِهِ فِي أَصْدَقِ الْكَلِمِ
- حَيْثُ اسْتَجَابُوا وَأَهْلُ الْجَهْلِ فِي صَمَمٍ
- مَوْلَى إِذَا اجْتَمَعُوا فِي يَوْمٍ حَشَرِهِمْ
- كَالْبَدْرِ فَضْلًا عَلَى الدَّرِّيِّ فَاغْتَنِمِ
- شَّيْطَانٍ مِنْ أَلْفِ عَبَادٍ بِجَمْعِهِمْ
- حَرِيرٌ يَمُوتُ مُصَابٌ وَاسِعُ الْأَلَمِ
- وَلِلشَّيَاطِينِ أَفْرَاحٌ بِمَوْتِهِمْ
- لَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ حَتْفِهِمْ
- سَمْعًا كَشُهِبِ السَّمَاءِ أَعْظَمُ بِشُهِبِهِمْ
- شَيْطَانٍ إِنْسٍ وَجِنٍّ دُونَ بَعْضِهِمْ
- لُ الْجَهْلِ عَنْ هَدْيِهِمْ ضَلُّوا لَجَهْلِهِمْ
- حَدِيثِ أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمِ

نبذة في وصية طالب العلم

- ٦١- يا طالب العلم لا تبغى به بدلاً
٦٢- وقدس العلم واعرف قدر حرمة
٦٣- واجهد بعزم قوي لا انثناء له
٦٤- والنصح فابذله للطالب محتسباً
٦٥- ومرحبا قل لمن يأتيك يطلبه
٦٦- والنية اجعل لوجه الله خالصة
٦٧- ومن يكن ليقول الناس يطلبه
٦٨- ومن به يبتغي الدنيا فليس له
٦٩- كفى بـ (من كان) في شورى وهود وفي الـ
٧٠- إياك واحذر مماراة السفه به
٧١- فإن أبغض كل الخلق أجمعهم
٧٢- والعجب فاحذره إن العجب مجترف
٧٣- وبالمهم المهم ابداً لتدركه
٧٤- قدم وجوباً علوم الدين إن بها
٧٥- وكل كسر الفتى فالدين جابر
٧٦- دغ عنك ما قاله العصري متحلاً
٧٧- ما العلم إلا كتاب الله أو أثر
٧٨- ما ثم علم سوى الوحي المبين وما
٧٩- والكتم للعلم فاحذر إن كاتم
٨٠- ومن عقوبته أن في المعاد له
- فقد ظفرت ورب اللوح والقلم
في القول والفعل والآداب فالتزم
لو يعلم المرء قدر العلم لم ينم
في السر والجهر والأستاذ فاحترم
وفيهم اخطأ وصايا المصطفى بهم
إن البناء بدون الأصل لم يقيم
أخسر بصفقته في موقف الندم
يوم القيامة من حظ ولا قسم
إسراء موعظة للحاذق الفهم
كذا مباهاة أهل العلم لا ترم
إلى الإله ألد الناس في الخصم
أعمال صاحبه في سبيله العرم
وقدم النص والآراء فاتهم
يبين نهج الهدى من موجب النقم
والكسر في الدين صعب غير ملتئم
وبالعتيق تمسك قط واغتصم
يجلو بنور هداة كل منبهم
منه استمد ألا طوبى لمغتني
في لعنة الله والأقوام كلهم
من الجحيم لجأ ما ليس كاللجم

- ٨١- وصَائِنُ الْعِلْمِ عَمَّنْ لَيْسَ يَحْمِلُهُ
 ٨٢- وَإِنَّمَا الْكَثْمُ مَنَعُ الْعِلْمِ طَالِبُهُ
 ٨٣- وَأَتَّبِعِ الْعِلْمَ بِالْأَعْمَالِ وَاذْعُ إِلَى
 ٨٤- وَاضْبِرْ عَلَى لَاحِقٍ مِنْ فِتْنَةٍ وَأَذَى
 ٨٥- لَوَاحِدٍ بِكَ يَهْدِيهِ إِلَهُ لَدَا
 ٨٦- وَاسْلُكْ سَوَاءَ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا
- مَاذَا بِكِتْمَانٍ بَلْ صَوْنٌ فَلَا تَكْمِ
 مِنْ مُسْتَحَقٍّ لَهُ فَافْهَمْ وَلَا تَهْمِ
 سَبِيلِ رَبِّكَ بِالتَّبَيُّانِ وَالْحَكْمِ
 فِيهِ وَفِي الرُّسُلِ ذِكْرَى فَاقْتَدِهِ بِهِمْ
 خَيْرٌ غَدًا لَكَ مِنْ خُمْرٍ مِنَ النِّعَمِ
 تَعْدِلْ وَقُلْ رَبِّي الرَّحْمَنُ وَاسْتَقِمِ

الوصية بكتاب الله عز وجل

- ٨٧- وَبِالتَّوَدُّعِ وَالتَّرْتِيلِ فَانْطَلِقْ كِتَابًا
 ٨٨- حَكْمٌ بِرَاهِنَةٍ وَاعْمَلْ بِمُحْكَمِهِ
 ٨٩- وَاطْلُبْ مَعَانِيَهُ بِالنَّقْلِ الصَّرِيحِ وَلَا
 ٩٠- فَمَا عَلِمْتَ بِمَحْضِ النَّقْلِ مِنْهُ فَقُلْ
 ٩١- ثُمَّ الْمَرَا فِيهِ كُفْرٌ فَاحْذَرْنَهُ وَلَا
 ٩٢- وَعَنْ مَنَاهِيهِ كُنْ يَا صَاحِبَ مَنْزِلٍ جَرًّا
 ٩٣- وَمَا تَشَابَهَ فَوَاضٍ لِلإِلَهِ وَلَا
 ٩٤- وَلَا تُطِيعْ قَوْلَ ذِي زَيْغٍ يُزْخِرُهُ
 ٩٥- حَيْرَانَ ضَلَّ عَنْ الْحَقِّ الْمُبِينِ فَلَا
 ٩٦- هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي مَنْ قَامَ يَقْرَأُهُ
 ٩٧- هُوَ الصَّرَاطُ هُوَ الْحَبْلُ الْمَتِينُ هُوَ الْوَسِيلُ
 ٩٨- هُوَ الْبَيَانُ هُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ هُوَ التَّنْذِيرُ
 ٩٩- هُوَ الْبَصَائِرُ وَالذِّكْرَى لُذْكُرِ
 ١٠٠- هُوَ الْمُنْزَلُ نُورًا بَيْنًا وَهُدًى
- بِاللَّهِ لَا سِيَّيَا فِي حَنْدِسِ الظُّلُمِ
 جَلًّا وَحَظَرًا وَمَا قَدْ حَدَّهُ أَقِيمِ
 تَخَضُّعَ بِرَأْيِكَ وَاحْذَرْ بَطْشَ مُنْتَقِمِ
 وَكِلْ إِلَى اللَّهِ مَعْنَى كُلِّ مُنْبَهَمِ
 يَسْتَهْوِينَكَ أَقْوَامٌ بِزَيْغِهِمْ
 وَالْأَمْرَ مِنْهُ بَلَا تَرْدَادٍ فَالْتَزِمِ
 تَخَضُّعَ فَخَوْضِكَ فِيهِ مُوجِبُ النِّقَمِ
 مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ فِي الدِّينِ مُتَّبِعِهِمْ
 يَنْفَكُ مُنْحَرِفًا مُعْجَاجًا لَمْ يَقُمْ
 كَأَنَّمَا خَاطَبَ الرَّحْمَنُ بِالْكَلِمِ
 مِيزَانُ وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى لِمُعْتَصِمِ
 تَفْصِيلُ فَاقْنَعْ بِهِ فِي كُلِّ مُنْبَهَمِ
 هُوَ الْمَوَاعِظُ وَالْبُشْرَى لِغَيْرِ عَمِي
 وَهُوَ الشِّفَاءُ لِمَا فِي الْقَلْبِ مِنْ سَقَمِ

- ١٠١- لَكِنَّهُ لِأُولِي الْإِيمَانِ إِذْ عَمِلُوا
 ١٠٢- أَمَّا عَلَى مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ فَهُوَ عَمَى
 ١٠٣- فَمَنْ يُقِمُّهُ يَكُنْ يَوْمَ الْمَعَادِ لَهُ
 ١٠٤- كَمَا يَسُوقُ أُولِي الْأَعْرَاضِ عَنْهُ إِلَى
 ١٠٥- وَقَدْ أَتَى النَّصْرُ فِي الطُّولَيْنِ أَنَّهُمَا
 ١٠٦- وَأَنَّهُ فِي غَدٍ يَأْتِي لِصَاحِبِهِ
 ١٠٧- وَالْمُلْكُ وَالْخُلْدَ يُعْطِيهِ وَيُلْبِسُهُ
 ١٠٨- يُقَالُ اقْرَأْ وَرَتِّلْ وَارْقُ فِي عُرْفِ الْ
 ١٠٩- وَحُلَّتَانِ مِنَ الْفِرْدَوْسِ قَدْ كُشِيتَ
 ١١٠- قَالَا بِمَاذَا كُشِينَاهَا فَقِيلَ بِمَا
 ١١١- كَفَى وَحَسْبُكَ بِالْقُرْآنِ مُعْجِزَةً
 ١١٢- لَمْ يَعْزِرْهُ قَطُّ تَبْدِيلٌ وَلَا غَيْرٌ
 ١١٣- مُهَيِّمًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ
 ١١٤- فِيهِ التَّفَاصِيلُ لِلْأَحْكَامِ مَعَ نَبَأٍ
 ١١٥- فَاَنْظُرْ قَوَارِعَ آيَاتِ الْمَعَادِ بِهِ
 ١١٦- وَاَنْظُرْ بِهِ شَرْحَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ هَلْ
 ١١٧- أَمْ مِنْ صَلَاحٍ وَلَمْ يَهْدِ الْأَنَامُ لَهُ
 ١١٨- أَمْ كَانَ يُغْنِي نَقِيرًا عَنْ هِدَايَتِهِ
 ١١٩- أَخْبَارُهُ عِظَّةٌ أَمْثَالُهُ عِبْرٌ
 ١٢٠- لَمْ تَلْبَثِ الْجَنُّ إِذْ أَصْغَتْ لِتَسْمَعَهُ
 ١٢١- اللَّهُ أَكْبَرُ مَا قَدْ حَازَ مِنْ عِبَرٍ
 ١٢٢- وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِذْ أَعْيَتْ بِلَاغَتُهُ
- بِمَا أَتَى فِيهِ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حَكَمٍ
 لِكَوْنِهِ عَنْ هُدَاهُ الْمُسْتَتِرِ عَمِي
 خَيْرَ الْإِمَامِ إِلَى الْفِرْدَوْسِ وَالنَّعَمِ
 دَارِ الْمَقَامِ وَالْأَنْكَالِ وَالْأَلَمِ
 ظِلًّا لِتَالِيَيْهِمَا فِي مَوْقِفِ الْغَمِّ
 مُبَشِّرًا وَحَاجِجًا عَنْهُ إِنْ يَقُمْ
 تَاجَ الْوَقَارِ إِلَهُ الْحَقِّ ذُو الْكَرَمِ
 جَنَّاتٍ كَيْ تَنْتَهِيَ لِلْمَنْزِلِ النَّعَمِ
 لِوَالِدَيْهِ هَا الْأَكْوَانُ لَمْ تَقُمْ
 أَقْرَأْتُمَا ابْنَكُمَا فَاشْكُرْ لِذِي النَّعَمِ
 دَامَتْ لَدَيْنَا دَوَامًا غَيْرَ مُنْصَرِمٍ
 وَجَلَّ فِي كَثْرَةِ التَّرَادُدِ عَنْ سَامٍ
 مُصَدِّقًا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ فِي الْقَدَمِ
 عَمَّا سَيَأْتِي وَعَنْ مَاضٍ مِنَ الْأُمَمِ
 وَانْظُرْ لِمَا قَصَّ عَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَامٍ
 تَرَى بِهَا مِنْ عَوِيصٍ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ
 أَمْ بِأَبِ هُلُوكٍ وَلَمْ يَزْجُرْ وَلَمْ يَلْمِ
 جَمِيعُ مَا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ نُظُمٍ
 وَكُلُّهُ عَجَبٌ سُحْقًا لِذِي صَمَمٍ
 أَنْ بَادَرُوا نُذْرًا مِنْهُمْ لِقَوْمِهِمْ
 وَمِنْ بَيَانٍ وَإِعْجَازٍ وَمِنْ حَكَمٍ
 وَحُسْنُ تَرْكِيبِهِ لِلْعُرْبِ وَالْعَجَمِ

- ١٢٣ - كَمْ مُلْحِدٍ رَامَ أَنْ يُبْدِيَ مُعَارَضَةً فَعَادَ بِالذُّلِّ وَالْخُسْرَانِ وَالرَّغَمِ
 ١٢٤ - هِيَهَاتَ بُعْدًا لِمَا رَامُوا وَمَا قَصَدُوا
 ١٢٥ - خَابَتْ أَمَانِيهِمْ شَاهَتْ وُجُوهُهُمْ
 ١٢٦ - كَمْ قَدْ تَحَدَّى قَرِيشًا فِي الْقَدِيمِ وَهُمْ
 ١٢٧ - بِمِثْلِهِ وَبِعَشْرِ ثَمٍّ وَاحِدَةٍ
 ١٢٨ - الْجَنُّ وَالْإِنْسُ لَمْ يَأْتُوا لَوْ اجْتَمَعُوا
 ١٢٩ - أَنَّى وَكَيْفَ وَرَبُّ الْعَرْشِ قَائِلُهُ
 ١٣٠ - مَا كَانَ خَلْقًا وَلَا فَيْضًا تَصَوَّرُهُ
 ١٣١ - بَلْ قَالَهُ رَبُّنَا قَوْلًا وَأَنْزَلَهُ
 ١٣٢ - وَاللَّهُ يَشْهَدُ وَالْأَمَلَاكُ شَاهِدَةٌ
- فَعَادَ بِالذُّلِّ وَالْخُسْرَانِ وَالرَّغَمِ
 وَمَا تَمَنَّوْا لَقَدْ بَاؤُوا بِذُلِّهِمْ
 زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ هَدْيِهِ الْقِيمِ
 أَهْلُ الْبَلَاغَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
 فَلَمْ يَرَوْهُ إِذَا الْأَمْرُ لَمْ يُرَمِ
 بِمِثْلِهِ وَلَوْ انْضَمُّوا لِمِثْلِهِمْ
 سُبْحَانَهُ جَلَّ عَنْ شِبْهِهِ لَهُ وَسَمِي
 نَبِيِّنَا لَا وَلَا تَعْبِيرَ ذِي نَسَمِ
 وَحَيَّا عَلَى قَلْبِهِ الْمُسْتَقِظَ الْفَهْمِ
 وَالرُّسُلَ مَعَ مُؤْمِنِي الْعُرَبَانِ وَالْعَجَمِ

الوصية بالسنة

- ١٣٣ - ارْزُوا الْحَدِيثَ وَلَا زِمَ أَهْلَهُ فَهُمْ النَّبِيُّ
 ١٣٤ - سَامَتْ مَنَابِرُهُمْ وَاجْمَلُ مُحَابِرُهُمْ
 ١٣٥ - اسْلُكْ مَنَارَهُمْوُ وَالزَّمْ شِعَارَهُمْ
 ١٣٦ - هُمُ الْعُدُولُ لِحَمْلِ الْعِلْمِ كَيْفَ وَهُمْ
 ١٣٧ - هُمُ الْأَفَاضِلُ حَارُزُوا خَيْرَ مَنْقَبَةٍ
 ١٣٨ - هُمُ الْجَهَابِدَةُ الْأَعْلَامُ تَعْرِفُهُمْ
 ١٣٩ - هُمُ نَاصِرُو الدِّينِ وَالْحَامُونَ حَوَازَتُهُ
 ١٤٠ - هُمُ الْبُدُورُ وَلَكِنْ لَا أَفُوقَ لَهُمْ
 ١٤١ - لَمْ يَبْقَ لِلشَّمْسِ مِنْ نُورٍ إِذَا أَفَلَتْ
 ١٤٢ - لَهُمْ مَقَامٌ رَفِيعٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ
- نَاجُونَ نَصًّا صَرِيحًا لِلرَّسُولِ نَمِي
 وَالزَّمْ أَكَابِرَهُمْ فِي كُلِّ مُزْدَحَمِ
 وَاحْطُطْ رِحَالَكَ إِنْ تَنْزَلَ بِسُوحِهِمْ
 أُولُو الْمَكَارِمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ
 هُمُ الْأَلَى بِهِمُ الدِّينُ الْخَنِيفُ مُحْيِي
 بَيْنَ الْأَنَامِ بِسَيِّئَاتِهِمْ وَوَسْمِهِمْ
 مِنَ الْعَدُوِّ بِجَيْشٍ غَيْرِ مُنْهَزِمِ
 بَلِ الشُّمُوسُ وَقَدْ فَاوُوا بِنُورِهِمْ
 وَنُورُهُمْ مُشْرِقٌ مِنْ بَعْدِ رَمْسِهِمْ
 مِنَ الْعِبَادِ سِوَى السَّاعِي كَسَعِيهِمْ

- ١٤٣- أَبْلَغُ بِحُجَّتِهِمْ أَرْجَحُ بِكَفَّتِهِمْ
 ١٤٤- كَفَاهُمُ شَرَفًا أَنْ أَصْبَحُوا خَلَفًا
 ١٤٥- يُخَيِّوْنَ سُنَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ فَلَهُمْ
 ١٤٦- يَرُؤُونَ عَنْهُ أَحَادِيثَ الشَّرِيعَةِ لَا
 ١٤٧- يَنْفُونَ عَنْهَا انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَحْدِثُ
 ١٤٨- أَدَوًا مَقَالَتَهُ نَصْحًا لَأَمَّتِهِ
 ١٤٩- لَمْ يُلْهِهِمْ قَطُّ مِنْ مَالٍ وَلَا خَوَلٍ
 ١٥٠- هَذَا هُوَ الْمَجْدُ لَا مُلْكٌ وَلَا نَسَبٌ
 ١٥١- فَكُلُّ مُجْدٍ وَضِيعٌ عِنْدَ مُجْدِهِمْ
 ١٥٢- وَالْأَمْنُ وَالثُّورُ وَالْفُورُ الْعَظِيمُ لَهُمْ
 ١٥٣- فَإِنْ أَرَدْتَ رُقِيًّا نَحْوِ رُبِّيَّتِهِمْ
 ١٥٤- فَاعْمِدْ إِلَى سُلَمِ التَّقْوَى الَّذِي نَصَبُوا
 ١٥٥- وَاعْكُفْ عَلَى السُّنَّةِ الْمُثَلَّى كَمَا عَكَفُوا
 ١٥٦- وَاقْرَأْ كِتَابًا يُفِيدُ الْأَصْطِلَاحَ بِهِ
 ١٥٧- حَكِّمْ قَوَاعِدَهُ وَاحْرُزْ قَوَائِدَهُ
 ١٥٨- فَهِيَ الْمَحَجَّةُ فَاسْلُكْ غَيْرَ مُنْخَرِفٍ
 ١٥٩- وَخَيٍّ مِنْ اللَّهِ كَالْقُرْآنِ شَاهِدُهُ
 ١٦٠- خَيْرُ الْكَلَامِ وَمِنْ خَيْرِ الْأَنَامِ بَدَأَ
 ١٦١- وَهِيَ الْبَيَانُ لِأَسْرَارِ الْكِتَابِ فَبَالَ
 ١٦٢- حَكِّمْ نَبِيَّكَ وَانْقَدْ وَارْضْ سُنَّتَهُ
 ١٦٣- وَاعْضُضْ عَلَيْهَا وَجَانِبُ كُلِّ مُحَدَّثَةٍ
 ١٦٤- فَمَا لِذِي رِبِيَّةٍ فِي نَفْسِهِ حَرَجٌ
- فِي الْفَضْلِ إِنْ قَسَمْتَهُمْ وَزَنَّا بغيرِهِمْ
 لَسَيِّدُ الْحَنَفَا فِي دِينِهِ الْقِيمِ
 أَوْلَى بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
 يَأْلُونَ حِفْظًا لَهَا بِالصَّدْرِ وَالْقَلَمِ
 رِيفَ الْعُلَاةِ وَتَأْوِيلَ الْغَوِيِّ اللَّئِيمِ
 صَانُوا رِوَايَتَهَا عَنْ كُلِّ مُتَتَّبِعٍ
 وَلَا ابْتِيعَ وَلَا حَرْثٍ وَلَا نَعَمٍ
 كَلَّا وَلَا الْجَمْعُ لِلْأَمْوَالِ وَالْخَدَمِ
 وَكُلُّ مُلْكٍ فَخْدَامٌ لِلْمُلْكِهِمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْبُشْرَى لِحُزْبِهِمْ
 وَرُمْتَ مُجْدًا رَفِيعًا مِثْلَ مُجْدِهِمْ
 وَاضْعَدْ بِعَزْمٍ وَجَدٍّ مِثْلَ جَدِّهِمْ
 حِفْظًا مَعَ الْكَشْفِ عَنْ تَفْسِيرِهَا وَدُمِ
 تَذَرِي الصَّحِيحَ مِنَ الْمُوصُوفِ بِالسَّقَمِ
 تَحْزَنْ عَوَائِدَهُ كَالدَّرِّ تَنْتَظِمِ
 وَهِيَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَاءُ فَاعْتَصِمِ
 فِي سُورَةِ النَّجْمِ فَاحْفَظْهُ وَلَا تَهِمِ
 مِنْ خَيْرِ قُلُوبٍ بِهِ قَدْ فَاهَ خَيْرٌ فَمِ
 إِعْرَاضٍ عَنْ حُكْمِهَا كُنْ غَيْرَ مُتَسِمِ
 مَعَ الْيَقِينِ وَحَوْلِ الشَّكِّ لَا تَحْمِ
 وَقُلْ لِذِي بِدْعَةٍ بِدْعُوكَ لَا نَعَمِ
 بِمَا قَضَى قَطُّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ قَسَمِ

١٦٥ - (فَلَا وَرَبِّكَ) أَقْوَى زَاجِرًا لِأَوَّلِي الْ أَلْبَابِ وَالْمُلْحِدُ الزَّنْدِيقُ فِي صَمَمِ

في الفرائض والآلة والتحذير من العلوم المبتدعة

- ١٦٦ - وبالفرائض نصف العلم فاعن كما
١٦٧ - من فضلها أن تولى الله قسمتها
١٦٨ - (يُوصِيكُمُ اللَّهُ) آيٌ بَعْدَهَا اتَّصَلَتْ
١٦٩ - وَخُذْ إِذَا شِئْتَ مَا قَدْ تَسْتَعِينُ بِهِ
١٧٠ - كَالنَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَالتَّجْوِيدِ مَعَ لُغَةٍ
١٧١ - وَاحْذَرْ قَوَانِينَ أَرْبَابِ الْكَلَامِ فَمَا
١٧٢ - قَامُوسُ فَلَسَفَةٍ مِفْتَاحُ زَنْدَقَةٍ
١٧٣ - رَامُوا بِهَا عَزَلَ حُكْمِ اللَّهِ وَافْتَرَحُوا
١٧٤ - يُرُوكَ أَنْ تَزِنَ الْوَحْيَيْنِ مُجْتَرِّئًا
١٧٥ - وَأَنْ تُحْكَمَهَا فِي كُلِّ مُشْتَجِرٍ
١٧٦ - أَمَّا الْكِتَابُ فَحَرَّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ
١٧٧ - كَذَا الْأَحَادِيثُ أَحَادٌ وَلَيْسَ بِهَا
١٧٨ - وَقَدْ أَبَى اللَّهُ إِلَّا نَصَرَ مَا خَذَلُوا
١٧٩ - كَذَا الْكُهَانَةُ وَالتَّنَجِيمُ إِنَّهُمْ
١٨٠ - إِسْنَادُهَا حَزْبُ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ كَمَا
١٨١ - مَا لِلتُّرَابِ وَمَا لِلْغَيْبِ يُدْرِكُهُ
١٨٢ - لَوْ كَانَتْ الْجِنَّ تُدْرِي الْغَيْبَ مَا لَبِثَتْ
١٨٣ - أَمَّا النُّجُومُ فَزَيْنٌ لِلسَّمَاءِ (رُجُوعُ
١٨٤ - كَمَا بِهَا يَهْتَدِي السَّارِي لِوَجْهِتِهِ
- أَوْصَى إِلَهُهُ وَخَيْرُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ
وَلَمْ يَكِلْهَا إِلَى عُرْبٍ وَلَا عَجَمٍ
وَفِي الْكَلَالَةِ أُخْرَى فَادْنُ وَاعْتَنِمْ
مِنْ آلَةٍ تُلْفِيهَا حَالًا لِنُبَاهِمِ
يُذَرِّى بِهَا حَلٌّ مَا يَخْفَى مِنَ الْكَلِمِ
بِهَا مِنَ الْعِلْمِ غَيْرُ الشَّكِّ وَالتُّهْمِ
كَمْ مِنْ مُلِمٍّ بِهِ قَدْ بَاءَ بِالنَّدَمِ
لِلْحَقِّ رَدًّا وَإِنْفَادًا لِحُكْمِهِمْ
عَلَيْهِمَا بِعُقُولِ الْمُغْفَلِ الْعَجَمِ
إِذْ لَيْسَ فِي الْوَحْيِ مِنْ حُكْمٍ لِحُكْمِهِمْ
إِذْ لَيْسَ يُعْجِزُكَ التَّحْرِيفُ لِلْكَلِمِ
بُرْهَانُ حَقٍّ وَلَا فَضْلٌ لِمُخْتَصِمِ
وَكَسَرَ مَا نَصَرُوا مِنْهُمْ عَلَى رَغَمِ
كُفْرَانٍ قَدْ عَبَّأَ بِالنَّاسِ مِنْ قَدَمِ
مُتَوْنِهَا أَكْذَبُ الْمَنْقُولِ مِنْ كَلِمِ
مَا لِلتَّصَرُّفِ وَالْمُخْلُوقِ مِنْ عَدَمِ
دَهْرًا تُعَالِجُ أَصْنَافًا مِنَ الْأَلَمِ
مَا لِلشَّيَاطِينِ طَرْدًا لِاسْتِئَاعِهِمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَيْثُ السَّيْرُ فِي الظُّلَمِ

- ١٨٥- وَالنَّيِّرَانِ بِحُسْبَانٍ وَذَلِكَ تَقَى
١٨٦- فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَاكَ فَقَا
١٨٧- كَالْمُقْتَنِينَ لِعِبَادِ الْهِيَائِ كُلِّ فِي
١٨٨- وَالكَاتِبِينَ نِظَامًا فِي عِبَادَتِهَا
١٨٩- فَذَا سُعُودٌ وَذَا نَحْسٌ وَطَلَسُمُهُ
١٩٠- وَاحْذَرِ مَجَلَّاتِ سُوءٍ فِي الْمَلَأِ نُشِرَتْ
١٩١- تَدْعُو لِنَبْذِ الْهَدَى وَالذِّينِ أَجْمَعِهِ
١٩٢- وَلِلرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا
١٩٣- وَلِلتَّهْتِكِ جَهْرًا وَالْخَلَاعَةِ مَعِ
١٩٤- وَالاعْتِمَادِ عَلَى الْأَسْبَابِ مُطْلَقِهَا
١٩٥- وَالْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْأَمْثَلِ مَعَ رُسُلِ
١٩٦- وَلَا عِتْنِاقِ الطَّبِيعِيَّاتِ لَيْسَ لَهَا
١٩٧- قَامَتْ لَدَيْهِمْ بِلَا قِيَوْمٍ ابْدَعَهَا
١٩٨- سَمَوُهُ مَدَحًا لَهُ الْعِلْمَ الْجَدِيدَ بَلِ الْإِلَهِ
١٩٩- تَقَسَّمُوهُ الْمَلَا حِيدُ الطُّغَاةِ عَلَى
٢٠٠- وَكُلَّمَا مَرَّ قَرْنٌ أَوْ قُرُونٌ أَتَوْا
٢٠١- بَعْضُ الْخَبِيثِ عَلَى بَعْضٍ سَيَرَكُمُ
٢٠٢- وَاعْجَبْ لِعُدْوَانِ قَوْمٍ حَاوَلُوا سَفْهًا
٢٠٣- كَالنَّارِ فِي الْمَاءِ أَوْ طُهِّرْ عَلَى حَدَثٍ
- سَدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الْمُسْبِغِ النَّعَمِ
مَا لَيْسَ يَعْلَمُهُ فَهُوَ الْكَذُوبُ سِمِ
عَزُو التَّصَرُّفِ وَالتَّأْيِيرِ لِلتُّجْمِ
عَقْدًا وَكَيْفًا وَتَوْقِيًّا لِنُسْكِهِمْ
كَذَا وَنَاسِبُهُ ذَا كَمْ بِخَرْصِهِمْ
تَدْعُو جِهَارًا إِلَى نَشْرِ الْبَلَاءِ بِهِمْ
وَالْعِلْمِ بَلْ كُلِّ عَقْلٍ كَامِلٍ سَلِمِ
وَالرَّتْعِ كَالْحَيَوَانِ السَّائِمِ الْبِهِمْ
نَبْذِ الْمُرُوءَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ
دُونَ الْمُسَبِّبِ وَالْخَلَّاقِ مِنْ عَدَمِ
وَالْوَحْيِ مَعَ قَدَرِ الْبَعْثِ لِلرَّمَمِ
مُدَبِّرٍ فَاعِلٍ مَا شَاءَ لَمْ يَضْمِ
مُسَخَّرَاتٍ لِغَايَاتٍ مِنَ الْحَكَمِ
كُفَرَ الْقَدِيمِ وَمِنْهُ الْقَوْلُ بِالْقَدَمِ
سَهُمْ وَأَكْثَرَ لَا أَهْلًا بِذِي الْقَسَمِ
بِهِ عَلَى صُورَةٍ أُخْرَى لِحُبِّهِمْ
رَبِّي وَيَجْعَلُهُ فِي النَّارِ لِلضَّرَمِ
أَنْ يَجْمَعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي كَمَمِ
فِي وَقْتِهِ أَوْ إِخَاءِ الدُّبِّ وَالْغَنَمِ

خاتمة في تحصيل ثمرات العلم النافعة واجتناء قطوفه الدانية البانعة

- ٢٠٤- وَحَاصِلُ الْعِلْمِ مَا أُمِّلِي الصِّفَاتِ لَهُ
٢٠٥- وَذَلِكَ لَا حِفْظُكَ الْقُتْيَا بِأَحْرِفِهَا
- فَأَصْغِ سَمْعَكَ وَاسْتَنْصِتْ إِلَى كَلِمِي
وَلَا تَتَسَوِّدِكَ الْأَوْرَاقُ بِالْحَمَمِ

- ٢٠٦- وَلَا تَصْدُرْ صَدْرَ الْجَمْعِ مُحْتَبَاً
٢٠٧- وَلَا الْعِمَامَةَ إِذْ تُرَخِي ذُؤَابَتَهَا
٢٠٨- وَلَا بِقَوْلِكَ يَعْنِي دَائِبًا وَنَعَم
٢٠٩- وَلَا بِحَمَلِ شَهَادَاتٍ مُبْهَرَجَةٍ
٢١٠- بَلْ خَشْيَةُ اللَّهِ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ
٢١١- فَلَتَعْرِفِ اللَّهَ وَلَتَذْكُرْ تَصَرُّفَهُ
٢١٢- وَحَقَّهُ اعْرِفْ وَقُمْ حَقًّا بِمُوجِبِهِ
٢١٣- أَشَقَى وَأَسْعَدَ مُحْتَارًا أَضَلَّ هَدَى
٢١٤- أَوْحَى وَأَرْسَلَ وَصَّى أَمْرًا وَنَهَى
٢١٥- يُحِبُّ الْإِحْسَانَ وَالْعِصْيَانَ يَكْرَهُهُ
٢١٦- بِمُقْتَضَى ذَيْنِ فِي الدَّارَيْنِ مُطَرِّدٌ
٢١٧- فَاعْمَلْ عَلَى وَجَلٍ وَادَّأَبٍ إِلَى أَجَلٍ
٢١٨- لِلشَّرْعِ فَانْقُدْ وَسَلِّمْ لِلْقَضَاءِ وَلَا
٢١٩- وَبِالْمَقَادِيرِ كُنْ عَبْدًا لِلْمَالِكِهِ
٢٢٠- إِيَّاهُ فَاعْبُدْ وَإِيَّاهُ اسْتَعِزْ فَبِذَا
٢٢١- وَخُذْ بِالْأَسْبَابِ وَاسْتَوْهَبْ مُسَبِّبَهَا
٢٢٢- بِالشَّرْعِ زَنْ كُلِّ أَمْرٍ مَا هَمَمْتَ بِهِ
٢٢٣- أَخْلِصْهُ وَاصْدُقْ أَصْبَ وَاهْضَمْ فَلْيِ شُرْطَتْ
٢٢٤- أَخْلِصْهُ لِلَّهِ وَاصْدُقْ عَازِمًا وَأَصْبِ
٢٢٥- لَا تُعْجَبَنَّ بِهِ يُحْبَطُ وَلَا تَرَهُ
٢٢٦- وَحَيْثُ كَانَ مِنَ النَّهْيِ اجْتَنِبْهُ وَإِنْ
٢٢٧- وَأَوْقَبِ النَّفْسَ عِنْدَ الْأَمْرِ هَلْ فَعَلْتَ
- تُمْلِيهِ لَمْ تَفْقَهُ الْمَعْنَى بِالْكَلِمِ
تَصْنَعًا وَخِضَابُ الشَّيْبِ بِالْكَتَمِ
كَلا وَلَا خَمْلِكَ الْأَسْفَارَ كَالْبَهَمِ
بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ مِنْ تَنْشِيرٍ وَمُنْتَظَمٍ
فَاعْلَمْ هِيَ الْعِلْمُ كُلُّ الْعِلْمِ فَالْتَزِمِ
وَمَا عَلَى عِلْمِهِ قَدْ خُطَّ بِالْقَلَمِ
وَمَنْهَجَ الْحَقِّ فَاسْأَلْ عَنْهُ غَيْرَ عَمِي
أَذْنَى وَأَبْعَدَ عَدَلًا مِنْهُ فِي الْقِسْمِ
أَحَلَّ حَرَّمَ شَرَعََا كَامِلَ الْحُكْمِ
وَالْبِرَّ يَرْضَاهُ مَعَ سُخْطٍ لِحُزْمِهِمْ
لَا ظُلْمَ يُخْشَى وَلَا خَيْرٌ بِمُنْهَضِهِمْ
وَاعْزِلْ عَنِ اللَّهِ سُوءَ الظَّنِّ وَالتُّهْمِ
تُخَاصِمَنَّ بِهِ كَالْمُلْحِدِ الْخَصِمِ
وَعَابِدًا مُخْلِصًا فِي شَرْعِهِ الْقِيمِ
تَصِلْ إِلَيْهِ وَإِلَّا حُرْتَ فِي الظُّلْمِ
وِثْقٌ بِهِ دُونَهُ تَفْلِحْ وَلَمْ تُضْمِ
فَإِنْ بَدَأَ صَالِحًا أَقْدِمْ وَلَا تَحِمِ
فِي صَالِحِ السَّعْيِ أَوْ فِي طَيِّبِ الْكَلِمِ
صِرَاطُهُ وَاهْضَمْ النَّفْسَ تَنْهَضِمْ
فِي جَانِبِ الدُّنْبِ وَالتَّقْصِيرِ وَالنَّعَمِ
زَلَلْتَ تُبْ مِنْهُ وَاسْتَغْفِرْ مَعَ النَّدَمِ
وَالنَّهْيِ هَلْ نَزَعْتَ عَنْ مَوْجِبِ النَّقَمِ

- ٢٢٨- فَإِنْ زَكَّتْ فَأَحْمَدِ الْمَوْلَى مُطَهَّرَهَا
- ٢٢٩- وَإِنْ عَصَتْ فَأَعَصِهَا وَاعْلَمْ عِدَاوَتَهَا
- ٢٣٠- وَانْظُرْ نَحَازِي الْمُسِيئِينَ الَّتِي أَخَذُوا
- ٢٣١- وَالزَّمْ صِفَاتِ أُولِي التَّقْوَى الَّذِينَ بِهَا
- ٢٣٢- وَاقْنُتْ وَبَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ قُمْ أَبَدًا
- ٢٣٣- فَالْخَوْفُ مَا أَوْرَثَ التَّقْوَى وَحَثَّ عَلَى
- ٢٣٤- كَذَا الرَّجَا مَا عَلَى هَذَا يَحُثُّ لِتَض-
- ٢٣٥- وَالْخَوْفُ إِنْ زَادَ أَفْضَى لِلْقُنُوطِ كَمَا
- ٢٣٦- فَلَا تُفَرِّطْ وَلَا تُفْرِطْ وَكُنْ وَسْطًا
- ٢٣٧- سَدِّدْ وَقَارِبْ وَأَبْشِرْ وَاسْتَعِنْ بِغَدُو
- ٢٣٨- فَمِثْلُ مَا خَانَتِ الْكِسْلَانَ هِمَّتُهُ
- ٢٣٩- وَدُمْ عَلَى الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَحَوْ
- ٢٤٠- وَاضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي التَّوْفِيقِ مُبْتَهِلًا
- ٢٤١- يَا رَبِّ يَا حَيُّ يَا قِيَوْمُ مَغْفِرَةً
- ٢٤٢- وَامْنُنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضِيكَ وَأَقْضِهِ لِي
- ٢٤٣- وَأَعْلِ دِينَكَ وَانْصُرْ نَاصِرِيهِ كَمَا
- ٢٤٤- وَاقْصِمْ بِبَاسِكَ رَبِّي حِزْبَ خَاذِلِهِ
- ٢٤٥- وَاشْدُدْ عَلَيْهِمْ بَزْلَإِلٍ وَدَمْدَمَةً
- ٢٤٦- وَاجْعَلْهُمْ مَوْرَبًا لِلْخَلْقِ مَوْعِظَةً
- ٢٤٧- ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمَعْصُومِ مِنْ خَطَا
- ٢٤٨- وَالْآلِ وَالصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِينَ لَهُمْ
- وَنِعْمَةً اللَّهُ بِالشُّكْرِ أَنْ فَاسْتَدِمَ
- وَحَذَرْنَاهَا وَرُودَ الْمَوْرِدِ الْوَحِمِ
- بِهَا وَحَاذِرْ ذُنُوبًا مِنْ عِقَابِهِمْ
- عَلَيْهِمْ اللَّهُ أَتَنَى وَاقْتَدِهِ بِهِمْ
- تَخَشَى الذُّنُوبَ وَتَرْجُو عَفْوَ ذِي الْكَرَمِ
- مَرْضَاةَ رَبِّي وَهَجَرَ الْإِثْمَ وَالْأَثْمَ
- دِيقَ بِمَوْعِدِ رَبِّي بِالْجَزَا الْعَظِيمِ
- يُفْضِي الرَّجَاءَ لِأَمْنِ الْمَكْرِ وَالنَّقَمِ
- وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فَاسْتَقِمِ
- وَبِالرَّوَاغِ وَأَذْلَجْ قَاصِدًا وَدُمِ
- فَطَالَ مَا حُرِمَ الْمُنْبِتُ بِالسَّامِ
- قَلْ وَاسْأَلِ اللَّهَ رِزْقًا حُسْنِ مُحْتَمِ
- فَهُوَ الْمُجِيبُ وَأَهْلُ الْمَنْ وَالْكَرَمِ
- لِمَا جَنَيْتَ مِنَ الْعِصْيَانِ وَاللَّامِ
- مِنْ اعْتِقَادٍ وَمِنْ فِعْلٍ وَمِنْ كَلِمِ
- وَعَدْتَهُمْ رَبَّنَا فِي أَصْدَقِ الْكَلِمِ
- وَرَدَّ كَيْدَ الْأَعَادِي فِي نُحُورِهِمْ
- كَمَا فَعَلْتَ بِأَهْلِ الْحَجَرِ فِي الْقَدَمِ
- وَعِبْرَةً يَا شَدِيدَ الْبَطْشِ وَالنَّقَمِ
- مُحَمَّدٍ خَيْرِ رُسُلِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
- وَتَمَّ نَظْمِي بِحَمْدِ اللَّهِ ذِي النِّعَمِ

شرح المنظومة

* قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

- ١- الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى آلائِهِ وَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالنَّعَمِ
- ٢- ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ الـ بَرِّ الْمُهَيَّمِ مُبْدِي الْخَلْقِ مِنْ عَدَمِ
- ٣- مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ مَا لَا يَعْلَمُونَ وَيَأْتِ بَيَانٍ أَنْطَقَهُهُمْ وَالْخَطُّ بِالْقَلَمِ
- ٤- ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ أَكْرَمِ مَبْنَى عُوثٍ بِخَيْرِ هُدًى فِي أَفْضَلِ الْأُمَمِ
- ٥- وَالْآلِ وَالصَّحْبِ وَالْآتِبَاعِ قَاطِبَةً وَالتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ لِنَهْجِهِمْ
- ٦- مَا لَاحَ نَجْمٌ وَمَا شَمْسٌ الضُّحَى طَلَعَتْ وَعَدُّ أَنْفَاسٍ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ نَسَمِ

بدأ رَحِمَهُ اللهُ بحمد الله عَزَّوَجَلَّ والثناء عليه - سبحانه - بما هو أهله.

والبدء بحمد الله عَزَّوَجَلَّ أمرٌ درج عليه أهل العلم؛ تأسياً بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ،
وتأسياً بالنبي ﷺ في خطبه ورسائله.

و«الحمد»: هو الثناء على الله - جلَّ وعلا - بالصفات الكاملة والأفعال
العظيمة، وهو - جلَّ وعلا - له الحمد كله أولاً وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا.

وحمد الله نوعان:

- ١- حمدٌ له - تبارك وتعالى - على أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة العليا.
- ٢- وحمدٌ له على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، وآلائه التي لا تُستقصى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والحمد نوعان: حمدٌ على إحسانه إلى عباده، وهو من الشُّكر؛ وحمدٌ لما يستحقُّه هو بنفسه من نعوت كماله، وهذا الحمد لا يكون إلَّا على ما هو في نفسه مستحقٌّ للحمد، وإنَّما يستحقُّ ذلك من هو متَّصف بصفات الكمال»^(١).

والناظم رَحِمَهُ اللهُ جمع بين هذين النوعين؛ إذ حمد الله على الأسماء والصفات، وحمده - جلَّ وعلا - على الآلاء والنعم.

وقوله: «رَبِّ الْعَالَمِينَ»؛ أي خالقهم ورازقهم ومالكهم والمتصرِّف فيهم خفضًا ورفعًا، وقبضًا وبسطًا، وحياةً وموتًا، فلا ربَّ لهم سواه، ولا خالق لهم غيره جلَّ وعلا.

وقوله: «عَلَى آلَائِهِ»؛ «الآلاء»: النعم، قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ كَذِبَان﴾ [الرحمن: ١٣]، والنعم كلُّها منه، وهي لا تعدُّ ولا تحصى، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَلَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

وقوله: «وَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالنَّعْم»؛ «أهل الحمد» أي: الحقيق بأن يُحمد - جلَّ وعلا -، وقد ثبت في «صحيح مسلم» فيما يُقال عند الرَّفع من الرُّكوع: «أَهْلُ الشَّانِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالِ الْعَبْدُ»^(٢)، أي أهل - أنت يا الله - وحقيق أن يُثنى عليك وأن تُمجَّد.

وقوله: «النَّعم» أي: مُسدي النعم والمتفضِّل بها وحده لا شريك له.

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٨٤).

(٢) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رَحِمَهُ اللهُ بِرَقْم (٤٧٧).

ثُمَّ قَالَ ﷺ: «ذِي الْمُلْكِ»؛ وهو بَدَلٌ مِنْ لَفْظِ الْجَلَالَةِ، أَيِ صَاحِبِ الْمُلْكِ، وَالْمُلْكُ يَرْجِعُ إِلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ:

الأَوَّلُ: ثُبُوتُ صِفَاتِ الْمُلْكِ لَهُ الَّتِي هِيَ صِفَاتُ الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ وَالْكَهَالِ وَالْكَبْرِيَاءِ؛ كَالْقُوَّةَ وَالْعِزَّةَ وَالْقُدْرَةَ، وَنَحْوَهَا مِنَ الصِّفَاتِ.

الثَّانِي: أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ مَمَالِكُهُ وَعَبِيدُهُ، وَمُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، وَمُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ، وَلَا غِنَى لَهُمْ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

الثَّالِثُ: أَنَّ لَهُ التَّدْبِيرَاتِ النَّافِذَةَ، يَقْضِي فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ بِمَا يَرِيدُ، يَعْطِي وَيُمْنَعُ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَيَقْبِضُ وَيَبْسِطُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيَعِزُّ وَيَذِلُّ، لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مَعْقِبَ لِحُكْمِهِ، لَهُ الْحُكْمُ فِيهِ تَقْدِيرًا وَشَرْعًا وَجَزَاءً. وَقَوْلُهُ: «وَالْمُلْكُوتُ» بزيادة الواو والتاء، عَلَى وَزْنِ «فَعْلُوتُ» صِيغَةً مَبَالِغَةً، مِثْلُ: «جَبَرُوتُ»، وَ«رَعْبُوتُ»، وَ«رَهْبُوتُ»؛ مِنْ الْجَبَرِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ^(١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]، وَثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رحمته الله أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمُلْكُوتِ وَالْكَبْرِيَاءِ وَالْعِظَمَةِ»^(٢).

(١) راجع «لسان العرب»: باب رحم (١٢ / ٢٣٠).

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٨٠)، وأبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٨١٧).

وقوله: «الواحد»؛ وهو اسمٌ من أسماء الله تعالى الحسنى، ومعناه: المتفرد بصفات المجد والجلال، والمتوحد بنعوت العظمة والكبرياء والجمال، فهو - سبحانه وتعالى - واحدٌ في ذاته لا شبيه له، وواحدٌ في صفاته لا مثيل له، وواحدٌ في أفعاله لا شريك له، وواحدٌ في ألوهيته فليس له ندٌّ في المحبة والتعظيم والذل والخضوع، وهو - جلَّ وعلا - الواحد الذي عظمت صفاته حتى تفرد بكلِّ كمالٍ.

وقوله: «الصَّمد»؛ وهو اسمٌ من أسماء الله - جلَّ وعلا - ورد في سورة الإخلاص، ومعناه: السيّد العظيم الذي كمل في علمه وحكمته وقدرته وعزّته وجميع صفاته، فهو - سبحانه - واسع الصفات عظيمها، الذي صمدت إليه جميع المخلوقات، وقصدته كلُّ الكائنات بأسرها في جميع شؤونها، فليس لها ربٌّ سواه^(١).

وقوله: «البرُّ» وهو اسمٌ من أسماء الله الحسنى، ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]. ومعناه: الذي شمل الكائنات بأسرها ببرّه وفضله ومنّه وجوده وعطائه، وآثارُ هذا الوصف شمل جميع النعم الظاهرة والباطنة، فلا يستغني مخلوق عن إحسانه وبرّه طرفة عينٍ.

وقوله: «المهيمن»؛ وهو اسمٌ ثابتٌ في القرآن في أواخر سورة الحشر

(١) انظر: «فتح الرحيم الملك العلام» للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (٣٨).

ومعناه: «أي المطلع على خفايا الأمور وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، الشاهد على الخلق بأعمالهم، الرقيب عليهم فيما يصدر منهم من قول أو فعل»^(١).

وقوله: «مُبْدِي الخلق من عَدَم»؛ أي موجدهم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال جلّ وعلا: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقوله: «من عَدَم» دلّ على ذلك نصوص منها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١].

* ثم قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٣- مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ مَا لَا يَعْلَمُونَ وَبِالْـ بَيَانٍ أَنْطَقَهُمْ وَالْخَطَّ بِالْقَلَمِ
«من علّم الناس ما لا يعلمون وبإلـ بَيَانٍ أَنْطَقَهُمْ وَالْخَطَّ بِالْقَلَمِ»
ما لا يعلمون، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال جلّ وعلا: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، وقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٣]، فالعلم فضل الله ومنته.

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للعلامة ابن سعدي (٩٤٧).

وتعليمه - سبحانه - شامل لكل علم من علوم الدنيا وعلوم الآخرة، وحظ الكافر من ذلك ظاهر من الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وأكرم الله ﷻ المسلمين بخير العلوم وأنفعها ألا وهو العلم بما خلقوا لأجله، وأوجدوا لتحقيقه على تفاوت بينهم في ذلك قوة وضعفاً. وقوله: «وبالبيان أنطقهم والخط بالقلم»؛ أي أن الله ﷻ أنطق الإنسان بالبيان، كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، فهو يتلفظ ويتكلم بلسانه ما يبين عما في ضميره، والإبانة عما في الضمير تكون باللسان وتكون - أيضاً - بالخط بالقلم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]؛ ولهذا فإن تعليم الله - سبحانه وتعالى - للإنسان ما لم يعلم يشمل التعليم النطقي والتعليم الخطي، والناظم بحمد الله جمع بينهما بقوله: «وبالبيان أنطقهم والخط بالقلم».

وقوله: «والخط» معطوف على «البيان» أي أنطقهم بالبيان وأنطقهم بالخط، فيبين عما في ضميره بالنطق بلسانه، ويبين - أيضاً - عما في ضميره بالخط بقلمه.

* ثم قال ﷻ:

٤ - ثم الصلاة على المختار أكرم مَبْ - عُوْثٍ بِخَيْرِ هُدًى فِي أَفْضَلِ الْأُمَمِ

عطف ﷻ الصلاة على النبي ﷺ على الحمد والثناء على الله؛ جمعاً في صدر نظمه بين الحمد لله، والصلاة على رسول الله ﷺ.

وصلاتنا على النبي المختار ﷺ هي - كما قال ابن القيم في كتابه «جلاء الأفهام»^(١) -: «الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه، وإظهاراً لفضله وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه، فهي تتضمن الخبر والطلب، وسمي هذا السؤال والدعاء منّا نحن «صلاة عليه» لوجهين: أحدهما: أنه يتضمن ثناء المصلي عليه، والإشادة بذكر شرفه وفضله، والإرادة والمحبة لذلك من الله تعالى، فقد تضمنت الخبر والطلب. والوجه الثاني: أن ذلك سمي منّا صلاة؛ لسؤالنا من الله أن يصلي عليه، فصلاة الله عليه ثناؤه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه، وصلاتنا نحن عليه سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به» انتهى كلامه رحمه الله.

وقوله: «على المختار»؛ أي محمد ﷺ خاتم النبيين، و«المختار» هو من أوصافه - صلوات الله وسلامه عليه -، ومعناه: المصطفى والمجتبى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. وقوله: «أكرم مبعوث»، هذا وصف له - صلوات الله وسلامه عليه -، فالنبي ﷺ أكرم مبعوث، أي أفضل رسول أرسل، و«المبعوث»: المرسل، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

(١) (ص ٢٦٢ - ٢٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ ورواه الإمام أحمد (١٠٩٨٧)، والترمذي (٣٦١٥) وصححه، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْر».

وقوله ﷺ: «بِخَيْرِ هُدًى»؛ أي بأفضل هدى، وقد كان ﷺ في كل جمعة إذا خطب الناس يقول: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١).

فهو - عليه الصلاة والسلام - المبعوث بخير هدى.
وقوله: «في أفضل الأمم»؛ أي أمة محمد ﷺ، وهي أفضل أمم النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد جاء في «مسند الإمام أحمد» ﷺ بسند حسن، عن حكيم بن معاوية عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(٢).

قال ابن القيم رحمته الله: «وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم وتوحيدهم ومنازلهم في الجنة ومقاماتهم في الموقف»^(٣).

وقول الله جلّ وعلا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

(١) رواه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد برقم (٢٠٠١٥)، والترمذي (٣٠٠١) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٨٨) بلفظ: «إِنَّكُمْ تَتْمُونُ سَبْعِينَ أُمَّةً...»، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٦٢٨٥).

(٣) «زاد المعاد» (١/ ٤٥).

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿[آل عمران: ١١٠]، دالٌّ على خيريَّة
هذه الأُمَّة من وجوه:

♦ من جهة كمال إيمانهم بالله.

♦ ومن جهة أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

♦ ومن جهة كونهم خير النَّاسِ لِلنَّاسِ.

وهذا المعنى استظهره بعض الصَّحابة من الآية؛ كما جاء عن أبي هريرة
رضي الله عنه أنه قال في معنى الآية: «خير النَّاسِ لِلنَّاسِ، تأتون بهم في السَّلاسل في
أعناقهم حتَّى يدخلوا الإسلام»^(١)، وكذا قال غير واحد من السَّلف.

♦ ومن وجوه خيريَّة هذه الأُمَّة: أنَّها أكثر الأمم استجابةً لنيِّها، كما في
الحديث عنه رضي الله عنه أنه قال: «أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

♦ ومن وجوه خيريَّتها: أنَّها أكثر الأمم دخولاً للجنة، كما جاء في حديث
ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ
الْجَنَّةِ»، قلنا: نعم، قال: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلْثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، قلنا: نعم، قال:
«أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، قلنا: نعم، قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ
بِيَدِهِ! إِنِّي لَا رَجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا
نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٥٧).

(٢) رواه مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه برقم (١٩٦).

الْأَسْوَدُ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ» متفق عليه^(١).

* وقول الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

هـ- وَالْأَلِ وَالصَّحْبِ وَالْأَتْبَاعِ قَاطِبَةً وَالتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ لِنَهْجِهِمْ

قوله: «والأل» معطوفة على «المختار»، أي: والصلاة على الأل والصَّحْبِ
والأَتْبَاعِ.

والمراد بـ«الأل» هنا: آل النَّبِيِّ ﷺ، وهم الَّذِينَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ،
وهم أَقَارِبُهُ مِنْ جَدِّهِ الْأَقْرَبِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، وَذُرِّيَّتُهُ ﷺ، وَمِنْ آلِهِ - أَيْضًا -
زَوْجَاتُهُ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا يَدُلُّ لَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿يَنْسَأُ النَّبِيُّ لَسْتُنَّ
كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَنْفَقْتُمْ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا
مَعْرُوفًا ۝ (٣) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ
وَأَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٣]، وجاء في «الصَّحَّاحِينَ» عَنْ
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزٍ بَرٍّ مَادُومٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ
حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ»^(٢).

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «وَالصَّحْبِ»؛ أي أصحاب النَّبِيِّ ﷺ، وهم الَّذِينَ أَكْرَمَهُمُ

اللهُ بِلِقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْإِيَّانَ بِهِ وَمَاتُوا عَلَى ذَلِكَ.

(١) رواه البخاري برقم (٦٥٢٨)، ومسلم برقم (٢٢١).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٤٢٣)، ومسلم برقم (٢٩٧٠).

وقوله: «والأتباع قاطبة» أي الذين لقوا أصحاب النبي ﷺ؛ لأنه عطفهم عليهم.

وقوله: «والتابعين بإحسان لنهجهم»، والمراد بـ«التابعين بإحسان»: مَنْ أخذوا عن الأتباع إلى قيام الساعة، فقد قال الله جلّ وعلا: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قوله: «لنهجهم»؛ أي ساروا على النهج الذي كانوا عليه.

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦- ما لاح نجمٌ وما شمسُ الضُّحَى طَلَعَتْ وَعَدُّ أَنْفَاسٍ ما في الكونِ مِنْ نَسَمٍ

قوله: «ما لاح»؛ أي ما ظهر وطلع.

قوله: «وما شمسُ الضُّحَى طَلَعَتْ»؛ خَصَّ رَحِمَهُ اللَّهُ شمسَ الضُّحَى بالذكر لأنها في ذلك الوقت تشتدُّ إضاءتها، وكثيراً ما يخصصها الشعراء بالذكر.

«وعدُّ أنفاس»؛ أي وعدُّ أنفاس ما في الكون من نسَم، سواء أنفاس النَّاس أو غيرهم.

قوله: «من نسَم» جمع نسمة، والمراد كلُّ ذي روح.

وقصد الناظم بذكر هذه الأمور الصَّلَاة عليه ﷺ بالكثرة، صلاةً كثيرةً

مَزِيدَةً إلى يوم الدِّين، فصلوات الله وسلامه عليه، وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ هنا وفي خاتمة النظم ذكر السَّلام على النَّبِيِّ ﷺ عقب الصَّلَاة عليه ولعلَّ ذلك وقع سهواً.

* قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٧- وَبَعْدُ مَنْ يُرِدُ اللهُ الْعَظِيمُ بِهِ خَيْرًا يُفْقَهُهُ^(١) فِي دِينِهِ الْقِيمِ

قوله: «وبعد»؛ هي كلمة يُؤْتَى بها للانتقال من أسلوبٍ إلى آخر، وقد كان النبي ﷺ يأتي بها في خطبه ومكاتباته، ومعناها: «مهما يكن من شيء بعد». فلما أنهى الحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺ، وعلى الصَّحْب والآل، قال: «وبعد» مُشْعِرًا بذلك إرادته الشُّروع في المقصود.

وشرع رَحِمَهُ اللهُ بدأً من هذا البيت بذكر فضائل العلم، مشيرًا إلى الدلائل على مكانته العلية، ومنزلته العظيمة، وآثاره المباركة، وعوائده الحميدة.

وقوله: «مَنْ يُرِدُ اللهُ الْعَظِيمُ بِهِ خَيْرًا يُفْقَهُهُ فِي دِينِهِ الْقِيمِ»

يدلُّ عليه ما ورد في «الصَّحِيحِينَ» من حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقَهُهُ فِي الدِّينِ»^(٢)، والمراد بـ«الدِّين»؛ أي أصوله وفروعه.

والفقه في الدِّين يشمل الفقه في أصول الدِّين، وهو ما يسمَّيه بعض أهل

(١) حُرِّكَتِ الهاء بالضم للضرورة الشعرية مراعاة للوزن العروضي، والأصل أُنْهَا

بسكون الهاء لوقوعها في جواب الشرط وجزائه.

(٢) رواه البخاري برقم (٧١)، ومسلم برقم (١٠٣٧).

العلم «الفقه الأكبر»^(١) وهو «العقيدة»، ويشمل - أيضًا - الأحكام وتفاصيل الشرائع وما يتعلق بالمعاملات، وأيضًا الآداب والأخلاق، فكل ذلك يتناوله قول النبي ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

والفقه: الفهم، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِي دِينِهِ الْقِيَمَ» هكذا تُضبط «الْقِيَمَ» بتخفيف الياء كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، والمراد بـ«الْقِيَمَ» أي المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

* وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

٨- وَحَثَّ رَبِّي وَحَضَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَفَقُّهِ الدِّينِ مَعَ إِنْذَارِ قَوْمِهِمْ «حَضَّ» بمعنى حَثَّ، أي حَثَّهم على أن يتفقهوا في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْئَةٍ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقد جمعت الآية أمرين أشار إليهما الناظم:

الأول: الحثُّ على الفقه في الدين في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

(١) قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٣٠٧/١٩): «ويسمِّيها بعضهم «الفقه الأكبر». وهذا نظير تسمية سائر المصنِّفين في هذا الباب «كتاب السُّنَّة»؛ كـ«السُّنَّة» لعبد الله بن أحمد، والخلال، والطبراني، و«السُّنَّة» للجعفي، وللاثرم، ولخلق كثير صَنَّفُوا فِي هَذِهِ الْأَبْوَابِ، وَسَمَّوْا ذَلِكَ كِتَابَ السُّنَّةِ؛ لِيُمَيِّزُوا بَيْنَ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَعَقِيدَةِ أَهْلِ الْبِدْعَةِ». اهـ

وقد ألَّف الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ كتابًا في هذا الباب سمَّاه «الفقه الأكبر».

الثاني: الحثُّ على إنذار القوم في قوله: ﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٩- وَاْمْتَنَنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ الْعِبَادِ وَكُلِّ لِرِ الرُّسُلِ بِالْعِلْمِ فَادْكُرْ أَكْبَرَ النِّعَمِ

«وَاْمْتَنَنَّ رَبِّي»؛ أي من الله - سبحانه وتعالى - على العباد وتفضل - ومن

أسمائه «الْمَنَّان» - «بالعلم»؛ فالعلم منته - جلَّ وعلا - على عباده.

وقوله: «على كلِّ العباد» دليله قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

وقوله: «وكلُّ الرُّسل» دليله قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقوله: «فاذكُرْ أَكْبَرَ النِّعَمِ»؛ أي كُنْ على ذكر لأكبر نعمة أنعم الله بها على

عباده أن فقههم ورزقهم البصيرة في دينهم.

* قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٠- يَكْفِيكَ فِي ذَاكَ أُولَى سُورَةٍ نَزَلَتْ عَلَى نَبِيِّكَ أَغْنِي سُورَةَ الْقَلَمِ

«يكفيك في ذاك»؛ أي في بيان شرف العلم وفضله، وأنه من أعظم من الله

- سبحانه وتعالى - على عباده به «أولى سُورَةٍ نَزَلَتْ»؛ يعني «سورة العلق» ﴿اقْرَأْ

بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ

الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]، فهي أول سورة في القرآن نزولاً على نبيِّنا ﷺ^(١).

(١) وذلك في حديث «بدء الوحي» الذي رواه البخاري برقم (٤٩٥٣)، ومسلم برقم

(١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقوله: «أعني سورة القلم» أي: السورة التي ذكر فيها القلم، وإلا فإن السورة التي تُعرف بالقلم هي سورة ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) .

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١١- كَذَلِكَ فِي عِدَّةِ الْآلَاءِ قَدَّمَهُ ذِكْرًا وَقَدَّمَهُ فِي سُورَةِ النَّعْمِ «كَذَلِكَ»؛ أي إضافةً إلى ما سبق؛ فإنَّ الله ﷻ قَدَّمَ الْعِلْمَ وَالْمِنَّةَ بِهِ «فِي عِدَّةِ الْآلَاءِ»؛ مشيرًا إلى سورة الرَّحْمَنِ الَّتِي عَدَّدَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِيهَا عَلَى عِبَادِهِ آلَاءَهُ وَنِعَمَهُ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِيهَا قَوْلُهُ: ﴿فَإِنِّيْ ءَالَآءُ رَبِّكُمْآ تَكْذِبَانَ﴾ (١) إِحْدَى وَثَلَاثِينَ مَرَّةً.

وبدأ سبحانه ذكر النعم في هذه السورة بنعمة العلم فقال تعالى: ﴿الرَّحْمٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤]. «وَقَدَّمَهُ فِي سُورَةِ النَّعْمِ»؛ أي «سورة النحل»، وَيَسْمِيْهَا أَهْلُ الْعِلْمِ: «سورة النعم»؛ لكثرة ما عَدَّدَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِيهَا مِنْ نِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ إِلَى أَنْ خَتَمَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذٰلِكَ يُنۢزِلُ نِعۢمَتَهُ عَلَیْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٨١] (١).

(١) أورد ابن كثير في «تفسيره» (٧٠٦/٢) عن قتادة قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ يُنۢزِلُ نِعۢمَتَهُ عَلَیْكُمْ﴾: «هذه السورة تسمى سورة النعم»؛ وعن علي بن زيد قال: كان يُقال لسورة النحل: «سورة النعم»؛ لكثرة تعداد النعم فيها، انظر: «زاد المسير» (٤/٤٢٥ - ٤٢٦)، و«الدر المنثور» (٥/١٠٧).

وتقديمه سبحانه العلم في هذه السورة هو قوله في أولها: ﴿أَنذَرُكُمْ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ① يُزِيلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿[النحل: ١ - ٢]، والمراد بـ«الروح» هو الوحي، و«الوحي» هو العلم النافع الذي فيه بيان دين الله ﷻ أصوله وفروعه، وجاء - أيضاً - ذكر نعمة العلم في مواضع من هذه السورة؛ كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

* قال ﷻ:

١٢- وَمَيِّزَ اللَّهُ حَتَّى فِي الْجَوَارِحِ مَا مِنْهَا يُعْلَمُ عَنْ بَاغٍ وَمُغْتَشِمٍ «ومَيِّزَ الله» أي: بالعلم. «حتى في الجوارح» فليست سواء، بل بينها تمايز. والمراد بـ«الجوارح»: الكلاب والصقور ونحوهما مما يصيد بنابه أو بمخلبه، فالله - جلّ وعلا - ميّز في القرآن ما كان منها معلماً، وما كان منها غير معلّم، كما في قوله - جلّ وعلا -: ﴿تَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]، فالكلبُ المعلّم إذا صَادَ جازَ أكل ما أمسك علينا من الصيد، وغيرُ المعلّم إذا صَادَ لا يحلُّ صيده.

وقوله: «ما منها يُعْلَمُ عن باغٍ ومُغْتَشِمٍ»؛ أي ميّز الذي يُعْلَمُ منها عن

الباغي والمغتشم، و«الباغي» أي المعتدي، و«المغتشم» هو الذي يأتي بالأمور خبطاً من غير فكرٍ ولا نظرٍ.

❖ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٣- وذمَّ ربِّي تعالى الجاهِلينَ بِهِ أَشَدَّ ذَمٍّ فَهُمْ أَذْنَى مِنَ الْبَهَمِ

وذمَّ الله تعالى الجاهِلينَ بهذا الدِّينِ أَشَدَّ ذَمٍّ، وجعل منزلَتَهُم أَذْنَى من بهيمة الأنعام، و«الْبَهَمِ»: جمع بهيمة، يُشير بذلك إلى قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أِذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰٔفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

❖ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٤- وَلَيْسَ غِبْطَةٌ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ هُمَا الْإِحْسَانُ فِي الْمَالِ أَوْ فِي الْعِلْمِ وَالْحَكَمِ

أي لَا يُغْبِطُ النَّاسُ إِلَّا عَلَى أَمْرَيْنِ: الإحسان ببذل المال، والإحسان ببذل العلم، كما في «الصَّحِيحِينَ» من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَاسْلَطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»^(١).

والمراد بالحسد في الحديث «الغِبْطَةُ» وهي أن تتمنى أن يكون لك مثل ما

(١) رواه البخاري برقم (٧٣)، ومسلم برقم (٨١٦).

عند الغير من النعم^(١)، أمّا كره النعمة التي أنعم الله بها على الغير أو تمنّي زوالها أو السعي في زوالها؛ فهذا حسدٌ مذموم، وهو محرّم.

* ثمّ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٥- وَمِنْ صِفَاتِ أُولِي الْإِيمَانِ نَهَمَتُهُمْ فِي الْعِلْمِ حَتَّى اللَّقَى أَغْبَطَ بِذِي النَّهَمِ

أي من أوصاف وزينة وحلية أهل الإيمان شدة حرصهم على العلم وطلبه وتحصيله؛ لأنّهم هم الذين عرفوا قدر العلم ومكانته وفضله، فنهمتم في العلم شديدة، ورغبتهم فيه قويّة أكيدة.

«حَتَّى اللَّقَى»؛ أي نهمتم فيه مستمرة ودائمة إلى الموت، ورئي الإمام

أحمد رَحِمَهُ اللهُ في آخر حياته ومعه المحابر والأقلام! قيل: إلى متى تطلب العلم؟! قال: «معي المحبرة إلى المقبرة»^(٢).

«أَغْبَطَ»؛ أي اجعل هذا الأمر أعظم ما يغبط الناس عليه، ونظير ذلك ما

رُوي في الحديث عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله ﷻ: «الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ»^(٣).

(١) يقال: غَبَطْتُ الرَّجُلَ أَغْبِطُهُ غَبْطًا؛ إذا اشتهيت أن يكون لك مثل ما له وأن لا يزول عنه ما هو فيه. «لسان العرب» (٧/ ٣٨٥).

(٢) انظر: «الأدب الشرعي» (٢/ ٥٤) لابن مفلح.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٩٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصحّحه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٧٧٦١) وغيره.

«بذي النّهم»؛ أي أصحاب النّهمة الشّديدة والحرص على العلم وتحصيله،
وفي الحديث «مَنْهُمَان لَا يَشْبَعَان: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا»^(١)

* قال النّاظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٦- الْعِلْمُ أَعْلَى وَأَحْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعْتُ أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمٍ

يشير رَحِمَهُ اللهُ إلى علو شأن العلم، وحلاوة طعمه ومذاقه، وأنّه أعلى شيء
اعتنى به العبد وأحلى شيء استمعت له أذن، ولكن هذه الحلاوة لا يحظى بها
قلب مريض، فالقلب المريض لا يذوق هذه الحلاوة، ولا يشعر بطعمها، بل
ينفر قلبه من العلم الذي هو أحلى شيء، وأطيب شيء، وأجمل شيء.
«وأعرب عنه ناطق بفم» أي: وهو أرفع شيء وأحلى شيء نطق به المرء بفمه.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٧- الْعِلْمُ غَايَتُهُ الْقُصْوَى وَرُتْبَتُهُ الْـ عَلِيَاءُ فَاسْعُوا إِلَيْهِ يَا أُولِي الْهِمَمِ

في هذا إشارة إلى غاية العلم الشرعي الشريفة، وأنه يبحث في أعظم
غاية، وأجل مقصود، وأشرف مراد، ألا وهو ما خلق العباد لأجله وأوجدوا

(١) رواه البزار (٤٨٨٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٩٠٥)، و«الأوسط»
(٥٦٧٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف. ولكن
له شواهد كثيرة أورد بعضها السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٢٠٦) وقال: «وإن
كانت مفرداتها ضعيفة بمجموعها تقوى»؛ ولذلك صحّحه الألباني في «صحيح
الجامع» (٦٥٠٠).

لتحقيقه، وهذا هو أعلى الأمور وأرفعها، فله ولأهله العلوُّ والرِّفعة، قال تعالى:

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله: «فاسعوا»؛ لما ذكر هذه الفضائل للعلم حثَّ على السَّعي إليه بالاجتهاد في طلبه وتحصيله ونيله.

وقوله: «يا أولي الهمم» أي: العالية؛ أمَّا من كانت همَّته دنيَّة، فهو عن ذلك بعيد، وعنه بمعزل.

﴿ ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٨- الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ اللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
«الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ»؛ المراد بـ«العلم»: العلم الشرعي، وهو أشرف
مطلوبٍ يسعى الإنسان في نيله وطلبه وتحصيله.

فبالعلم يُعرَفُ التَّوْحِيدُ والإيمان، وبه تُعرف أصولُ الإيَّان وشرائعُ
الإسلام، وبه تُعرف الأخلاقُ الفاضلة والآدابُ الكاملة، وبه يتميَّز النَّاسُ،
قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال أيضًا:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله: «وَطَالِبُهُ اللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ»؛ أي الذي يطلبُ العلمَ
مخلصًا لله يبتغي به وجهَ الله أكرم من يمشي على قدم، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي
مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المالك: ٢٢].

وهذا فيه شرف أهل العلم وفضلهم وعلو مكانتهم.

وأما الذي يطلبه ليقال عالمٌ أو ليُمَارَى به السُّفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه أو غير ذلك؛ فإنه من أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة^(١).

والعلمُ عبادةٌ، والعبادة شرطُ قبولها للإخلاص لله - سبحانه وتعالى -؛ فمن طلب العلمَ يبتغي وجه الله - سبحانه وتعالى - قبل منه طلبه للعلم وأثابه عليه عظيم الثواب، ولهذا ذكر الشيخُ هذا القيدَ فقال: «الله» أي مخلصاً له، ومن طلبه لغير ذلك لم يقبل منه، وفي الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرَكَهُ»^(٢).

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

١٩- الْعِلْمُ نُورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ أَهْلُ السَّعَادَةِ وَالْجُهَالُ فِي الظُّلُمِ
٢٠- الْعِلْمُ أَعْلَى حَيَاةٍ لِلْعِبَادِ كَمَا أَهْلُ الْجَهَالَةِ أَمْوَاتٌ بِجَهْلِهِمْ

ذكر الناظم رَحِمَهُ اللهُ في هذين البيتين فضل العلم من جهتين: من جهة أنه نورٌ مبين، ومن جهة أنه حياةٌ للقلوب.

فالبیت الأول ذكر فيه فضل العلم من جهة أنه نور، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فالعلم نورٌ لصاحبه، وضياءٌ له، يمشي به

(١) وسيأتي بيان هذا المعنى في كلام الناظم قريباً إن شاء الله.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

في الظُّلُمات؛ ولهذا فإنَّ مكانة العالم في النَّاس مكانةٌ عَليَّةٌ.

وقد ضرب الإمام الآجُري رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «أخلاق العلماء» مثلاً عجيبيّاً يبيِّن فيه مكانة العالم في مجتمعه وبين النَّاس، قال ما نصُّه: «فما ظُنُّكم - رحمكم الله - بطريقٍ فيه آفاتٌ كثيرة، ويحتاج النَّاس إلى سلوكه في ليلةٍ ظُلُماء، فإنَّ لم يكن فيه مصباح وإلاَّ تحيَّروا، فقيَّض الله لهم فيه مصابيح تُضيء لهم؛ فسلكوه على السَّلامة والعافية، ثمَّ جاءت طبقات من النَّاس لا بدَّ لهم من السُّلوك فيه فسلكوا، فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح، فبقوا في الظُّلُمة، فما ظُنُّكم بهم؟!»

هكذا العلماء في النَّاس، لا يعلم كثيرٌ من النَّاس كيف أداء الفرائض وكيف اجتناب المحارم، ولا كيف يعبد الله في جميع ما يعبد به خلقه إلاَّ ببقاء العلماء، فإذا مات العلماء تحيَّرت النَّاس، ودَرس العلمُ بموتهم، وظهر الجهلُ، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون؛ مصيبة ما أعظمها على المسلمين^(١) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «لولا العلماء لصار النَّاس مثل البهائم»^(٢)، كيف يعرف النَّاس الدِّينَ والأحكامَ والحلالَ والحرامَ والسُّنَّةَ والبدعةَ والإيمانَ والكفرَ لولا أن قيَّض الله - سبحانه وتعالى - لهم علماء يبيِّنون لهم دينَ الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «أهل السَّعادة»؛ فيه أنَّ السَّعادة مرتبطةٌ بالعلم، فأهل السَّعادة يستضيء لهم الطَّرِيق بنور العلم وضيائه.

(١) «أخلاق العلماء» (ص ٢٨).

(٢) انظر: «التَّبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٢٠٣).

وقوله: «وَالْجُهَّالُ فِي الظُّلَمِ» أي أَنَّ الْجُهَّالَ الَّذِينَ لَا عِلْمَ لَهُمْ يَمْشُونَ فِي حُلُكَةِ الْجَهْلِ وَظُلُمَائِهِ.

وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ يَمْشِي فِي نُورٍ وَضِيَاءٍ، وَبَيْنَ مَنْ يَمْشِي فِي ظُلْمَةٍ ظُلُمَاءٍ، فَقَدْ جَاءَ فِي «الْجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّائِي»^(١) لِلْخَطِيبِ بِسَنَدِهِ عَنْ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الرَّوَايَةِ، إِنَّمَا الْعِلْمُ نُورٌ يَجْعَلُهُ اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ».

وَلَمَّا جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيِ مَالِكٍ وَقَرَأَ عَلَيْهِ؛ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ وَفُورِ فَطْنَتِهِ وَتَوَقُّدِ ذَكَائِهِ وَكَمَالِ فَهْمِهِ، فَقَالَ: «إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا فَلَا تَطْفِئُهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ»^(٢).

وَجَاءَ فِي «دِيْوَانِ»^(٣) الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلُهُ:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ وَنُورُ اللَّهِ لَا يُهْدِي لِعَاصِي

وَلَا بَنَ الْقِيَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَلَامَ عَظِيمٍ فِي هَذَا الْبَابِ فِي مَقْدَمَةِ كِتَابِهِ «اجْتِمَاعُ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ»، مِنْهُ قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْقَلْبَ الْحَيَّ الْمُسْتَنِيرَ هُوَ الَّذِي عَقَلَ عَنْ اللَّهِ وَفَهِمَ عَنْهُ وَأَذْعَنَ وَانْقَادَ لِتَوْحِيدِهِ، وَمَتَابَعَةً مَا بَعَثَ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، وَالْقَلْبَ الْمَيِّتَ الْمَظْلُمَ الَّذِي لَمْ يُعْقَلْ عَنِ اللَّهِ وَلَا انْقَادَ لِمَا بُعِثَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛

(١) (١٧٤ / ٢).

(٢) رَاجِعْ «إِعْلَامَ الْمَوْقِعِينَ» (٤ / ٢٨٤)، وَ«الْجَوَابَ الْكَافِي» (٣٤) لَابْنِ الْقِيَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) (ص: ٧٠).

ولهذا يصف - سبحانه - هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة ترى الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة، وإذا قُسمت الأنوار دون الجسر للعبور عليه بقوا في الظلمات» إلى آخر كلامه رَحِمَهُ اللهُ (١).

والبيت الثاني ذكر فيه فضل العلم من جهة أنه حياة القلوب؛ أي أن حياة العبد الحقيقية إنما تكون بالعلم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالعلم أعلى حياة للعباد؛ لأنها الحياة الحقيقية.

وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي أحييناه بالعلم والإيمان والهدى، وطاعة الله - سبحانه وتعالى -، ولهذا يُشَبَّه الوحي في إحيائه للقلوب بالماء في إحيائه للنبات والأرض؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُوتٌ ﴿١٦﴾ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٦ - ١٧]، أي كما أن الله - سبحانه وتعالى - يحيي الأرض بعد موتها بالماء؛ فإنه - سبحانه

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٧).

وتعالى - يحيي القلوب بعد موتها بالوحي، فأهل العلم أحياء بالعلم.

وقوله: «وَأَهْلُ الْجَهَالَةِ أَمْوَاتٌ بَجْهَلِهِمْ» هذا فيه أنَّ من أعرض عن الوحي ولم يرفع به رأساً فهو في عداد الأموات، قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١]، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، والحياة التي يحيونها ليست حقيقية، بل هي حياة بهيمية، فالأنعام تأكل وتشرب وتلعب وتذهب وتجيء وتنام وتقوم وتقعّد.

* ثُمَّ قَالَ ﷻ:

٢١- لَا سَمْعَ لَا عَقْلَ بَلْ لَا يُبْصِرُونَ فِي السَّيِّئِ سَعِيرٍ مُّتَرَفِّ كُلٌّ بِأَنفُسِهِمْ وهذا حال ومآل من قال عنهم في البيت الذي قبله: «أهل الجهالة أمواتٌ بجهلهم» أي لا سمع لهم يسمعون به، ولا عقل يعقلون به، ولا بصر يبصرون به، وسوف يعترفون بذلك يوم القيامة إذا دخلوا نار جهنم اعترافاً لا يجدي ولا ينفع، يشير الناظم إلى قول الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ١٠ ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠-١١]، وأيضاً في هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَنْهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

* ثُمَّ قَالَ ﷻ:

٢٢- فَالْجَهْلُ أَضَلُّ ضَلَالِ الْخَلْقِ قَاطِبَةً وَأَضَلُّ شِقْوَتِهِمْ طَرًّا وَظُلْمِهِمْ

٢٣- وَالْعِلْمُ أَصْلُ هُدَاهُمْ مَعَ سَعَادَتِهِمْ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ذَوُو الْحَكَمِ
٢٤- وَالْخَوْفُ بِالْجَهْلِ وَالْحُزْنُ الطَّوِيلُ بِهِ وَعَنِ أُولِي الْعِلْمِ مَنْفِيَّانِ فَأَعْتَصِمِ

قوله: «فالجهل أصل ضلال الخلق قاطبة»؛ وهذا أمر واضح بين،
فأصل كل ضلال وجد في كل إنسان هو الجهل بالله وبدينه ووعيده وعقابه
والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِمِغْلَقٍ﴾
[النساء: ١٧]، قال قتادة: «أجمع أصحاب رسول الله أن كل ما عصي الله به فهو جهالة».

نقله ابن القيم في «مدارج السالكين»^(١)، ثم قال: «وسمي عدم مراعاة
العلم جهلاً إمّا لأنّه لم ينتفع به فنزل منزلة الجاهل، وإمّا لجهله بسوء ما تجني
عواقب فعله».

وقوله: «وأصل شقوتهم طراً وظلمهم»؛ أي: والجهل أصل شقوة وظلم
جميع الخلق، وأساس كل بليّة وشرّ، وقوله: «طراً» أي جيمعاً^(٢).

وقوله: «والعلم أصل هداهم مع سعادتهم»؛ فأصل الهدى وأصل السعادة: العلم.
وقوله: «فلا يضل ولا يشقى ذوو الحكم»؛ فقوله: «فلا يضل» متعلّق
بقوله: «أصل هداهم»، وقوله: «ولا يشقى» متعلّق بقوله: «مع سعادتهم» أي
أهل العلم بالله وبكتابه منفي عنهم الضلال والشقاء.

ونفي الضلال فيه ثبوت الهداية، ونفي الشقاء فيه ثبوت السعادة، فأصل

(١) (١/ ٤٧٠).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة (طرر).

الهدى والسَّعادة هو العلمُ، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فنفى عن متَّبِع هُدايه أمرين: الضَّلال والشَّقَاء، قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «تَكْفَّلَ اللهُ لِمَنْ قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضلَّ في الدُّنيا ولا يشقى في الآخرة، ثمَّ قرأ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]»^(١).

قال: «والآيةُ نفَتْ مسمَّى الضَّلال والشَّقَاء عن متَّبِع الهدى مطلقاً، فاقتضت الآية أنه لا يضلُّ في الدُّنيا ولا يشقى، ولا يضلُّ في الآخرة ولا يشقى فيها؛ فإنَّ المراتب أربعة: هُدًى وشقاوةٌ في الدُّنيا، وهُدًى وشقاوةٌ في الآخرة، لكن ذكر ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في كلِّ دار أظهر مرتبتيها»^(٢).

وقوله: «ذوو الحِكم»؛ أي ذوو العلوم النافعة المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وقوله: «والخوفُ بالجهل والحزنُ الطَّويل به»؛ أي يحصلُ الخوفُ والحزنُ بسبب الجهل؛ فمما يثمره الجهلُ في الجاهل ومما يترتب على وجود الجهل في

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٣٦/٧) من طريق عكرمة عنه، لكن قال: «ضَمِنَ» بدل «تَكْفَّلَ»؛ وجاء من طرق أخرى عن ابن عباس بنحوه. انظر: «الدُّرر

المنثور» (١٠/٢٥٤-٢٥٥).

(٢) «مفتاح دار السَّعادة» (١/٣٤-٣٥).

الإنسان الخوفَ والحزنَ الطَّويلَ؛ والخوفُ والحزنُ إذا اجتمعا في الذكر؛ فإنَّ الحزنَ يتعلَّقُ بما فات، والخوفُ يتعلَّقُ بما هو آت، فصاحب الجهل في أحزان دائمة على ما مضى؛ لأنَّها أيَّام وسنون متراكمة في الجهل والضَّلال، وهو كذلك في خوفٍ ممَّا هو آت.

وهذان متتفیان عن أولي العلم، يدلُّ لذلك نصوص؛ منها قوله تعالى:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وهذه الآية صريحة في المعنى الذي قرَّره رَحِمَهُ اللهُ.

وممَّا هو مشتملٌ على تقرير هذا المعنى أيضًا قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

«فاعتصم»؛ أي اعتصم بالعلم واستمسك به وحافظ عليه؛ تسلم من مغبَّة الجهل وسوء عاقبته، وتظفر بثمرة العلم، وحسن نتيجته.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٥- الْعِلْمُ وَاللَّهُ مِيرَاثُ الثُّبُوءِ لَا مِيرَاثَ يُشَبِّهُهُ طُوبَى لِمُقْتَسِمٍ

«العلم والله» هذا قَسَمٌ، وفيه الحلفُ على مكانة العلم اهتمامًا بالمقام وتأكيدها.
«ميراث النبوة»؛ كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «وإنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ
الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورَثُوا دينارًا ولا درهماً، وإنَّما ورثُوا العلمَ؛ فمن أخذهُ
أخذ بحظٍّ وافٍ»^(١).

وقوله: «لا ميراث يُشبهه»؛ أي ليس هناك ميراث - مهما كان من قُصورٍ
أو أموالٍ أو تجارات أو مزارع أو غير ذلك - يشبهه.

«طوبى لمقتسم»؛ أي طوبى لمن أخذ قِسْمَه وحظَّه ونصيبه من العلم:
﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، ف«طوبى» قيل: هي الجنة، أو
الثواب العظيم، وقيل: شجرة في الجنة يسير في ظلها الراكب مئة عام^(٢).

ومن لطائف ما يُذكر هنا: ما رواه الطبراني في «الأوسط»^(٣) بسند حسن
عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مرَّ بسوق المدينة فوقف عليها فقال: «يا أهل السوق!
ما أعجزكم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟! قال: ذاك ميراثُ رسول الله يُقسَم
وأنتم ها هنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه! قالوا: وأين هو؟! قال: في
المسجد، فخرجوا سراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتَّى رجعوا؛ فقال

(١) رواه أحمد برقم (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٩٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم: (٦٢٩٧).
(٢) وفي معناها أقوال كثيرة ذكرها ابن كثير في تفسيره لسورة الرعد؛ فلتنظر (٦٢٣/٢).
(٣) برقم (١٤٢٩) وحسنه الألباني رحمته الله في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٨٣).

لهم: ما لكم؟! قالوا: يا أبا هريرة! فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نَر فيه شيئاً يُقسَم! فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحداً؟! قالوا: بلى رأينا قوماً يصلُّون، وقوماً يقرأون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراثُ محمَّد.

✽ قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٦- لَأَنَّهُ إِرْثٌ حَقٌّ دَائِمٌ أَبَدًا وما سِوَاهُ إِلَى الْإِفْنَاءِ وَالْعَدَمِ
هذا تعليلٌ لما سبق، أي لكونه إرثٌ حقٌّ دائمٌ أبداً، فلا شيء يشبهه من الأشياء الموروثة، فهو إرثٌ حقٌّ، وأيضاً إرثٌ دائمٌ أبداً، يبقى مع الإنسان في الدنيا والآخرة، وبه يدخل الجنة، بل بدون هذا الإرث وبانتفائه مطلقاً ليس هناك دخول للجنة.

«وما سواه»؛ أي من أنواع الإرث ماله ومصيره «إلى الإفناء والعدم»؛ فإن كان الإنسان قد ورث مالا فكما أنَّه ورثه من غيره؛ فإنَّ غيره سيرثه منه، كما قال الشاعر:

أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا

✽ قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٧- وَمِنْهُ إِرْثُ سُلَيْمَانَ النَّبِيِّ وَالْ فَضْلُ الْمُبِينِ فَمَا أَوْلَاهُ بِالنَّعَمِ
«ومنه» أي من هذا الإرث «إرثُ سليمان» - عليه الصلاة والسلام -
«النُّبُوَّةُ وَالْفَضْلُ الْمُبِينُ»؛ يشير إلى قول الله ﷻ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا

النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿[النمل: ١٦]

أي ورث سليمان علم أبيه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه^(١).
وقوله: «فما أولاه بالنعم» أي: أن هذا أعظم النعم وأجل المنن.

* قال رحمه الله:

٢٨- كَذَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ بِبُولِي أَلَالٍ^(٢) خَوْفَ الْمَوَالِي مِنْ وَرَائِهِمْ

يشير إلى قول الله عز وجل: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَمْوَالِي يَعْقُبُ أَعْرَابِي وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٢-٦]،
والمراد بـ«الإرث»: إرث العلم والنبوة.

قال ابن رجب: «إنما أريد به ميراث العلم والنبوة، لا المال؛ فإن الأنبياء لا يجمعون مالا يتركونه»^(٣)، كما في «الصحيحين»^(٤) من حديث عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةٌ».

وقوله: «بولي ألال خوف الموالى من ورائهم» مقتبس من قوله تعالى:

(١) انظر: «تفسير ابن سعد» (ص ٦٠٢).

(٢) بقطع الهمزة مراعاة للوزن العروضي.

(٣) «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم» (ص ٥١).

(٤) البخاري (٤٢٤٠)، ومسلم (١٧٥٩).

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ﴾ قال ابن سعدي: «أي: وإني خفتُ من يتولَّى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقومَ بدينك حقَّ القيام، ولا يدعو عبادك إليك، وظاهر هذا أنَّه لم ير فيهم أحدًا فيه لياقةً للإمامة في الدِّين، وهذا فيه شفقة زكريَّا عليه السَّلام ونصحه، وأنَّ طلبه للولد ليس كطلب غيره، قصده مجرَّد المصلحة الدُّنيويَّة، وإنَّما قصده مصلحة الدِّين والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدِّين ومعدن الرِّسالة ومظنَّة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدًا، يقوم بالدِّين من بعده»^(١).

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٩- الْعِلْمُ مِيزَانُ شَرْعِ اللَّهِ حَيْثُ بِهِ قِوَامُهُ وَبِذُنِّ الْعِلْمِ لَمْ يُقَمَّ
أي بالعلم يوزن الشَّرع، ويُعرَفُ الحلال والحرام، وبه تُميَّز الأحكام،
ويُعرف الحقُّ من الباطل، والهدى من الضَّلال؛ ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ يقول كُلَّ
يوم بعد صلاة الصُّبح: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا
صَالِحًا»^(٢)، وفي رواية: «مُتَقَبَّلًا».

فبدأ بالعلم النَّافع؛ لأنَّه الميزان الَّذي به يميَّز الإنسانُ بين الرِّزق الطَّيِّب
والخبِيث، وبين العمل الصَّالح والطَّالِح، أمَّا إذا لم يكن مع الإنسان علمٌ نافعٌ؛

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص ٤٨٩ - ٤٩٠).

(٢) رواه أحمد برقم (٢٦٥٦٤)، وابن ماجه برقم (٩٢٥) من حديث أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (رقم: ٧٥٣).

فكيف يميّز بين الحلال والحرام، والطيب والخبيث؟!

ولهذا من لطيف ما يُذكر أنّ محمّد بن الحسن الشَّيباني - صاحب أبي حنيفة - رحمهما الله - قال له نفَرٌ: ألّف لنا كتابًا في الزُّهد، قال: قد ألّفتُ كتابًا في البيوع^(١).

يَقْصِدُ إذا أردتَ أن تكون زاهدًا ورِعًا؛ تعلّم البيوعَ واعرف أحكامها، وميّز بين ما أحلّه الله وما حرّمه، أمّا من يشتري ويبيع ولا يسأل ولا يتعلّم؛ من أين له الورع؟! ومتى يكون ورعًا من لا علم له، ولا فقه له في دين الله سبحانه وتعالى.

* ثمّ قال رَحِمَهُ اللهُ:

- ٣٠- وكُلَّمَا ذُكِرَ السُّلْطَانُ فِي حُجَجٍ فَالْعِلْمُ لَا سُلْطَةَ الْإَيْدِي لِمُحْتَكِمٍ
٣١- فَسُلْطَةُ الْيَدِ بِالْأَبْدَانِ قَاصِرَةٌ تَكُونُ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالظُّلْمِ وَالْغَشَمِ
٣٢- وَسُلْطَةُ الْعِلْمِ تَنْقَادُ الْقُلُوبُ لَهَا إِلَى الْهُدَى وَإِلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ

جاء في آياتٍ عديدةٍ في القرآن ذكرُ السُّلْطَانِ، منها قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلٰطِنٍ بِهٰذَا اَتَقُولُوْنَ عَلَىٰ اَللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ [يونس: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِیْهِ اِلَّا اَسْمَاءُ سَمَّیْتُمُوْهَا اَنْتُمْ وَاٰبَاؤُكُمْ مَّا اَنْزَلَ اَللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلٰطِنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿اَمْ لَكُمْ سُلٰطِنٌ مُّبِیْنٌ﴾ ﴿١٥٦﴾

(١) انظر: «المبسوط» للسرخسي (١٢/ ١٩٤).

فَأَتُوا بِكِنْيَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٦﴾ [الصفات: ١٥٦ - ١٥٧] والمراد به في جميع المواضع الحجة القائمة على العلم.

ولهذا روى عبد الرزاق، وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ حِجَّةٌ»^(١)، يعني المراد به الحجة.

وُتَسَمَّى الحِجَّةُ: سُلْطَانًا؛ لِأَنَّ لَهَا سُلْطَةً عَلَى الْقَلْبِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ رَدَّهَا، بِخِلَافِ الْمِغَالِطَاتِ وَالْأَبَاطِيلِ وَطُرُقِ أَهْلِ الدَّجْلِ، فَإِنَّهَا لَا سُلْطَانَ لَهَا عَلَى الْقُلُوبِ.

قال ابن القيم رحمته الله: «إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - سَمَّى عِلْمَ الْحِجَّةِ سُلْطَانًا؛ لِأَنَّهَا تَوْجِبُ تَسُلُّطَ صَاحِبِهَا وَاقْتِدَارَهُ، فَلَهُ بِهَا سُلْطَانٌ عَلَى الْجَاهِلِينَ، بَلْ سُلْطَانُ الْعِلْمِ أَعْظَمُ مِنْ سُلْطَانِ الْيَدِ، وَلِهَذَا يَنْقَادُ النَّاسُ لِلْحِجَّةِ مَا لَا يَنْقَادُونَ لِلْيَدِ، فَإِنَّ الْحِجَّةَ تَنْقَادُ لَهَا الْقُلُوبُ؛ وَأَمَّا الْيَدُ، فَإِنَّهَا يَنْقَادُ لَهَا الْبَدَنُ، فَالْحِجَّةُ تَأْسِرُ الْقَلْبَ وَتَقْوِدُهُ وَتَذُلُّ الْمَخَالَفَ، وَإِنْ أَظْهَرَ الْعِنَادَ وَالْمُكَابَرَةَ، فَقَلْبُهُ خَاضِعٌ لَهَا، ذَلِيلٌ مَقْهُورٌ تَحْتَ سُلْطَانِهَا، بَلْ سُلْطَانُ الْجَاهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ عِلْمٌ يُسَاسُ بِهِ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ سُلْطَانِ السَّبَاعِ وَالْأُسُودِ وَنَحْوِهَا، قُدْرَةٌ بِلَا عِلْمٍ وَلَا رَحْمَةٍ، بِخِلَافِ سُلْطَانِ الْحِجَّةِ؛ فَإِنَّهُ قُدْرَةٌ بِعِلْمٍ وَرَحْمَةٍ وَحِكْمَةٍ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ اقْتِدَارٌ فِي عِلْمِهِ؛ فَهُوَ إِمَّا لَضَعْفِ حِجَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَإِمَّا لِقَهْرِ سُلْطَانِ الْيَدِ وَالسَّيْفِ لَهُ، وَإِلَّا

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٣٩٩/٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠٩٧/٤)، وانظر: «تفسير الطبري» (٤٤٤/١٩).

فالحجّة ناصرةً لنفسها، ظاهرةً على الباطل، قاهرةً له» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ^(١).

ومن لطيف ما يُروى هنا ما جاء في كتاب الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ عن أشعث بن شعبة المصيصي قال: «قدم هارون الرشيد أمير المؤمنين الرّقة؛ فانجفل النَّاس خلفَ عبدِ الله بن المبارك، وتقطّعت النُّعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أمّ ولدٍ لأمير المؤمنين من بُرج من قصر الخشب، فلما رأت النَّاس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالمٌ من أهل خراسان قدم الرّقة يقال له: «عبد الله ابن المبارك»، فقالت: هذا - والله! - المُلْكُ! لا مُلك هارون الَّذي لا يجمع النَّاس إلا بشرطٍ وأعوانٍ»^(٢).

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٣١- فسلطةُ اليدِ بالأبدانِ قاصرةٌ تكونُ بالعدلِ أو بالظُّلمِ والعشَمِ

«فسلطة اليد»؛ يعني سلطة الحاكم أو الأمير أو نحوهما باليد، «بالأبدان قاصرة»؛ أي لا تؤثر في القلوب؛ وإنَّما على الأبدان فقط فتنقاد وتطواع، وهي تارة تكون بالعدل، وتارة تكون بالظُّلم والعشَم.

٣٢- وسلطةُ العلمِ تنقادُ القلوبُ لها إلى الهدى وإلى مرضاة ربِّهم

بينما إذا جاءت سلطةُ العلمِ انقادت القلوبُ إلى هدى الله ونيل رضاه، والقصص في التَّاريخ والشَّواهد على ذلك كثيرة جدًّا، ومن الشَّواهد القديمة:

(١) «مفتاح دار السَّعادة» لابن القيم (١/ ٥٩).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٥٦).

الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ عليه السلام أرسل إليهم ابن عباسٍ عليه السلام ومعه حُجَجُ العلم فرجع منهم ألفان، وفي رواية: أربعة آلاف^(١)، انقادت قلوبهم لسلطة العلم لا أبدانهم فقط.

وفي زماننا هذا في الجزائر لما تحصَّن أعدادٌ كبيرةٌ من الخوارج في الجبال وتسلَّطوا على النَّاس وحاولت معهم الدولة محاولاتٍ عديدةٍ وهم معتصمون في الجبال؛ كتبَ لهم الشَّيْخُ ابنُ عثيمين رحمته الله فتوى عظيمة، ونصيحةٌ ثمينة أرسلت إليهم؛ فنزل أعدادٌ منهم، وانقادت قلوبهم للحقِّ؛ ولهذا سلطة العلم سلطةٌ على القلوب، وأمَّا سلطة الحكَّام فهي على الأبدان.

❖ قال رحمته الله:

٣٣- وَيَذْهَبُ الدِّينُ وَالْدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْعِلْمُ الَّذِي فِيهِ مَنَاجَاةٌ لِمُعْتَصِمٍ
إذا ذهب العلم فإنَّ الدِّينَ والدُّنْيَا يذهبان بذهابه، ولهذا جاء في «الصَّحَّاحِينَ» عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ»^(٢).
وجاء فيهما عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرَجُ»، و«الهرج»: القتل^(٣).
وذهابُ الْعِلْمِ بذهابِ أهله كما في «الصَّحَّاحِينَ» عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

(١) راجع «البداية والنهاية» لابن كثير (١٠/ ٥٦٨- ٥٦٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٨٠)، ومسلم برقم (٢٦٧١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري برقم (٧٠٦٤)، ومسلم (٢٦٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما.

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(١).

وفي آخر الزَّمان يُرْفَعُ القرآنُ من المصاحف وصدور الرِّجال، فلا تبقى منه آيةٌ على وجه الأرض؛ لما رواه ابن أبي شيبة وغيره من طريق شَدَّادِ ابنِ معقل، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةَ، وَآخِرَ مَا تَفْقِدُونَ الصَّلَاةَ، وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يَوْشِكُ أَنْ يُرْفَعَ»، قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ: كَيْفَ يُرْفَعُ وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللَّهُ فِي صُدُورِنَا وَأَثْبَتْنَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا؟ قَالَ: يُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلًا فَلَا يُتْرَكُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي صَدْرِ رَجُلٍ وَلَا مَصْحَفٍ؛ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(٢).

* قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٤- الْعِلْمُ يَا صَاحِبِ يَسْتَغْفِرُ^(٣) لِصَاحِبِهِ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مِنْ لَمَمٍ
٣٥- كَذَلِكَ تَسْتَغْفِرُ الْحَيَاتَانُ فِي الْجُجِ مِنَ الْبَحَارِ لَهُ فِي الضَّوْءِ وَالظُّلُمِ

(١) رواه البخاري برقم (١٠٠)، ومسلم برقم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٣٥٨٧٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٥٩٨١)،

والحاكم في «المستدرک» (٨٥٣٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».

(٣) بإسكان الرَّاء مراعاة للوزن العروضي.

هذان البيتان يَبِّينُ فيهما ﷺ فضيلةً عظيمةً لأهل العلم، وهي أَنَّ أهل السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يستغفرون له حتَّى الحيتان في الماء، كما جاء في حديث أبي الدَّرْدَاءِ، وفيه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَيْتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ»^(١).

وجاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان؛ أحدهما عابدٌ، والآخر عالمٌ، فقال رسول الله ﷺ: «فَضَّلُ الْعَالِمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ»، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ» رواه الترمذي^(٢) وصحَّحه، وحسَّنه لغيره الألباني في «صحيح التَّرجيب»^(٣).

«العلمُ يا صاحٍ»؛ ترخيم يا صاحب، «لصاحبه أهل السماوات والأرضين»؛ أي مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ يستغفرون لطالب العلم؛ أهل السَّمَوَاتِ: الملائكة، وجاء ذكر استغفار الملائكة لعموم المؤمنين في القرآن: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ

(١) رواه أحمد برقم (٢١٧١٥)، وأبو داود برقم (٣٦٤١)، والترمذي برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه برقم (٢٢٣)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح التَّرجيب والتَّرهيب» (١/٦٣ و٦٨)، وينظر في شرح حديث أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه إلى رسالة نافعة لابن رجب رحمته الله مطبوعة بعنوان: «شرح حديث أبي الدَّرْدَاءِ في فضل طلب العلم»، وهو شرح حافل بفوائد عظيمة في هذا الباب.

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٦٨٥).

(٣) «صحيح التَّرجيب والتَّرهيب» رقم (٨١).

﴿أَمْسُوا﴾ [غافر: ٧]، لكن هذا الاستغفار لأهل العلم فيه خصوصية.

«من لم»: اللّم: مقارنة المعصية من غير واقعة، ويعبر به عن صغار الذنوب^(١)، وفي هذا تنبيه إلى فضيلة لأهل العلم، وهي بُعدهم عن الكبائر والمعاصي والآثام بما آتاهم الله من بصيرة بدينه وبأسماؤه وصفاته، وإذا وقعوا في الذنوب يقعون في أمور هي من اللّم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الْإِنْمِ وَالْفَوْحِ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النجم: ٣٢].

قال: «كذلك تستغفر الحيتان في لجج من البحار»؛ أيضًا إضافة إلى استغفار الملائكة لمن في الأرض، فالحيتان التي في البحار تستغفر لأهل العلم، ومر معنا في الحديث: «حتى النملة في جحرها»، وبعض أهل العلم تلمس في هذا بعض الحكم فقالوا: نفع العالم لا يختص بالناس، بل يشمل الحيوانات وما في البحار والنمل ونحوه؛ لأن العالم أولًا يبصر الناس بالدين فإذا استقاموا حصلت الخيرات والبركات، بينما إذا بقي الناس على ضلالهم وانحرفهم فسدت السموات والأرض، فتضرر الحيتان والهوام والدواب.

ومن جانب آخر؛ فإن العالم - أيضًا - يبين للناس الرفق مع بهيمة الأنعام وحسن التعامل، فهذه الأشياء من خير العالم وبركته تصل إليها بما آتاه الله عز وجل من علم، وبذل له، ونصح للناس، وتوجيه وإرشاد.

وقوله ﷻ: «في الضوء والظلم»؛ أي في الليل والنهار مستغفرة له،

مستمرة في الاستغفار.

(١) راجع «تاج العروس» (٣٣/ ٤٣٥) باب: «لم».

٣٦- وخارجٌ في طلب العلم محتسباً مجاهدٌ في سبيل الله أي كمي
«طلاب» بكسر الطاء، يقال: طالبه مطالبةً وطلاباً، أي طلبه بحق،
«محتسباً»؛ أي يحتسب في خروجه في طلب العلم أجر الله - سبحانه وتعالى -
وثوابه، ويطلب رضا - جلّ وعلا -.

«مجاهدٌ» خبر «خارجٌ» أي أنّ الذي يخرج في طلب العلم محتسباً الأجر
من الله - سبحانه وتعالى - بمنزلة المجاهد في سبيل الله، جاء في «جامع
الترمذي»^(١) وغيره، وحسنه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ
خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ».

وجاء في «سنن ابن ماجه»^(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ
رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِحَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ، أَوْ يُعَلِّمُهُ
فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ جَاءَ لغير ذلك فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ
إِلَى مَتَاعٍ غَيْرِهِ»؛ أي أنّ الفائدة والخير بين يديه، وحرّم نفسه منه.

قال ابن القيم رحمته الله: «وإنّما جعل طلب العلم من سبيل الله؛ لأنّ به قوام
الإسلام، كما أنّ قوامه بالجهاد؛ فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد
نوعين:

- جهادٌ باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير.

(١) برقم (٢٦٤٧).

(٢) برقم (٢٢٧) وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٨٧).

- والثاني: الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهادُ الخاصّة من أتباع الرُّسل، وهو جهادُ الأئمّة، وهو أفضلُ الجهادين؛ لعظم منفعتِهِ، وشدّة مؤنّتِهِ، وكثرة أعدائِهِ»^(١) انتهى.

وقول النّازم: «مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيُّ كَمِي»؛ قوله: «أَيُّ» جاء في «مغني اللّبيب»^(٢) لابن هشام أنّ من استعملات «أَيِّ» مشدّدة أن تكون دالّة على معنى الكمال؛ فتقع صفةً للنكرة، نحو: زَيْدٌ رَجُلٌ أَيُّ رَجُلٍ! أي كاملٌ في صفات الرّجال.

وقوله هنا: «مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيُّ كَمِي» جاءت صفةً للنكرة «مجاهدٌ» وهي تُعطي معنى الكمال، و«كَمِي» من أكمى نفسه أي سترها بالدرع، و«الكَمِي» لابس السّلاح، وأيضاً يُطلق «الكَمِي» على الشُّجاع المقدام الجريء، سواء كان عليه السّلاح أو لم يكن^(٣).

والمعنى: مجاهدٌ في سبيلِ الله أَيُّ مجاهد؛ بياناً لكمال جهاده، وهذا جهادُ الخاصّة من أتباع الرُّسل، وهو جهاد العلماء الأعلام الرّاسخين.

❖ قال رَحِمَهُ اللهُ:

٣٧- وَإِنَّ أَجْنَحَةَ الْأَمْلاكِ تَبْسُطُهَا لِطَالِبِيهِ رَضَى مِنْهُمْ بِصُنْعِهِمْ

(١) «مفتاح دار السّعادة» (١/ ٧٠).

(٢) (ص ١٠٩).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٣٩/ ٤١٨).

يشير في هذا البيت إلى ما جاء في حديث أبي الدرداء^(١)، وفيه قال ﷺ: «وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَى لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِمَا يَصْنَعُ»، ومعنى «تضع أجنحتها»: أي تبسطها - كما قال النّازم - لطالبي العلم رضى منهم بصنعهم، وطالب العلم إذا عرف هذه الفضيلة العظيمة التي خصّه الله - جلّ وعلا - بها وهي أن الملائكة تضع أجنحتها له رضى بما يصنع، وأنها تحفّ طلاب العلم بأجنتها كما جاء في «الصّحيح»: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(٢) زاد حرصه وإقباله على العلم. ولئن كان طلاب العلم لا يرون الملائكة تحفّهم إلا أنّهم من ذلك على يقين؛ لأنّ النّبي ﷺ - الصّادق المصدوق - أخبر بذلك، وقد ذكر ذلك - عليه الصّلاة والسّلام - في مقام الحُصّ على العلم والرّغب فيه، وبيان فضيلة أهله.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٨- وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْعِلْمِ يَسْلُكُهُمْ إِلَى الْجَنَانِ طَرِيقًا بَارِئُ النَّسَمِ
هذه الجملة - أيضًا - جاء تقريرها في حديث أبي الدرداء قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»، وجاءت هذه اللفظة في «صحيح مسلم»^(٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في سياق طويل، قال - عليه

(١) تقدّم تخريجه ص (٦٠).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) برقم (٢٦٩٩).

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :- «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ...» الحديث.

وقد شرحه ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِهِ لِلْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ (١).

قوله: «وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْعِلْمِ» أَيِ السَّائِرُونَ فِي طَلَبِهِ الْمَاضُونَ فِي تَحْصِيلِهِ.
«يَسْلُكُهُمْ إِلَى الْجَنَانِ طَرِيقًا بَارِئُ النَّسَمِ»؛ «بَارِئُ» فَاعِلٌ «يَسْلُكُ» أَيِ:
يَسْلُكُهُمْ بَارِئُ النَّسَمِ أَيِ اللَّهُ طَرِيقًا يُوَصِّلُ إِلَى الْجَنَانِ وَالْفَوْزِ بِرَضَى الرَّحْمَنِ.

وَالْبَارِئُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ كَمَا فِي الْآيَاتِ الْآخِرَةِ مِنْ سُورَةِ الْحَشْرِ، وَكَمَا

فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

وَهَذَا مِنْ بَابِ الْجَزَاءِ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا
سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُتَقَدِّمُ مُشْتَمِلٌ عَلَى أُمُورٍ
عَدِيدَةٍ كُلُّهَا مِنْ هَذَا الْبَابِ.

وَالْجَنَّةُ لَا تُدْخَلُ وَلَا تُنَالُ إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَطَاعَةِ اللَّهِ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَّا بِالْعِلْمِ
النَّافِعِ.

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» الحديث السادس والثلاثين (ص: ٦٣٢) / ط. دار ابن الجوزي.

* ثُمَّ قَالَ ﷺ:

٣٩- وَالسَّامِعُ الْعِلْمَ وَالْوَاعِي لِيَحْفَظَهُ مُؤَدِّيًا نَاشِرًا إِيَّاهُ فِي الْأُمَمِ

٤٠- فَيَا نَضَارَتَهُ إِذْ كَانَ مُتَّصِفًا بِذَا بِدَعْوَةِ خَيْرِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ

من فضائل طالب العلم، بل يكفيه فضلاً وشرفاً ونبلاً وخيريةً أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دعا له دعوةً مباركةً ميمونةً فقال: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا فَأَذَاهَا كَمَا سَمِعَهَا»، وهذا الحديث تواتر عن رسول الله ﷺ رواه عنه غير واحد من الصَّحابة؛ منهم زيد بن ثابت، كما في «السُّنَنِ» و«المُسْنَدِ»، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، قُرْبَ حَامِلٍ فَقِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَقِهِ لَيْسَ بِفَقِيهِ»^(١)، وورد لفظه من حديث ابن مسعود أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا»^(٢).

ومن يتأمل الحديث بألفاظه الواردة يجد أَنَّ هذه الدَّعوة المباركة من النَّبِيِّ - عليه الصَّلاة والسَّلام - بالنَّضارة ينالها العبد بمراتب أربعة يفعلها:
الأولى: السَّماع بأن يحرص على الجلوس للعلم وسماعه وتلقّيه.

(١) رواه أحمد برقم (٢١٦٣٠)، وأبو داود برقم (٣٦٦٠)، والترمذي برقم (٢٦٥٦) وحسنه، وغيرهم، وللوالد - حفظه الله - دراسة موسَّعة في تخريج هذا الحديث وشرحه، وهي بعنوان: «دراسة حديث «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي...» روايةً ودرايةً»، مطبوعة في ضمن مؤلَّفاته (٢٩٧/٣).

(٢) رواه أحمد برقم (٤١٥٧)، والترمذي برقم (٢٦٥٧).

الثانية: الوعي بأن يعقل ما يسمع، ويعي ما يقال ويبيّن له.
الثالثة: الحفظ بأن يتعاهد هذا الذي يسمعه من العلم ويكرّره حتّى يثبتّ عنده.
الرابعة: الإبلاغ بنشر العلم وتعليمه للآخرين وبذله للنّاس.
وبهذه المراتب الأربعة ينال العبد هذه الدّعوة المباركة بقول نبينا - عليه الصّلاة والسّلام -: «نَضَرَ اللهُ أَمْرًا».

و«النّضارة»: هي البهجة والحسن الذي يُكساه الوجه من أثر الإيمان والعلم النّافع وابتهاج القلب بذلك، وإنّما دعا ﷺ لسامع السّنة ومبلّغها بالنّضارة جزاءً وفاقاً لما قام به من بثّها وجعلها بذلك غصّةً طريّةً في أوساط النّاس؛ فجزاه الله من جنس عمله بأن نَضَرَ وجهه؛ سعى في نضارة العلم وإحياء السّنة فدعا له النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام بما يناسب حاله، وقد جاء عن سفيان بن عيينة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّه قال: «ما من أحدٍ يطلبُ الحديثَ إلّا وفي وجهه نَضْرَةٌ»^(١).

* ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

٤١- كَفَاكَ فِي فَضْلِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ رُفِعُوا مِنْ أَجْلِهِ دَرَجَاتٍ فَوْقَ غَيْرِهِمْ
يعني يكفي فضيلةً في العلم، وبيان شرفه وشرف أهله أن رفعهم الله - جلّ وعلا - من أجل العلم درجات، وهو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يشير إلى ما جاء في سورة المجادلة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

(١) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (ص ١١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «يعني على الَّذِينَ آمَنُوا ولم يُؤْتُوا العلمَ، كذا قال ابن مسعود وغيره من السَّلف»^(١).

أي يرفع الله الَّذِينَ آمَنُوا وأُوْتُوا العلمَ على الَّذِينَ آمَنُوا ولم يُؤْتُوا العلمَ درجات.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٤٢- وكان فَضْلُ أَيْنَا فِي الْقَدِيمِ عَلَى الْـ أُمْلَاكِ بِالْعِلْمِ مِنْ تَعْلِيمِ رَبِّهِمْ
«وكان فَضْلُ أَيْنَا»؛ أي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ «فِي الْقَدِيمِ عَلَى الْأُمْلَاكِ»؛ أي على الملائكة «بِالْعِلْمِ»؛ يعني أَنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضَّلَ عَلَى الْأُمْلَاكِ وَشَرَّفَ بِالْعِلْمِ الَّذِي مَيَّزَهُ اللهُ - سبحانه وتعالى - به كما جاء في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثِيَّتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٣].

فذكر - جلَّ وعلا - في هذا السِّياق شرف آدم على الملائكة بما اختصَّ به من علم أسماء كلِّ شيء دون الملائكة.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٤٣ - كذاكَ يَوْسُفُ لَمْ تَظْهَرْ فَضِيلَتُهُ لِلْعَالَمِينَ بِغَيْرِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمِ

(١) «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم» (ص ٣٤).

أي فضيلة يوسف - عليه الصلاة والسلام - ظهرت للعالمين بالعلم والحكم؛ كما قال الله تعالى في سورة يوسف وفيها ذكرت قصته العظيمة المباركة مفصلة، جاء في أولها قوله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، وقال في أثنائها: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، وجاء في آخرها ذكر دعاء يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وللشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمته الله رسالة مستطابة بعنوان «الفوائد المستنبطة من قصة يوسف عليه السلام» وهي جديرة بأن تُقرأ.

✽ قال رحمته الله:

٤٤ - وما اتَّبَعُ كَلِيمَ اللَّهِ لِلْخَضِرِ الْـ مَعْرُوفِ إِلَّا لِعِلْمٍ عَنْهُ مُنْبِهِم

هذا يشير إلى ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٥ - ٦٦]، فموسى عليه السلام الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه وواعده ربُّ العالمين وسمع كلام الله مِنْ الله، يرحل إلى الخضر ويقول: ﴿أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾.

قوله: «عَنْهُ» أي عن موسى، «مُنْبِهِم» أي لم يطلع عليه موسى وخفي

عليه؛ لكنَّ الله منَّ به على الخضر، ولَمَّا علم موسى ﷺ بأنَّ عند الخضر علماً خَفِيَ عليه؛ ذهب في طلبه ورحل في تحصيله - وهي قصَّة مشهورة وردَ ذكرها في آواخر سورة الكهف، وكذلك جاء ذكرها في «الصَّحِيحِينَ»^(١) من حديث ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما - ولم يَمْنَعْهُ ما أتاها الله من علم غزير واصطفاء وتكليم إلى غير ذلك من الفضائل والخيرات والبركات أن يرحل في طلب العلم مع ما فيه من نصبٍ وتعبٍ ومشقَّةٍ.

❖ ولهذا قال النَّازِمُ رحمته الله:

٤٥ - مَعَ فَضْلِهِ بِرِسَالَاتِ الْإِلَهِ لَهُ وَمَوْعِدٍ وَسَمَاعٍ مِنْهُ لِلْكَلِمِ

«مع فَضْلِهِ بِرِسَالَاتِ الْإِلَهِ؛ يشير إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ

عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

«وموعِد»؛ أي فَضْلُهُ بذلك: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾

[الأعراف: ١٤٢].

«وسماعٍ مِنْهُ لِلْكَلِمِ»؛ أي سماعه لكلام الله مِنْ الله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾

[النساء: ١٦٤]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

مع هذه الفضائل كُلِّهَا رَحَلَ ﷺ في طلب العلم؛ وفي هذا دلالةٌ على

فضل العلم وفضل الرحلة في تحصيله.

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٠).

والشيخ عبد الرحمن بن السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ مِنْ عَادَتِهِ فِي «تَفْسِيرِهِ» عِنْدَمَا يَذْكُرُ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْقِصَصِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ يَتَّبِعُهَا بِذِكْرِ الْفَوَائِدِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنَ الْقِصَّةِ، فَفِي تَفْسِيرِهِ لِسُورَةِ الْكَهْفِ لَمَّا انْتَهَى مِنْ قِصَّةِ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ أَخَذَ يَعْدُدُ الْفَوَائِدَ الْمُسْتَنْبَطَةَ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَبَدَأَهَا بِقَوْلِهِ: «فَمِنْهَا فَضِيلَةُ الْعِلْمِ وَالرَّحْلَةِ فِي طَلَبِهِ، وَأَنَّهُ أَهَمُّ الْأُمُورِ، فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَحَلَ مَسَافَةً طَوِيلَةً وَلَقِيَ النَّصَبَ فِي طَلَبِهِ، وَتَرَكَ الْقَعُودَ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِتَعْلِيمِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ وَاخْتَارَ السَّفَرَ لَزِيَادَةِ الْعِلْمِ عَلَى ذَلِكَ».

❖ ثُمَّ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٤٦- وَقَدَّمَ الْمُصْطَفَى بِالْعِلْمِ حَامِلَهُ أَعْظَمَ بِذَلِكَ تَقْدِيمًا لِذِي قَدَمٍ
٤٧- كَفَاهُمُو أَنْ غَدَوْا لِلْوَحْيِ أَوْعِيَةً وَأَضَحَّتِ الْآيُ مِنْهُ فِي صُدُورِهِمْ
٤٨- وَأَنْ غَدَوْا وَكَلَاءَ فِي الْقِيَامِ بِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا وَتَعْلِيمًا لغيرِهِمْ
٤٩- وَخَصَّهُمْ رَبُّنَا قَضْرًا بِخَشْيَتِهِ وَعَقْلًا أَمْثَالِهِ فِي أَصْدَقِ الْكَلِمِ

هَذِهِ جَمَلَةٌ مِنَ الْفَضَائِلِ لَطَالِبِ الْعِلْمِ؛ مِنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدَّمَ حَامِلَ الْعِلْمِ وَحَامِلَ الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِهِ فِي مَنَاسِبَاتٍ عَدِيدَةٍ.

مِنْهَا التَّقْدِيمُ فِي الْإِمَامَةِ، يُؤْمِّهِمْ أَقْرَأُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَدِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤَمِّمْكُمْ أَكْثَرَكُمْ قُرْآنًا»، قَالَ عَمْرِو بْنُ سَلَمَةَ: فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي، لَمَّا

كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ^(١).

ومنها التَّقديم في الدفن، كما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مَنْ قَتَلَ أَحَدًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُم أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟»؛ فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ^(٢).

وقوله: «لِذِي قَدَمٍ»؛ أي قَدَم في العلم والتَّعلم، أي: له فضلٌ في العلم وسابقة، ويقال: له قَدَمٌ صِدْق، وقَدَمٌ فَضْل وكرم.

«كَفَاهُمُو»؛ أي فضلاً وشرفاً يعني أهل العلم، «أَنْ عَدَوْا لِلْوَحْيِ أَوْعِيَةً»؛ أي أصبحت قلوبهم أوعية تحمل العلم، والقلوب أوعية للعلم، منها ما يحمل علماً كثيراً، ومنها ما يحمل علماً قليلاً، ومنها قلوب فارغة لا علم فيها.

ومعنى وَعَت الوحي أي: حفظته، كما يوضح هذا المعنى الشَّطْر الَّذِي يليه حيث قال: «وَأَضَحَّتِ الْآيُ مِنْهُ» أي من الوحي «فِي صُدُورِهِمْ» كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقوله: «وَأَنْ عَدَوْا وَكَلَاءَ فِي الْقِيَامِ بِهِ»؛ هذه - أيضاً - فضيلة للعلم، وهي أَنَّ أهل العلم أصبحوا وكلاء في القيام بالعلم في أنفسهم قولاً وفعلاً، وفي غيرهم تعليمًا ونصحًا.

ولهذا؛ فَإِنَّ الْعَالَمَ يَوْعُ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وينقل للنَّاسِ حَكَمَهُ - جَلَّ وَعَلَا - وبهذا عَنْوَنَ ابْنُ الْقَيِّمِ أَحَدَ كُتُبِهِ بقوله: «إِعْلَامُ الْمَوْقِعِينَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» يعني العلماء.

(١) رواه البخاري برقم (٤٣٠٢).

(٢) رواه البخاري برقم (١٣٤٣).

«وخصَّهم ربُّنا»؛ أي خصَّ الله - جلَّ وعلا - أهل العلم «قَصْرًا» يُقال: قَصَرْتُ الشَّيْءَ على كذا إذا لم تجاوز به غيره»^(١) أي أنَّه سبحانه قَصَرَ خشيتَه على أهل العلم، وفي هذا فضيلةٌ ظاهرةٌ للعلم، قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «فكُلُّ مَنْ كان بالله أعلم، كان أكثر له خشيةً، وأوجب له خشيةُ الله الانكفافَ عن المعاصي، والاستعدادَ للقاء من يخشاه، وهذا دليلٌ على فضيلة العلم، فإنَّه داعٍ إلى خشية الله، وأهل خشيتِه هم أهل كرامتِه، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]»^(٢).

«وعقلِ أمثاله»؛ وعقل معطوفٌ على خشية، أي خصَّهم بالخشية، وأيضاً خصَّهم بعقلِ أمثاله أي الأمثال التي في القرآن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره»^(٣) عن عمرو بن مُرَّة، قَالَ: «مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنْنِي؛ لِأَنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾».

وكان بعض السلف إذا قرأ مثلاً من القرآن لم يفهمه يشتدُّ بكاءؤه ويقول: لستُ من العالمين^(٤).

(١) «تاج العروس» (مادة قصر).

(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص ٦٨٩).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٣٠٦٤).

(٤) انظر: «الكافية الشافية» لابن القيم (ص ٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٩٤)، (٤/ ٣٦٩).

«في أَصْدَقِ الْكَلِمِ»؛ أي في القرآن، كما في الحديث: «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ»، وَيُنْظَرُ كِتَابُ «إِعْلَامُ الْمُوقِّعِينَ» لابن القيم ففيه فصلٌ نافعٌ جدًّا في أمثال القرآن^(١).

* قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٠- وَمَعَ شَهَادَتِهِ جَاءَتْ شَهَادَتُهُمْ حَيْثُ اسْتَجَابُوا وَأَهْلُ الْجَهْلِ فِي صَمَمٍ «ومع شهادته»؛ أي مع شهادة الله - سبحانه وتعالى - لنفسه بالوحدانية بقوله سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] جاءت شهادتهم، أي قرن الله شهادتهم بشهادته، فهذه فضيلةٌ لأهل العلم، وتشريفٌ لهم، وتعليةٌ لمقامهم أن قرن - جلَّ وعلا - شهادتهم بشهادته في أعظم مشهودٍ به وهو توحيدُ الله - سبحانه وتعالى -.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «استشهد الله ﷻ بأهل العلم على أجل مشهودٍ به، وهو التَّوْحِيدُ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم؛ فإنَّه - سبحانه وتعالى - لا يستشهد بمجروح»^(٢) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: «حَيْثُ اسْتَجَابُوا»؛ أي استجابوا لله وللرَّسول ﷺ، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقوله: «وَأَهْلُ الْجَهْلِ فِي صَمَمٍ»؛ أي عن الخير، وعن العلم، وعن

(١) «إِعْلَامُ الْمُوقِّعِينَ» (١/ ١٥٠ - ١٩٣).

(٢) «مدارج السَّالِكِينَ» (٢/ ٤٧٠).

الفضل، وعن الهدى.

* قال ﷺ:

٥١- وَيَشْهَدُونَ عَلَى أَهْلِ الْجَهَالَةِ بِالْمَوْلَى إِذَا اجْتَمَعُوا فِي يَوْمٍ حَشَرِهِمْ
يشير إلى قول الله - جلَّ وعلا -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والجار والمجرور في قوله: «بالمولى» متعلق بقوله: «إِذَا اجْتَمَعُوا» أي: إنَّ
من فضائل أهل العلم أنَّهم يشهدون على أهل الجهالة إذا اجتمعوا بالله يوم
القيامة.

* قال ﷺ:

٥٢- وَالْعَالَمُونَ عَلَى الْعَبَادِ فَضْلُهُمْ كَالْبَدْرِ فَضْلًا عَلَى الدَّرِيِّ فَاعْتَنِمْ
في هذا البيت بيان فضيلة العالم على العابد، وأنَّ العلماء أفضل من العباد،
وأنَّ فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب، و«البدر» هو
القمر ليلة التمام والكمال في منتصف الشهر.

«كَالْبَدْرِ فَضْلًا عَلَى الدَّرِيِّ»؛ يعني على الكوكب، يدلُّ لذلك حديث أبي
الدرداء رحمته الله، وفيه قال النبي ﷺ: «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ
لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»^(١).

قال ابن رجب رحمته الله: «وفي هذا المثل تشبيهٌ للعالم بالقمر ليلة البدر، وهو

(١) تقدَّم ص (٦٠).

نهاية كماله وتمام نوره، وتشبيه للعابد بالكواكب، وأنَّ بين العالم والعابد من التَّفاوت في الفضل ما بين القمر ليلة البدر والكواكب، والسَّرُّ في ذلك - والله أعلم - أنَّ الكوكبَ ضوءه لا يعدو نفسه، وأمَّا القمر ليلة البدر؛ فإنَّ نورَه يشرقُ على أهل الأرض جميعًا، فيعمُّهم نوره فيستضيئون بنوره، ويهتدون به في مَسيرهم»^(١).

«فَاغْتَنِمِ»؛ أي اغتنم حياتك في طلب العلم وتحصيله.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٣- وعالمٌ من أُولي التَّقْوَى أَشَدُّ عَلَى الْـ شَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَبَادٍ يَجْمَعُهُمْ قوله: «عَبَادٍ» صيغة مبالغة من عَابَدَ، يعني لو اجتمع ألفُ عابد، فعالم واحد تقيُّ لله - سبحانه وتعالى - أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ لَأَنَّ هَؤُلَاءِ نفعهم قاصرٌ عليهم، أمَّا العالم فنفعه يمضي إلى الدُّنيا ويسري في النَّاسِ، وهذا المعنى يُروى فيه حديثٌ أخرجه التِّرْمِذِيُّ وابن ماجه من حديث ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «فَقِيَّةُ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ»^(٢)، وهو ضعيفٌ جدًا كما في «ضعيف التَّرجيب»^(٣) للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

وجاء عند الدَّارقُطَنِيِّ من حديث أبي هريرة مَرْفُوعًا: «مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ

(١) «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم» (ص ٣٢ - ٣٣).

(٢) «جامع التِّرْمِذِيِّ» برقم (٢٦٨١)، و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٢٢).

(٣) برقم (٦٦).

أَفْضَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينٍ، وَلَفَقِيَهُ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ، وَعِمَادُ هَذَا الدِّينِ الْفَقْهُ، فقال أبو هريرة: لأن أجلس ساعة فأفقه أحب إلي من أن أحيي ليلة إلى الغداة؛ والحديث حكم عليه الألباني في «الضعيفة»^(١) بالوضع. وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان»^(٢) الشَّطْرَ الْأَوَّلَ منه من حديث ابن عمر، وقال: «والمحفوظ في هذا اللفظ من قول الزُّهري».

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٥٤- وَمَوْتُ قَوْمٍ كَثِيرٌ أَيْسَرُ مِنْ حَبْرِ يَمُوتُ مُصَابٌ وَاسِعُ الْأَلَمِ
أي عندما يموت الحَبْر - وهو العالم - يكون موته أعظم من موت أقوام؛ ولهذا يموت أقوامٌ وأعدادٌ كثيرة من البشر وما يشعر بهم النَّاسُ كثيرًا، ويموت العالم فتشعر به الدُّنيا كُلُّهَا، ويتألم أهل الإيمان وأهل الإسلام وأهل الفضل لموته. «مُصَابٌ وَاسِعُ الْأَلَمِ»؛ أي موت العالم مصابٌ ألمه واسع، بينما موت غير العالم مصابه ليس واسعًا، وإنَّما في محيط أولاده وقرابته ومعارفه ومن لهم به صلة خاصَّة.

كما قال الشَّاعر:

يموت قومٌ ولا يأسى لهم أحدٌ وواحدٌ موته هم لأقوام

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٥٥- كَمَا مَنَافِعُهُ فِي الْعَالَمِ اتَّسَعَتْ وَلِلشَّيَاطِينِ أَفْرَاحٌ بِمَوْتِهِمْ

(١) برقم (٤٤٦١).

(٢) (٢/٢٦٥).

«كَمَا مَنَافِعُهُ فِي الْعَالَمِ اتَّسَعَتْ»؛ أي: أَنَّ المصَابَ فِيهِ وَاسِعٌ؛ لِأَنَّ مَنَافِعَهُ اتَّسَعَتْ فِي الْعَالَمِ، وَهَذَا كَالْتَعْلِيلِ لِمَا قَبْلَهُ.

«وَلِلشَّيَاطِينِ أَفْرَاحٌ بِمَوْتِهِمْ»؛ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يَفْرَحُونَ بِمَوْتِ الْعَالَمِ، كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ: «وَاللَّهِ! لَمُوتِ عَالَمٍ أَحَبُّ إِلَيَّ إِبْلِيسَ مِنْ مَوْتِ سَبْعِينَ عَابِدًا» رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ»^(١).

* ثُمَّ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ مُسْتَدْرَكًا:

٥٦- تَالَهُ لَوْ عَلِمُوا شَيْئًا لَمَا فَرَحُوا لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ حَتْفِهِمْ
«تَالَهُ»؛ يَقْسِمُ بِاللَّهِ، «لَوْ عَلِمُوا شَيْئًا»؛ يَعْنِي وَلَوْ يَسِيرًا وَقَلِيلًا عَنِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ وَمَكَانَةِ حَمَلَتِهِ، «لَمَا فَرَحُوا» بِمَوْتِ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ لَكِنْ بَلَاؤُهُمْ وَمَصِيبَتُهُمْ مِنْ جِهَةِ الْجَهْلِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ كُلِّ شَرٍّ وَبَلَاءٍ.

«لَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ حَتْفِهِمْ»؛ أَيِ إِذَا خَلَّتِ الْأَرْضُ مِنَ الْعِلْمِ وَنُورِهِ وَنُورِ الْعُلَمَاءِ قَامَتِ السَّاعَةُ.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٧- هُمُ الرُّجُومُ بِحَقِّ كُلِّ مُسْتَرَقٍّ سَمْعًا كَشْهَبِ السَّمَاءِ أَعْظَمُ بِشْهَبِهِمْ
٥٨- لَأَنَّهُمَا لِكِلَا الْجَنَسَيْنِ صَائِبَةٌ شَيْطَانُ إِنْسٍ وَجِنٍّ دُونَ بَعْضِهِمْ
هَذَا يَبَيِّنُ فَضِيلَةَ أُخْرَى لِأَهْلِ الْعِلْمِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ مِثْلُ النُّجُومِ رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ.

(١) برقم (١٧١٤).

«أَعْظَمُ بِشُھْبِهِمْ»؛ أي أعظم بشُھب أهل العلم، ومراده أن أهل العلم يتصدّون لكلّ مُبْطِلٍ بِالرَّدِّ والتَّفْنِيدِ وإبطال الشُّبُهَاتِ وكشفِ الزَّيْغِ، ولهذا سمَّى بعض أهل العلم كتبهم في الرُّدود بـ«الشُّھبِ المرسلة»، «الصَّواعقِ المحرقة» إلى آخره؛ لأنَّ ردود أهل العلم بالحجج اليِّنَاتِ بمثابة الشُّھب التي تدمر باطل أهل الباطل وتكشف زيغ أهل الضَّلال.

«أَعْظَمُ بِشُھْبِهِمْ» أي: أنَّها عظيمة جدًّا؛ «لأنَّها»؛ أي شُھب أهل العلم، «لكِلا الجنَّسَيْنِ»؛ يعني الجنَّ والإنس، «صائبةً، شيطانِ إنسٍ وجنٍّ دونَ بعضِهِمْ». يقول ابنُ رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وقد شبَّه العلماء بالنُّجوم، والنُّجوم فيها ثلاث فوائد: يُهْتَدَى بها في الظُّلُمَاتِ، وهي زينة للسماء، ورجوم للشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ مِنْهَا، والعلماء في الأرض تجتمع فيهم هذه الأوصاف الثلاثة: بهم يُهْتَدَى في الظُّلُمَاتِ، وهم زينة للأرض، وهم رجوم للشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يَخْلُطُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، ويُدخلون في الدِّينِ ما ليس منه؛ من أهل الأهواء»^(١).

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

٥٩- هُمْ الْهُدَاةُ إِلَى أَهْدَى السَّبِيلِ وَأَهْلُ الْجَهْلِ عَنْ هَدْيِهِمْ ضَلُّوا لَجَهْلِهِمْ
قال: «هُمْ الْهُدَاةُ»؛ وهذا من فضائل أهل العلم أنَّهم هداة لأهدى السَّبِيلِ، وهو سبيل النَّبِيِّ ﷺ، «وَأَهْلُ الْجَهْلِ عَنْ هَدْيِهِمْ ضَلُّوا لَجَهْلِهِمْ»؛ الْجَهَالُ ضَلُّوا

(١) «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» (ص ١٦- ١٧)، وانظر هذه الفوائد في «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٦٥- ٦٦).

عن السَّبِيل وعن الهدى بسبب تماديهم في الجهل.

* ثُمَّ خَتَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْفَصْلَ بِقَوْلِهِ:

٦٠- وَفَضْلُهُمْ جَاءَ فِي نَصِّ الْكِتَابِ وَفِي الْ- حَدِيثِ أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمٍ

لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الْفَضَائِلَ الْكَثِيرَةَ؛ خَتَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْإِشَارَةِ بِأَنَّ فَضْلَهُمْ جَاءَ فِي نَصِّ الْكِتَابِ، يَعْنِي فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ جَدًّا مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ فِي السُّنَّةِ فَفَضَائِلُ أَهْلِ الْعِلْمِ «أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمٍ» وَالْعِلْمُ هُوَ الْجِبَلُ الطَّوِيلُ وَإِذَا كَانَ فِي أَعْلَاهُ نَارٌ زَادَ وَضُوحًا، وَهَذَا مِنَ الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ الَّتِي تَضْرِبُ لَمَّا كَانَ مَشْهُورًا شَهْرَةً وَاسِعَةً.

وَقَدْ أَفْرَدَ أَهْلَ الْعِلْمِ النُّصُوصَ الْوَارِدَةَ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ وَفَضْلِ طُلَّابِهِ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ، مِثْلَ «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ، وَ«الْجَامِعَ لِأَخْلَاقِ الرَّائِي وَآدَابِ السَّامِعِ» لِلْخَطِيبِ؛ لِيَكُونَ فِيهَا شَحْدٌ لِلْهَمِّ، وَطَالِبُ الْعِلْمِ يَبِينُ وَقْتُ وَآخِرُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَقْرَأَ فِي فَضْلِ طَلَبِ الْعِلْمِ وَفَضْلِ الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ إِذَا حَضَرَتْ فِي ذَهْنِهِ زَادَ حِرْصُهُ عَلَى الطَّلَبِ وَالتَّحْصِيلِ، وَكَذَلِكَ - أَيْضًا - يَقْرَأُ فِي سِيرِ أَهْلِ الْعِلْمِ الْأَفْضَلِ النَّبْلَاءِ الَّذِينَ عَرَفُوا فَضْلَ الْعِلْمِ وَمَكَانَتَهُ فَصَرَفُوا فِيهِ أَوْقَاتَهُمْ وَبَذَلُوا فِيهِ جُهُودَهُمْ؛ فَانْتَفَعُوا وَنَفَعُوا، وَالْمَوْفُوقُ رَبُّ الْعَرْشِ لَا شَرِيكَ لَهُ.

* * *

نبذة في وصية طالب العلم

بدأ الناظم رَحِمَهُ اللهُ بِذِكْرِ هَذِهِ النُّبْذَةِ الطَّيِّبَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْوَصَايَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، فَقَالَ: «نبذة في وصية طالب العلم»؛ أي ما يُوصَى بِهِ طَالِبُ الْعِلْمِ مِنَ الْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي هِيَ عُنْوَانُ فَلَاحِهِ وَسَعَادَتِهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ طَالِبُ الْعِلْمِ مُتَحَلِّيًا بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَالْآدَابِ الرَّفِيعَةِ لَا يَنَالُ ثَمَرَةَ الْعِلْمِ.

❖ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

٦١- يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لَا تَبْغِي^(١) بِهِ بَدَلًا فَقَدْ ظَفَرْتَ وَرَبَّ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

بدأ هذه النُّبْذَةُ الطَّيِّبَةُ بِهَذَا النِّدَاءِ اللَّطِيفِ: «يَا طَالِبَ الْعِلْمِ»؛ أَيِ يَا مَنْ أَكْرَمَكَ اللهُ ﷻ وَمَنْ عَلَيْكَ بِاللَّحَاقِ بِهَذَا الرِّكْبِ الطَّيِّبِ الْمُبَارَكِ، وَيَسَّرَ لَكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَطُلَّابِهِ، قَاصِدًا بِهَذَا النِّدَاءِ التَّنْبِيهِ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ هَذَا الْإِنْتِسَابُ مِنْ حَقُوقٍ وَآدَابٍ وَوَاجِبَاتٍ تَلْزِمُ كُلَّ سَالِكٍ هَذَا الْمَسْلَكِ الْمُبَارَكِ.

وَقَوْلُهُ: «لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا»؛ أَيِ: لَا تَبْغِ بِالْعِلْمِ بَدَلًا آخَرَ، فَالْعِلْمُ أَفْضَلُ مُطْلُوبٍ، وَأَشْرَفُ أَمْرٍ تُشْغَلُ فِيهِ الْأَنْفَاسُ، وَتُمْضَى فِيهِ الْأَوْقَاتُ، فَأَنْتَ فِي خَيْرٍ عَظِيمٍ، وَفَضْلٍ عَمِيمٍ.

(١) لَمْ تَحْذَفِ الْيَاءَ لِمُضَرَّةِ الْوُزْنِ.

ويُلَمِّح بهذا إلى أَنَّ طالب العلم لابدَّ أن يمرَّ عليه في حياته الدُّنيا ما يَشْغَلُه عن طلب العلم، ويصرفُه عن تحصيله، فالصَّوارف كثيرة، والصَّوَادُّ عديدة، ولا بدَّ من مجاهدة النَّفس والاستمرار في طلب العلم والمداومة على تحصيله كلِّما ورد صارفٌ أو عرض صادٌّ «فَقَدْ ظَفَرَتْ وَرَبَّ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ»؛ أي: إن مضيت صابراً محتسباً جاداً مجتهداً في العلم وتحصيله فُزْتَ بأعظم ربحٍ وأكبر غنيمةٍ.

«وَرَبُّ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ»؛ يُقَسِّمُ بالله - جَلَّ وَعَلَا -، وَخَصَّ اللَّوْحَ وَالْقَلَمَ بالذكر في هذا القسم؛ لِأَنَّهما زادُ طالب العلم، ولا غنى لطالب العلم عن اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، وذكر ربوبية الله - جَلَّ وَعَلَا - لِلَّوْحِ وَالْقَلَمِ يتضمَّن تذكير طالب العلم باستشعار منَّة الله عليه أن يسرَّ له أن يمسك الأوراق والأقلام، ويسطرَّ بها خير الكلام وخير الهدى، وإلَّا كم من النَّاس من يحملون الأقلام والأوراق ويكتبون بها الباطل والضَّلال والكفر، والصَّدَّ عن دين الله.

٦٢- وَقَدَّسِ الْعِلْمَ وَاعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْآدَابِ فَالْتَزِمِ

«وَقَدَّسِ الْعِلْمَ»؛ «التَّقْدِيسُ»: التَّنْزِيهِ أي نَزَّهَ الْعِلْمَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ وما لا يليق بطلَّابه؛ ولهذا ينبغي على طالب العلم أن يحترم العلم وأن يحترم كتبَ العلم وأن يحترم حملةَ العلم، ولهذا جاء في الحديث: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجَلِّ كَيْبَرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»^(١).

(١) رواه أحمد برقم (٢٢٧٥٥) والحاكم (٢١١/١) من حديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه،

وحسنه الشَّيْخُ الألبانيُّ في «صحيح التَّرجيب والترَّهيب» برقم (١٠١).

وقوله: «في القول والفعل»؛ أي ليكن تقديسك للعلم ومعرفتك بقدره في أقوالك وأفعالك، مشيرًا بذلك إلى أن الآداب التي تُراعى في حق العلم منها آدابٌ قولية، ومنها آدابٌ فعلية، وسيأتي عند الناظم رَحِمَهُ اللهُ ذكر شيءٍ منها.

قال: «والآداب فالتزم»؛ «الآداب» مفعول به مقدم، أي التزم بآداب طلب العلم.

وهذا بابٌ عظيم، أفرد به أهل العلم بكتابات نافعة، ومصنّفات مفيدة.

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

٦٣- واجْهَدْ بِعَزْمٍ قَوِيٍّ لَا انْتِثَاءَ لَهُ لَوْ يَعْلَمُ الْمَرْءُ قَدَرَ الْعِلْمِ لَمْ يَنْمِ

«واجْهَدْ بِعَزْمٍ قَوِيٍّ»؛ أي ابذل جُهدَكَ في طلب العلم بعزيمةٍ قويةٍ، وفي الدُّعاء المأثور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ»^(١).

«لَا انْتِثَاءَ لَهُ»؛ أي لا يكون مع هذا العزم القوي والجد والاجتهاد ما يُثنيه أو يُضعفه ويجعله يتوانى ويكسل وَيَفُتُّ.

«لَوْ يَعْلَمُ الْمَرْءُ قَدَرَ الْعِلْمِ لَمْ يَنْمِ»؛ لو أن المرء يعرف قدر العلم ومكانته وآثاره وثماره عليه في الدنيا والآخرة؛ لم يَنْمِ، وليس المراد بعدم النَّوم أن لا ينام مطلقاً إذ هذا غير ممكن، وإنما المراد أنه لا ينام إلا عند غلبة النَّوم عليه وشدة احتياجه له، لا أنه ينام النَّوم المتواصل الطَّويل الذي يجلب له الفتور والكسل والخمول وضعف الذَّهن،

(١) رواه الطَّبْراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٣٣٥) من حديث شدَّاد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وإسناده جيّد، كما في «السَّلسلة الصَّحيحة» رقم (٣٢٢٨).

ولهذا كان العلم الذي هو الشغل الشاغل للسلف يقطع عليهم نومهم كلما استذكروا شيئاً من مسائله.

جاء في ترجمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كان يستيقظ في الليلة الواحدة أكثر من مرة، فيوقد السراج، ويكتب الفائدة تمرُّ على خاطره، ثم ينام، قال محمد بن حاتم الوراق: «كان أبو عبد الله إذا كنتُ معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ، فكنت أراه يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة فيؤري ناراً بيده ويُسرج، ويُخرج أحاديث فيعلِّم عليها ثم يضع رأسه»^(١)، وقد قال الله في وصف أهل الإيمان: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٦٤- والنُّصَحَ فابذُلْهُ لِلطُّلَابِ مُحْتَسِبًا في السِّرِّ والجُّهْرِ والأُسْتَاذَ فَاحْتَرِمِ
«وَالنُّصَحَ فابذُلْهُ لِلطُّلَابِ»؛ أي كُنْ ناصحاً لهم، كما قال - عليه الصلاة والسلام - في حديث تميم بن أوس الدَّارِي: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»^(٢).
و«النُّصَحُ» هو إرادةُ الخير للغير، وأنَّ تحبَّ لهم ما تحبُّ لنفسك، كما أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أكرمَكَ بحظٍّ من العلم ونصيبٍ منه؛ فأوصلْ هذا الخيرَ الذي أكرمَكَ الله به إلى الآخرين؛ لينتفعوا به كما انتفعت، وليُفيدوا منه كما استفدت.

(١) «هدي السَّاري» (ص ٤٨١).

(٢) رواه مسلم برقم (٥٥).

«فابذلْهُ»؛ أي قدّمه للآخرين بقلبٍ شفيق، ووجهٍ طليق، ومعاملةٍ حسنة.

«محتسبًا»؛ أي الأجر والثواب من الله - سبحانه وتعالى - في بذل العلم لطلّابه، لا ترجو منهم شيئًا، وإنّما ترجو من الله وتحتسبُ ذلك ثوابًا وأجرًا عند الله - سبحانه وتعالى -، وتجعل ذلك من جملة قُرباتك وطاعاتك التي تتقرّب بها إلى الله - سبحانه وتعالى -.

«في السِّرِّ»؛ أي ابذلْ لهم النصّح سرًّا بينك وبين آحاد الطلّاب، ولا سيما عند إرادة نصحه وتنبيهه على بعض الأخطاء والمخالفات؛ فإنّ النصيحة إذا أُسديت سرًّا كانت أبلغَ في التأثير والفائدة، ذكر الحافظ ابنُ رجب رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ السَّلَفَ كانوا يكرهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن كان على وجه التشهير بالمخطئ على رؤوس الملائ، ثم قال: «ويحبُّون أن يكونَ سرًّا فيما بين الأمر والمأمور، فإنّ هذا من علاماتِ النصّح، فإنّ النَّاصح ليس له غرَضٌ في إشاعة عيوب مَنْ ينصح له، وإنّما غرضه إزالةُ المفسدة التي وقع فيها؛ وأمّا الإشاعة وإظهار العيوب فهو ممّا حرّمه الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١) الآيتين [النور: ١٩، ٢٠]، والأحاديث في فضل السِّرِّ كثيرةٌ جدًّا»^(١).

قوله: «والجهر»؛ أي الجهر في الدُّروس العامّة كالخطابة والمحاضرات والكلمات التي تشمل الجميع والنفع العامّ في المجالس وإفادة النَّاس، فتكون دائمًا حريصًا على بذل الخير بجميع الوسائل، وفي عصرنا استجدّت بعض الوسائل يمكن الاستفادة منها في بثّ العلم ونشره كـ«الانترنت» و«الجوّالات».

(١) «الفرق بين النصيحة والتّعير» (ص ١٧).

وهذا البذل يزيدُ العلم، كما قال الإلبيريُّ في وصيَّته لابنه^(١):

وكنز لا تخاف عليه لصًّا خفيف الحمل يوجد حيث كتنا
يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفًا شددنا

فالعلم إذا أمسكه صاحبه ولم يُفد به الآخرين نقص، كما قال عبد الله ابن المبارك: «من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إمّا موتٌ يذهب علمه، وإمّا ينسى، وإمّا يلزمُ السُّلطان، فيذهب علمه»^(٢).

ولكن إذا بذلت العلم وقدمت النصيحة إلى الآخرين زاد علمك ونمى، وهذا من جزاء الحسنة بالحسنة، فمن أحبَّ الخير لعباد الله وفقه الله للخير، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وجرى لك ثوابه بعد موتك للحديث: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٣).

وقوله: «والأستاذ فاحترم»؛ وهذا مهمٌ جدًّا في الطلب: أن يكون طالب العلم على قدر عال من الاحترام لمعلمه.

وعلى قدر هذا الاحترام تتحقّق الفائدة ويعظم الخير، والعكس بالعكس.

قال الشيخ محمّد بن مانع رَحِمَهُ اللهُ: «ولا ينبغي له أن يكون لئيمًا يغتاب معلّمه ومن يشاركه في الدّرس من الطّلبة، ويقابل الحسنة بالسّيئة، كما شاهدنا

(١) «ديوان أبي إسحاق الإلبيري» (ص ٢٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٩٨).

(٣) رواه مسلم برقم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ذلك من كثير من الطُّلاب، حتَّى حُرِّموا العلم بسبب ذلك، بل الواجبُ عليه الاعتراف بفضله، والدُّعاء له، ونشر محاسنه، والكفُّ عن مساوئه»^(١).

ولهذا يَخْصِّصُ أهل العلم في كُتُب الآداب فصولاً في أدب طالب العلم مع شيخه، وحديث جبريل فيه جملةٌ من هذه الآداب.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٥- وَمَرْحَبًا قُلْ لِمَنْ يَأْتِيكَ يَطْلُبُهُ وَفِيهِمْ اخْفَظْ وَصَايَا الْمُصْطَفَى بِهِمْ
أي إذا أصبحت مؤهلاً للتعليم، وأتاك طُلاب العلم يتلقون العلم على يديك؛ فعليك أن تُقابلهم بصدرٍ رَحِبٍ، ولتكن نفسك معهم طَيِّبَةً، ومعاملتك معهم حسنةً، تتلقَّاهم بالبِشْرِ والحفاوة والترحيب؛ لأنَّهم تغرَّبوا عن أوطانهم وتركوا ديارهم، وعطَّلوا كثيراً من مصالحهم رغبةً في هذا العلم، فهم جاؤوا لأمرٍ شريف، ومقصدٍ نبيل، فأمثال هؤلاء حقُّهم أن يُتلقَّوا بالترحيب وحسن المعاملة؛ ولهذا في تراجم أهل العلم يذكر في أوصاف بعضهم أنَّه كان حسن التَّودُّد، وهذه خصلة طَيِّبَةٌ مهمَّةٌ في العالم والأستاذ؛ أن يكون حسن التَّودُّد بالبشاشة والطلاقة والابتسامة وحسن المعاملة.

روى الإمام أحمد بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم قال: نزل علينا أبو هريرة رضي الله عنه بالكوفة، قال: فكان بينه وبين مولانا قرابة (وهو مولى الأحمس)، فاجتمعت أحمس، قال قيس: فأتينا نسلِّم عليه، فقال له أبي: يا أبا هريرة! هؤلاء أنسابُك أتوك يسلمون عليك، وتحدِّثهم عن رسول الله ﷺ،

(١) «إرشاد الطُّلاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب» (ص ٨٢).

قال: «مرحبًا بهم وأهلًا»^(١).

فهذا الترحيب الرفيع يزيد من همّة الطالب ويقوّي رغبته، ولهذا أوصى النبي ﷺ بأن يُتلقّى طلاب العلم بالترحيب، وكان هذا من هديه إذا أتته الوفود لطلب العلم والأخذ عنه - عليه الصلاة والسلام -، فلما جاءه وفد عبد القيس - والحديث في «الصحيحين» - قال: «مَرْحَبًا بِالقَوْمِ غَيْرِ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى»^(٢).

و«مرحبًا»؛ هي كلمة ترحيب، أي حلّلت في مكان رحب وبين إخوة يحبونك. «وَفِيهِمْ أَحْفَظُ وَصَايَا الْمُصْطَفَى بِهِمْ»؛ أي كلّ ما أوصى به النبي ﷺ في حقّ طالب العلم فاحفظه، ومن ذلك الترحيب بطالب العلم، وأن يتلقّى بهذه الكلمة الطيبة: «مرحبًا».

والنّاظم رحمه الله يشير إلى ما رواه الترمذي وابن ماجه من طريق أبي هارون العبدى، قال: كنّا نأتي أبا سعيد فيقول: «مرحبًا بوصيّة رسول الله ﷺ»، إنّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبِعٌ، وَإِنَّ رَجُلًا يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضَيْنِ؛ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا»^(٣).

(١) «المسند» (٧٩٨٦).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٣)، ومسلم برقم (١٧) من حديث أبي حمزة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٦٥٠)، وابن ماجه برقم (٢٤٧).

وفي إسناده أبو هارون العبدى وهو ضعيف؛ ولكن له طريق آخر عند الحاكم في «المستدرک» (١/ ١٦٤) عن أبي نصر، عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: مرحبًا بوصيّة رسول الله ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يوصينا بكم»، وصحّحه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

فهذه وصية ثابتة عن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - بطلاب العلم، ولم يحدّد شيئاً معيناً يوصي نحوهم به وهذا يفيد العموم يفيد تنكير «خَيْرًا»، فشمل ذلك كلّ ما يمكن أن يقدمه العالم من خير قولي أو فعلي لطلاب العلم.

✽ قال رَحِمَهُ اللهُ:

٦٦- وَالنِّيَّةُ اجْعَلْ لِرُوحِهِ اللهُ خَالِصَةً إِنَّ الْبِنَاءَ بِدُونِ الْأَصْلِ لَمْ يَقُمْ
أي: اجعل نيّتك خالصة لوجه الله، وفي الحديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(١).

وطلب العلم عبادة، كما قال الإمام الزُّهري رَحِمَهُ اللهُ: «ما عبد الله بمثل العلم»^(٢)، والعبادة لا تُقبل إلّا بالإخلاص لله - سبحانه وتعالى -.
فعلى طالب العلم أن يصحّح نيّته في كلّ وقت وحين بمجاهدة مستمرة للنفس، يقول سفيان الثوري: «ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليّ من نيّتي؛ لأنّها تنقلب عليّ»^(٣)، فالشيطان يأتي طالب العلم إذا جلس في مجالس العلم يقول: اجتهد حتّى يقال:

= وقال العلائي في «بغية الملتمس»: «إسناده لا بأس به»، وللحديث طرق أخرى ذكرها الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٨٠).
(١) رواه البخاري برقم (١)، ومسلم برقم (١٩٠٧).
(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٤٦٩٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٠).

(٣) «الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع» للخطيب البغدادي (٦٩٢).

عالم! حتّى يكون لك شهرة! حتّى يكون لك صيت! وينفخ فيه ليفسد عليه نيّته، ولهذا فالنيّة تحتاج إلى معالجة، والطّالب يحتاج أن يصحّح نيّته دائماً، وأن يبعد نفسه عن الرّياء والسّمعة وحبّ الظّهور وحبّ الشّهرة وما إلى ذلك، ويجعل طلبه للعلم من جملة أعماله الصّالحة التي يتقرّب بها إلى الله - سبحانه وتعالى -، وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «العلم لا يعدّله شيء»^(١). وقال مهنا: «قلت لأحمد: حدّثنا ما أفضل الأعمال؟ قال: طلب العلم، قلت: لمن؟ قال: لمن صحّت نيّته. قلت: وأي شيء يصحّح النيّة؟ قال: ينوي؛ يتواضع فيه وينفي عنه الجهل»^(٢).

«إِنَّ الْبِنَاءَ بِدُونِ الْأَصْلِ لَمْ يَقُمْ»؛ أي لا يقوم البناء إلّا على أصوله وأعمدته، فكَذلك الدّين لا يقوم إلّا على أصله وعماده، ألا وهو الإخلاص لله - جلّ وعلا - وابتغاء وجهه - تبارك وتعالى -.

و«الإخلاص»: هو قصد وجه الله - تعالى - وحده، وهو التّوحيد.

وفي هذا إشارة إلى أهمّيّة علم التّوحيد، فكما أنّ البيت لا يقوم إلّا على عماده، والشّجرة لا تقوم إلّا على أصلها؛ فكذلك بناء الدّين لا يقوم إلّا على أصله وأساسه وهو التّوحيد، فإذا لم يكن العلم قائماً على التّوحيد فلا نفع فيه.

* ثمّ قال رَحِمَهُ اللهُ محدّراً من بعض الأمور التي تحرم النيّة الصّالحة:

٦٧- وَمَنْ يَكُنْ لِيَقُولَ النَّاسُ يَطْلُبُهُ أَخْسِرُ بِصَفْقَتِهِ فِي مَوْقِفِ النَّدَمِ

(١) انظر: «الآداب الشّريّة» لابن مفلح (٢/ ٣٥).

(٢) نفسه (٢/ ٣٧).

قوله: «وَمَنْ يَكُنْ لِقَوْلِ النَّاسِ يُطْلَبُهُ»؛ أي: من يطلب العلم؛ لأجل أن يقول الناس عنه طالب علم أو عالم أو فقيه، أو يقال عنه كذا وكذا من الأوصاف والألقاب، فإنَّ صفقته خاسرة يوم القيامة، وإنَّ حصَّل شيئاً من حطام الدنيا.

«أَخْسِرَ بِصَفْقَتِهِ»؛ أي قل ما أخسر صفقته يوم القيامة عندما يحصل الناس الأجور على الجدِّ والاجتهاد، وأمَّا هو لا يحصل شيئاً على جدِّه واجتهاده؛ لأنَّه لم يطلب العلم لوجه الله - سبحانه وتعالى -، وإنَّما طلبه ليقال عالم، ولهذا جاء في الحديث الذي يرويه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيٌّ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكَتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌّ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

(١) رواه مسلم برقم (١٩٠٥).

فهذا اجتهد في الحياة الدنيا حفظًا وتعلُّمًا وتفقُّهًا ومجالسةً لأهل العلم وكتابةً للعلم، وبذل في ذلك جهودًا كثيرة ثم يأتي يوم القيامة ويُسحب إلى النار، بل يكون من أوّل من تُسعر بهم النار؛ لفساد نيّته.

قال التّوّيُّ رَحِمَهُ اللهُ في شرحه لهذا الحديث: «فيه دليلٌ على تغليظ تحريم الرِّياء، وشدّة عقوبته، والحثُّ على وجوب الإخلاص في الأعمال كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وفيه أنّ العمومات الواردة في فضل الجهاد إنّما هي لمن أراد الله - تعالى - بذلك مخلصًا، وكذلك الثّناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات كلّهُ محمولٌ على من فعل ذلك لله تعالى مخلصًا»^(١) انتهى.

وقوله في تمام البيت «في مَوْقِفِ النَّدَمِ»؛ أي يوم القيامة، حيث يندم أكثر الخلق، ولا ينفعهم يومئذٍ ندمهم.

❖ ثمّ قال رَحِمَهُ اللهُ:

٦٨- وَمَنْ بِهِ يَبْتَغِي الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَظٍّ وَلَا قَسَمٍ
«وَمَنْ بِهِ يَبْتَغِي الدُّنْيَا»؛ أي يطلب العلم للدُّنيا؛ كالرئاسة والزَّعامة والمال والجاه والمناصب إلى غير ذلك.

«فليس له يوم القيامة مِنْ حَظٍّ وَلَا قَسَمٍ»؛ أي ليس له يوم القيامة حَظٌّ ولا نصيب من ثواب الله - سبحانه وتعالى - وأجره؛ لأنّه كان يريد به الدُّنيا،

(١) «شرح صحيح مسلم» (٣/ ١٥١٣).

وسيشير الناظم رَحِمَهُ اللهُ إِلَى بعض الأدلة في هذا الباب، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أي رَجَحَهَا، رواه أبو داود وابن ماجه، وصحَّحه ابن حَبَّانَ والحاكم^(١).

ثم ذكر الناظم رَحِمَهُ اللهُ الأدلة على ذلك، فقال:

٦٩- كَفَى بِ(مَنْ كَانَ) فِي سُورَى وَهُودٍ وَفِي الْإِسْرَاءِ مَوْعِظَةً لِلْحَازِقِ الْفَهْمِ

أي يكفي دليلًا على ما قرَّر في البيت السابق قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ﴾ في هذه السُّور الثلاث في سورة الشُّورى، وفي سورة هود، وفي سورة الإسراء.

في سورة الشُّورى قال جلَّ وعلا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وفي سورة هود قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَمُرَفِهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْكَارُ وَحُطِّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وفي سورة الإسراء قال جلَّ وعلا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمن يُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، فهذه ثلاثة مواضع في القرآن كُلُّهَا صُدِّرَتْ بقوله: ﴿مَنْ كَانَ﴾، وكلُّها تبيِّن أَنَّ من يبتغي

(١) «سنن أبي داود» برقم (٣٦٦٤)، و«ابن ماجه» برقم (٢٥٢)، و«صحيح ابن حَبَّانَ» برقم (٧٨)، و«المستدرک» (١/ ١٦٠).

بالعلم الدنيا فليس له يوم القيامة من حظ ولا نصيب.

✽ قال رحمه الله:

٧٠- إِيَّاكَ واحْذَرْ مُمَارَاةَ السَّفِيهِ بِهِ كَذَا مُبَاهَاةَ أَهْلِ الْعِلْمِ لَا تَرُمُ

جاء في «جامع» الترمذي عن كعب بن مالك، عن أبيه رحمته الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(١)؛ ولهذا قال الناظم: «إِيَّاكَ واحْذَرْ مُمَارَاةَ السَّفِيهِ بِهِ»؛ أي لا يكن من مسلكك في العلم أن تحصّله وتطلبه من أجل مماراة السفهاء أو من أجل مباهاة العلماء، يتباهى بعلمه في مجالس أهل العلم أو يبرز نفسه ليُقال هو أعلم من العالم الفلاني وأدري منه، فإن هذا ممّا يخرمُ النية، وبعض المبتلين بهذا ربّما أنّه يبحث مسألة من الدقائق، ويحرص على إتقانها ثم يثيرها في بعض المجالس وليس له همٌّ في تدقيق هذه المسألة وبحثها، والتوسّع فيها إلّا أن يبرز من أجل المباهاة، وآخر يبحث في المسائل من أجل مماراة السفهاء والخصومات والجدل.

✽ قال رحمه الله:

٧١- فَإِنَّ أَبْغَضَ كُلِّ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ إِلَى الْإِلَهِ أَلَدُ النَّاسِ فِي الْخِصَمِ

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٥٤) وقال: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم تُكَلِّم فيه من قبل حفظه». وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٢٥٩).

كما في حديث عائشة رضي الله عنها المتفق على صحته أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ»^(١).

«الألدُّ»: مأخوذٌ من لَدَيْ الوادي وهما جانباه؛ لأنَّه كلما احتجَّ عليه بحجَّة أخذ في جانب آخر، وقيل: مشتقٌّ من لَدَيْ العنق وهما صفحتاه؛ و«الخصم»: المولع بالخصومة، والماهر بها^(٢).

فمن كان بهذه الصِّفة صاحبَ لدٍّ في الخصومة، يتفنَّن، وعنده مهارة يذهب بخصمه هنا وهناك، همُّه أن يظهر ويغلب ويُفحِم خصمه، فمن كان بهذه الصِّفة فهو أبغض الرجال إلى الله - سبحانه وتعالى -، وقد قال الله في القرآن في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

* ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

٧٢- والعُجْبُ فاحْذَرُهُ إِنَّ الْعُجْبَ مُجْتَرِفٌ أَعْمَالُ صَاحِبِهِ فِي سَبِيلِهِ الْعَرِمِ «وَالْعُجْبُ فاحْذَرُهُ»؛ هذا - أيضًا - من الأمور التي تخلُّ بالنية، والعُجْبُ: رؤية النفس والتَّعالي على النَّاسِ والتَّرفُّع عليهم، وهو خلقٌ ذميمٌ لا يليقُ بآحاد النَّاسِ من المسلمين؛ فكيف بطالب العلم الذي أكرمه الله - سبحانه وتعالى - بالعلم ومَنَّ عليه بالفهم والفقه، وطالب العلم كلما كان مستشعرًا منَّة الله عليه

(١) رواه البخاري برقم (٢٤٥٧)، ومسلم برقم (٢٦٦٨).

(٢) راجع «شرح النووي على مسلم» (٢١٩ / ١٦).

وتفضُّله عليه بالعلم، وأنَّه لولا فضلُ الله عليه ورحمته ما حصل من العلم شيئاً؛ ذهب عنه العُجب، وعُمِر قلبه بالإخلاص.

ولهذا؛ فإنَّ دواء العُجب كما في القرآن أن تقول: «ما شاء الله لا قوَّة إلاَّ

بالله»: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَكْرِنًا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]، أن تذكر نعمة الله عليك، وأنَّ الأمور كُلَّها بمشيئته، وأنَّه لا قوَّة لك إلاَّ بالله - سبحانه وتعالى -، وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وأنَّه - سبحانه وتعالى - المعطي المانع الرَّافع الخافض القابض الباسط، والأمر كُلُّه بتدبيره ومنه وفضله جلَّ وعلا.

ثمَّ بيَّن - رحمة الله عليه - خطورة العُجب الشَّديدة على الإنسان بقوله:

«إِنَّ الْعُجْبَ مُجْتَرِفُ أَعْمَالٍ صَاحِبِهِ فِي سَبِيلِهِ الْعَرَمُ»

فشبَّه العُجب بالسَّيل الجارف العَرَم الَّذي يدمِّر ما أمامه، فالإنسان عندما يُصاب بداء العُجب؛ يجترِفُ أعماله الصَّالحة كُلَّها فلا يبقى منها شيئاً.

أورد الحافظ المنذري في كتابه «التَّرهيب والتَّرهيب» تحت باب «التَّرهيب

من الدَّعوى في العلم والقرآن»، أورد فيه أحاديث؛ منها حديث عمر ابن الخطَّاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُظْهَرُ الْإِسْلَامُ حَتَّى تَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي الْبَحْرِ، وَحَتَّى تَخُوضَ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ يَقُولُونَ: مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟!» ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ فِي أَوْلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: «أَوْلَيْكَ مِنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَوْلَيْكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ».

قال المنذري: «رواه الطبراني في «الأوسط»، والبزار بإسناد لا بأس به»،
وحسنه الألباني لغيره رَحِمَهُ اللهُ^(١).

والعجب عندما يُصاب به طالب العلم يجرُّه إلى الكبر، وإلى التَّعالي على
النَّاس، والتَّرفُّع على عباد الله، والعلوُّ في الأرض، وقد جاء في الحديث عن
النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٢).

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٧٣- وَبِالْمِهْمِ الْمِهْمِ ابْدَأْ لِتُذْرِكَهُ وَقَدِّمِ النَّصَّ وَالْأَرَءَ فَاَتِمِّمِ

هذه وصية عظيمة جدًا، ما أحوج طالب العلم المبتدئ لمعرفتها.

وكثيرًا ما يتخبط المبتدئون في هذا الأمر، وربما تسبَّب لهم ذلك بعدم
المواصلة والمضي في طلب العلم، بينما إذا أخذ الأمور مأخذًا صحيحًا، وأتى
الأمر من أبوابها الصَّحيحة؛ أدرك بإذن الله - جلَّ وعلا - مع الأيام والوقت
خيرًا عظيمًا.

«وَبِالْمِهْمِ الْمِهْمِ ابْدَأْ لِتُذْرِكَهُ»؛ أي العلم وتحصل منه خيرًا كثيرًا، تدرِّج
في طلبه، وهذه قاعدة مفيدة لطالب العلم وهي مستفادة من قوله تعالى:
﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَانِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ
وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقول الله جلَّ وعلا: ﴿الَّذِينَ

(١) «صحيح التَّرجيب والتَّرهيب» رقم (١٣٥).

(٢) رواه مسلم برقم (٩١).

يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾
[الزمر: ١٨].

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

ما أكثر العلم وما أوسعهُ مَنْ ذا الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يَجْمَعَهُ
إِنْ كُنْتَ لَا بَدْلَ لَهُ طَالِيَا مُحَاوَلَا فَالْتَمِسْ أَنْفَعَهُ

ولهذا؛ فإنَّ طالب العلم ينبغي له أن يتدرَّج في أخذ العلم، لا أن يروم أخذه جملةً واحدةً، وحفظه في مرَّة واحدة أو في جلسات قلائل، بل يتدرَّج في مسائل العلم شيئاً فشيئاً حتَّى يحصلَ مع مرِّ الأيام منه خيراً كثيراً.

يقول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ مُعْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، نُقل عن بعض السلف أنَّه قال في معنى الرِّبَّاني، قال: «الَّذِي يَرْبِّي النَّاسَ بِصَغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ»، ذكره البخاريُّ في «صحيحه»^(١)، قال الحافظ في «مقدمة الفتح»^(٢): «أي بالتَّدرِج».

وهذا أمرٌ يحتاج إليه المبتدئ حاجةً شديدة، وإذا وفقَّ لعالم يتدرَّج به في طلب العلم؛ يحصل - بإذن الله - مع الأيام خيراً كثيراً.

قد يسأل بعض المبتدئين بعض طُلَّاب العلم عمَّا يبدأ به في الطُّلب، فيُملِي

(١) تحت باب: العلم قبل القول والعمل (ص ١٦) / ط. دار السَّلام.

(٢) (ص ١٢١).

عليه كتباً كثيرة! ومثل هذا لا يصلح أن يُملَى عليه قائمةً من الكتب، بل يُعطى كتاباً واحداً فيه أمّهات مسائل الدين وأصوله وقواعد الشريعة، ويوصى بحفظه وتكراره حتّى يكون له كالقاعدة، ثمّ بعد ذلك يدخل شيئاً فشيئاً بالتدرّج، ولهذا أحسن ما يوصى به المبتدئ «الأربعين النووية»، ولا يعطى غيرها، ثمّ بعد ذلك يُتدرّج معه في الكتب: في التّوحيد، وفي العبادات، وفي الآداب، وفي التّفسير، وفي الفقه، وغير ذلك.

جاء عن الإمام الزّهري - رحمه الله عليه - أنّه قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ جَمَلَةً فَاتَهُ جَمَلَةٌ، وَإِنَّمَا يُدْرِكُ الْعِلْمَ حَدِيثٌ وَحَدِيثَانِ»^(١).

أي يمضي به بالتدرّج شيئاً فشيئاً، وهذا المعنى مستفادٌ من قول النّبِيِّ - عليه الصّلاة والسّلام -: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ» متّفق عليه^(٢).

تَحَفّظُ في اليوم حديثاً واحداً، وتستمرُّ على هذا، خيرٌ من أن تحفّظ في اليوم الواحد مائة حديث وتقف، فالشيء الذي يأتي بالتدرّج، بالصّبر والأناة والإتقان، هو الذي يكون له بإذن الله عَزَّوَجَلَّ الثّمرة النّافعة والعاقبة الطّيّبة، يقول الشّاعر:

اليوم شيءٌ وغداً مثله من نخب العلم التي تلتقط
يحصل المرء بها حكمةً وإنما السيل اجتماع النقط

(١) «الجامع لأخلاق الرّواي وآداب السّامع» للخطيب البغدادي (٤٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٢)، و«صحيح مسلم» برقم (٧٨٣) - واللفظ له - عن عائشة رضي الله عنها.

ثم قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَدَّمَ النَّصَّ وَالْأَرَءَ فَاتَّهَمَ»؛ وهذا فيه الحثُّ على تقديم الكتاب والسُّنَّة على الآراء، كما قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «اتَّهَمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ»^(١)، وقال عليُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لو كان الدِّينُ بالرَّأْيِ لكان باطن الخفِّ أَحَقَّ بالمسح من أعلاه»، وأثر عليٍّ في «مسند أحمد» و«سنن أبي داود»^(٢)، وقال عنه الحافظ في «الفتح»^(٣): «رجال إسناده ثقاتٌ»، وحسَّن إسناده في «بلوغ المرام»^(٤)، وأيضاً: جَوَّدَ إسناده ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «إعلام الموقعين»^(٥) في أوائل الكتاب، وله كلامٌ عظيمٌ جداً وتقسيمٌ مفيدٌ حول الرَّأْيِ المذموم.

والواجب على طالب العلم أن يقدِّم النَّصَّ (كلام الله وكلام رسوله - عليه الصَّلَاة والسَّلَام -)، وأن يَتَّهَمَ الرَّأْيَ في الدِّينِ، والأمر كما قيل: «إذا جاء الأثر بطل النَّظَرُ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل».

ومن أراد الاعتبار في هذا الباب؛ فلينظر إلى قِصَّةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مع النَّبِيِّ ﷺ يوم صلح الحديبية، يقول سهل بن حنيف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أُتِيَهَا النَّاسُ! اتَّهَمُوا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّا كُنَّا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا،

(١) رواه الإمام أحمد في «فضائل الصَّحَابَةِ» برقم (٥٥٨)، واللَّالكائي في «أصول الاعتقاد» برقم (٢٠٨).

(٢) «المسند» برقم (٧٣٧)، و«سنن أبي داود» برقم (١٦٢)، وصحَّحه الشَّيْخُ الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «إرواء الغليل» برقم (١٠٣).

(٣) (١٩٢/٤).

(٤) رقم (٥٧).

(٥) (٦٠/١).

فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله! ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! فقال: «بلى»، فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟! قال: «بلى»، قال: فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينَةَ في ديننا، أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟! فقال: «يا ابن الخطاب! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا»، فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ فقال: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا، فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله! أَوْ فَتَحَ هُوَ؟ قال: «نَعَمْ»، والحديث متفق عليه^(١).

فطالبُ العلم واجبه تقديم النصوص، وأن يتَّهَمَ الرَّأْيَ في الدين، وأن يقدم كلامَ ربِّه وكلامَ رسوله - عليه الصَّلاة والسلام -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧٤- قَدَّمَ وَجُوبًا عُلُومَ الدِّينِ إِنَّ بِهَا يَبِينُ نَهْجُ الْهُدَى مِنْ مُوجِبِ النِّقَمِ

أي: عندما تشرع في الطَّلَب والتَّحْصِيل؛ قَدَّمَ علوم الدين على العلوم الدُّنْيَوِيَّة، وخاصَّة ضروريَّات الدين، وما لا يتِمُّ الواجب إلَّا به، فهذه كُلُّها مقدَّمة، وبها يبدأ قبل تعلُّم أيِّ أمر آخر.

«وجوبًا»؛ أي ليس استحبابًا، وإنَّما هو واجب.

(١) رواه البخاري برقم (٣١٨٢)، ومسلم برقم (١٧٨٥).

«إِنَّ بِهَا يَبِينُ نَهْجُ الْهُدَى مِنْ مُوَجِبِ النَّقَمِ»؛ أي إِنَّ علوم الدِّين هي التي يميِّز بها طالب العلم بين الحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والسُّنة والبدعة، والطَّيِّب والخبيث.

٧٥- وكلُّ كُسْرٍ فَتَى فَالِدَيْنُ جَابِرُهُ وَالْكَسْرُ فِي الدِّينِ صَعْبٌ غَيْرُ مُلْتَمَسٍ

يقول: انتبه يا طالب العلم! «كُلُّ كُسْرٍ» وكلُّ مصيبة يُصاب بها الإنسان في غير الدِّين يجبرها الدِّين، كما يوضح ذلك قول النَّبِيِّ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

بينما إذا كان كُسْرُ الإنسان - والعياذ بالله - في دينه؛ فهذا أمر صعبٌ جدًّا، وهو غير ملْتَمَسٍ إِلَّا إِنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَهَدَاهُ لِلْأُوبَةِ.

فقوله: «وَالْكَسْرُ فِي الدِّينِ صَعْبٌ غَيْرُ مُلْتَمَسٍ»؛ فيه أَنَّ المصائب متفاوتة، وَأَنَّ أعْظَمَ المصائب المصيبةُ في الدِّين، وقد جاء في الدُّعاء عن نبيِّنا - عليه الصَّلَاة والسَّلَام -: «وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا» رواه التِّرْمِذِيُّ^(٢) وحسنه.

ومعنى قوله: «وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا»؛ أي لا تصبنا بما ينقص ديننا ويذهب به؛ من اعتقادٍ سيِّئٍ أو تقصيرٍ في الطَّاعة أو فعلٍ محرَّم، وذلك لأنَّ المصيبة

(١) رواه مسلم برقم (٢٩٩٩).

(٢) في «الجامع» برقم (٣٥٠٢).

في الدين أعظم المصائب وليس عنها عوض، بخلاف المصيبة في الدنيا كما قيل:
من كل شيء إذا ضيَّعته عِوضٌ وليس في الله إن ضيَّعت من عِوض

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

٧٦- دَع عَنْكَ مَا قَالَهُ الْعَصْرِيُّ مُتَحِلًّا وبالْعَتِيقِ تَمَسَّكَ قَطُّ وَاعْتَصِمِ
«دَعْ»؛ أي احذر وتجنب «ما قاله العصرِيُّ»؛ أي: أهل العصر وأهل
الزَّمان، والمراد بالعصرِيُّ الَّذِي ليس له ارتباطٌ بعلوم السَّلف، وأمَّا العالمُ من
أهل العصر المتمسِّكُ بنهج السَّلف والماضي على جادَّتِهِمْ، فيحرصُ على الأخذ
عنه والتَّلقِي منه.

وقوله: «متحلاً»؛ يعني ينتحلُ العلمَ وينتسبُ إلى السُّنَّة، وليس واقعُه
كذلك، وإنَّما يدَّعي ذلك ادِّعاءً.

قال: «وبالْعَتِيقِ تَمَسَّكَ قَطُّ وَاعْتَصِمِ»؛ يعني كُن دائماً متمسِّكاً بالعتيق،
جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلَيْسَتْ بِيَمَنْ قَدْ مَاتَ؛ فَإِنَّ
الْحَيَّ لَا تَوْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أَوْلَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ
أَبْرَها قُلُوبًا وَأَعْمَقَها عِلْمًا وَأَقْلَها تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ لَصَحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ،
وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ
مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ»^(١)، وجاء عنه - أيضًا -
أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ، وَقَبْضُهُ أَنْ يُذْهَبَ بِأَصْحَابِهِ، عَلَيْكُمْ

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٥)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١٨١٠).

بالعلم فإنَّ أحدكم لا يدري متى يُفْتَقَر إليه أو يُفْتَقَر إلى ما عنده، إنَّكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنَّهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم! فعليكم بالعلم، وإياكم والتَّبَدُّع! وإياكم والتَّنَطُّع! وإياكم والتَّعَمُّق! وعليكم بالعتيق» رواه الدَّارِمِيُّ^(١).

❖ ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

٧٧- ما العلمُ إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ أوْ أَثَرُ يَجْلُو بُرْهَانَهُ هُدَاهُ كُلُّ مَنْبِهِمْ
حقيقة العلم الذي ينبغي أن يُقْبَلَ عليه الطَّالِب، ويسعى في تحصيله الرَّاغِب لزوم
الكتاب والسُّنَّة، جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «العلم ثلاثة: كتابٌ ناطق، وسُنَّةٌ
ماضية، ولا أدري» رواه الطَّبْرَانِيُّ^(٢).
وقد أنشد بعضهم:

العلمُ قال الله قال رسولُه قال الصَّحَابَةُ ليس خُلْفُ فيه
ما العلمُ نصبك للخلاف سفاهةً بين النُّصوص وبين رأي سفيه
كلَّا ولا نصبَ الخلاف جهالةً بين الرُّسول وبين رأي فقيه

❖ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

٧٨- مَا تَمَّ عِلْمٌ سِوَى الْوَحْيِ الْمُبِينِ وَمَا مِنْهُ اسْتُمِدَّ إِلَّا طُوبَى لِمُغْتَنِمِ

(١) برقم (١٤٢)، وفي إسناده انقطاع.

(٢) في «المعجم الكبير» برقم (٢٥١)، وقوَّاه الألباني في «السُّلْسَلَةُ الضَّعِيفَةُ» (٨ / ٤١١).

«مَا تَمَّ عِلْمُ سِوَى الْوَحْيِ الْمُبِينِ»؛ أي كتاب الله وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام - «وما منه استمدَّ»؛ أي ما كان مستمدًا من الوحي، متلقًى منه، «ألا طوبى لمغتني»؛ أي مغتنم أوقاته في تحصيل هذا العلم المبارك والخير العظيم.

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

٧٩- والكَتَمَ لِلْعِلْمِ فَاحْذَرُ إِنَّ كَاتِمَهُ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمْ
أي: احذر أن تكتُم العلم عن أهله والمحتاجين إليه والراغبين في تحصيله،
ثم بيّن العقوبة: «إِنَّ كَاتِمَهُ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمْ»؛ يشير إلى قول الله - سبحانه وتعالى - في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وجاء في «الصحيحين»^(١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: أَكْثَرُ أَبُو هُرَيْرَةَ! وَلَوْ لَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، والآية التي تليها: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَاُولَٰئِكَ أَثُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

٨٠- وَمِنْ عُقُوبَتِهِ أَنْ فِي الْمَعَادِ لَهُ مِنَ الْجَحِيمِ لِحَامًا لَيْسَ كَاللُّجْمِ

(١) رواه البخاري برقم (١١٨)، ومسلم برقم (٢٤٩٣).

«وَمِنْ عُقُوبَتِهِ»؛ يعني كتم العلم: «أَنْ فِي الْمَعَادِ لَهُ مِنَ الْجَحِيمِ لَجَامًا لَيْسَ كَاللُّجْمِ»؛ أي أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَعَدَّ لِكَاتِمِ الْعِلْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَجَامًا؛ لكن ليس كاللُّجْمِ المعروفة الَّتِي تكون من الجلد ونحو ذلك؛ لكنَّه لَجَامٌ مِنَ النَّارِ، يشير بذلك إلى ما رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وصحَّحه ابن حَبَّانَ والحاكم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أُجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أُجِمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» رواه ابن حَبَّانَ والحاكم^(٢).

فواجبٌ مَنْ أكرمه الله - تعالى - بالعلم إذا سُئِلَ عنه؛ أَنْ يبيِّنه وأن لا يكتمه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثم ذكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ احترازًا في هذا الباب حتَّى لا يُظَنَّ أَنَّ هذا داخلٌ في كتمان العلم قال:

٨١- وصائِنُ الْعِلْمِ عَمَّنْ لَيْسَ يَحْمِلُهُ ما ذا بِكِتْمَانٍ^(٣) بَلْ صَوْنٌ فَلَا تَلَمِّ

إذا كان الغرض صيانة العلم بأن يُسأل فلا يجيب، فليس هذا من باب

(١) «سنن أبي داود» برقم (٣٦٦٠)، و«الترمذي» برقم (٢٦٤٩)، وابن ماجه برقم (٢٦٦)، و«صحيح ابن حَبَّانَ» برقم (٩٥)، و«المستدرک» (١/ ١٨٢).

(٢) «صحيح ابن حَبَّانَ» برقم (٩٦)، و«المستدرک» (١/ ١٨٢).

(٣) لم تصرف مراعاة للوزن العروضي.

الكتمان، وإنَّما هو من باب صيانة العلم، فمثل هذا لا يعدُّ كتماناً له.
مثل من يسأل لا للفائدة؛ وإنَّما يسأل للوقعة أو يسأل لأمرٍ أخرى
ومآرب دنيئة وإشاعة للباطل، فهذا لا يُجاب ولا يعدُّ ذلك من كتمان العلم.
«فَلَا تُلْمُ»؛ أي لا تلم العالم إذا صان العلم ولم يبيِّنه لهذا الغرض، ولهذا المقصد.

❖ قال رَحِمَهُ اللهُ:

٨٢- وَإِنَّمَا الْكُتْمُ مَنَعُ الْعِلْمِ طَالِبُهُ مِنْ مُسْتَحِقِّ لَهُ فَافْهَمْ وَلَا تَهِم
هذا القيد: «مِنْ مُسْتَحِقِّ لَهُ» يوضح أنَّ كتم العلم يذمُّ إذا كان بهذه
الصفة، أمَّا كتمه عن غير المستحق فلا يعدُّ كتماناً، ولا يذمُّ.
«وَلَا تَهِم»؛ أي لا تقع في الوهم في هذا الباب، وتخلط الأمور، وتجعل
صيانة العلم نوعاً من كتمان العلم.

❖ ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

٨٣- وَأَتَّبِعِ الْعِلْمَ بِالْأَعْمَالِ وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالتَّيَّانِ وَالْحُكْمِ
«وَأَتَّبِعِ الْعِلْمَ بِالْأَعْمَالِ»؛ أي عليك بالعناية بالعمل، ومقصود العلم
العمل، وهذا باب عظيم ومهمٌ للغاية، قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يَهْتَفُ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ،
فَإِنْ أَجَابَهُ إِلَّا ارْتَحَلَ»^(١).

وللخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ مؤلف عظيم في هذا الباب سمَّاه «اقتضاء
العلم العمل»، أورد فيه نصوصاً كثيرة من السُّنَّة، وأثاراً عن السَّلف، جديرٌ

(١) رواه ابن عساكر في «ذم من لم يعمل بعلمه» (ص ٣٨).

بطالب العلم أن يقفَ عليه.

قال رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «اقتضاء العلم العمل»:

«إني موصيك - يا طالبَ العلم - بإخلاص النية في طلبه، وإجتهاد النفس على العمل بموجبه، فإنَّ العلم شجرةٌ، والعمل ثمرةٌ، وليس يُعدُّ عالمًا من لم يكن بعلمه عاملاً.

فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشًا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصّرًا في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قلَّ نصيبك منهما. وما شيءٌ أضعف من عالم ترك النَّاسُ علمه لفساد طريقته، وجاهل أخذ النَّاسَ بجهله لنظرهم إلى عبادته.

والقليل من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة، إذا تفضّل الله بالرحمة، وتّم على عبده النعمة، فأما المدافعة والإهمال، وحبُّ الهوينى والاسترسال، وإيثار الخفض والدعة، والميل مع الراحة والسعة، فإنَّ خواتيم هذه الخصال ذميمة، وعقباها كريهة وخيمةٌ.

والعلم يُراد للعمل كما العمل يُراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كان العلم كلاً على العالم، ونعوذُ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً.

وهَلْ جَامِعُ كُتُبِ الْعِلْمِ إِلَّا كَجَامِعِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ؟ وَهَلِ الْمُنْهُومُ بِهَا إِلَّا كَالْحَرِيصِ الْجَشِعِ عَلَيْهِمَا؟ وَهَلِ الْمُغْرَمُ بِحُبِّهَا إِلَّا كَكَانِزِهِمَا؟ وَكَمَا لَا تَنْفَعُ الْأَمْوَالُ إِلَّا بِإِنْفَاقِهَا، كَذَلِكَ لَا تَنْفَعُ الْعُلُومُ إِلَّا لِمَنْ عَمِلَ بِهَا، وَرَاعَى وَاجِبَاتِهَا.

يقول: ما فائدة الذهب والفضة إذا كان يكثر الإنسان ولا يستفيد منه ولا يُنفقه؟! والعلم ما فائدته إذا كان يجمعه الإنسان ولا يعمل به ولا يبذله؟! قال: «كَذَلِكَ لَا تَنْفَعُ الْعُلُومُ إِلَّا لِمَنْ عَمَلَ بِهَا، وَرَاعَى وَاجِبَاتَهَا فَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ لِنَفْسِهِ، وَلِيَعْتَنِمَ وَقْتَهُ، فَإِنَّ الثَّوَاءَ قَلِيلٌ، وَالرَّحِيلَ قَرِيبٌ، وَالطَّرِيقَ مَخُوفٌ، وَالْإِغْتِرَارَ غَالِبٌ، وَالْخَطَرَ عَظِيمٌ، وَالنَّاقِدَ بَصِيرٌ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - بِالْمُرْصَادِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَعَادُ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ (١).

وقد جاء في الحديث الصحيح في «الترمذي» (٢) وغيره، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فَيَمَّا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ».

وجاءت نصوص كثيرة في الترهيب ممن لا يعمل بعلمه، ومن يقول ما لا يفعل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿[الصف: ٢ - ٣].

وجاء في «الصحيحين» (٣) عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَيَتَنَدَّلِقُ أَقْتَابُهُ فِي

(١) «اقتضاء العلم العمل» (ص ١٨).

(٢) «جامع الترمذي» برقم (٢٤١٦) من حديث أبي برزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري برقم (٣٢٦٧)، ومسلم برقم (٢٩٨٩).

النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ! مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

ولهذا كان من شأن السلف - رحمهم الله - عند سماعهم للحديث؛ المبادرة إلى العمل به.

جاء عن سفيان الثوري أنه قال: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قطُّ إلا عملتُ به ولو مرة»^(١).

وقوله: «ولو مرة» يقصد أحاديث الفضائل والرغائب، أمّا أحاديث الفرائض والواجبات لا يكفي فيها إلا المحافظة والمداومة.

ومثله قول عمرو بن قيس الملائي: «إذا بلغك شيء من الخير فاعمل به ولو مرة، تكن من أهله»^(٢).

وكان الإمام أحمد يقول: «ما كتبتُ حديثاً إلا وقد عملتُ به، حتى مرَّ بي أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً، فأعطيتُ الحجام ديناراً حين احتجمتُ»^(٣).

ولهذا كان من شأن السلف - رحمهم الله - أن العلم يظهر عليهم في أخلاقهم، وفي آدابهم، وفي معاملاتهم، كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «كان الرَّجُلُ إذا طلب العلم لم يَلْبَثْ أن يَرى ذلك في بصره وتخشُّعه ولسانه ويده

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٧٩).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (١/ ١٤٤).

(٣) المصدر السابق.

وصلاته وصلته وزهده»^(١).

قال: «وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالتَّبَيَّنِ وَالْحَكَمِ؛ أي هذا العلم الذي أكرمك الله به ومنّ عليك به أبلغه الآخرين، وادعُ إليه كما قال - جلّ وعلا -: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال - جلّ وعلا -: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

فحث الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ على الدَّعوة إلى سبيل الله - جلّ وعلا - بالتَّبيان والحكم، وهذا فيه التَّنبية على أَنَّ الدَّعوة إلى الله تكون بالتَّبيان والحكم، أي بالعلم المبني على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، ويدلُّ لذلك الآية: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، أمّا من دعا بدون بصيرة فإنّ ما يُفسد أكثر ممّا يُصلح.

* قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

٨٤- واصْبِرْ عَلَى لَاحِقٍ مِنْ فِتْنَةٍ وَأَذَى فِيهِ وَفِي الرُّسُلِ ذِكْرَى فَاقْتَدِهِ بِهِمْ
يعني اصبر على ما يلحقك إثر الدَّعوة إلى الله من فتنة وأذى.

«وفي الرُّسُلِ ذِكْرَى فَاقْتَدِهِ بِهِمْ»: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ولك في الرُّسل والأنبياء أسوةٌ حسنةٌ، فقد نالهم - وهم خيار الخلق وأفضل النَّاس - من الأذى ما نالهم، فتلقَّوا ذلك - عليهم السَّلام - بالصَّبر، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا

(١) رواه الدَّارمي في «سننه» برقم (٣٨٥)، وأورده المِزِّي في «تهذيب الكمال» (٦/ ١١١) في ضمن ترجمة الحسن.

سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ [إبراهيم: ١٢].

ولا شك أن الذي يشتغل بالدعوة لابد أن يعرض له شيء من الأذى من المدعوين، وهذا يتطلب من الداعية أن يوطن نفسه على الصبر وتحمل المشاق في سبيل تبليغ دين الله عز وجل وإقامة الحجة على الخلق، اقتداءً بالأنبياء والمرسلين، واثتساءً بسيد الخلق أجمعين الذي أمره ربه - جل وعلا - بالصبر على أذى قومه، ومقابلة حمقهم بالحلم والرفق، كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومراعاة الصبر والرفق في الدعوة إلى الله له الأثر البالغ في نفوس المدعوين ولا سيما في عصرنا هذا، قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «هذا العصر عصر الرفق والصبر والحكمة، وليس عصر الشدة، الناس أكثرهم في جهل، في غفلة وإيثارٍ للدنيا، فلا بد من الصبر، ولا بد من الرفق».

وإذا تأملنا الآيات المتقدمة نجد أن الناظم رحمه الله جمع فيها أموراً أربعة على الترتيب:

الأول: طلب العلم وتحصيله.

والأمر الثاني: العمل به.

والأمر الثالث: الدعوة إليه.

والأمر الرابع: الصبر على الأذى فيه.

وقد جمعت هذه الأمور الأربعة في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ

لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾
[العصر: ١ - ٣].

وجعلها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في رسالة بعنوان «المسائل الأربعة»، واستدل لها بسورة العصر، وقد جاء عن الشافعي رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قال: «لو فُكِّرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ في سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ لَكَفَّتْهُمْ»^(١).

* ثُمَّ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٨٥- لَوَاحِدٌ بِكَ يَهْدِيهِ الْإِلَهُ لَذَا خَيْرٌ غَدًا لَكَ مِنْ حُمْرٍ مِنَ النَّعَمِ
جاء في «الصَّحِيحِينَ»^(٢) عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».
أي: خيرٌ لك من الإبل الحُمْر، وهي أنفسُ أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشئ.

وفي الحديث فضيلة الدَّعوة إلى الله، وفضيلة من اهتدى على يديه رجلٌ واحدٌ.

* ثُمَّ خَتَمَ هَذِهِ النُّبْذَةَ بِقَوْلِهِ:

٨٦- وَاسْأَلْكَ سِوَاءَ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَعْدِلْ وَقُلْ رَبِّي الرَّحْمَنُ وَاسْتَقِمِ

(١) أورده ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦) وله تعليق نفيس عليه، فليراجع.

(٢) رواه البخاري برقم (٢٩٤٢)، ومسلم برقم (٢٤٠٦).

«وأسلك سَوَاءَ الصِّرَاطِ»؛ أي الزَم صراط الله المستقيم، ولا تَمَلْ عنه يميناً ولا شمالاً، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِئِذَا لَعَلَّكُمْ تُنْفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وفي سورة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١).

«وَقُلْ رَبِّي الرَّحْمَنُ وَاسْتَقِيمْ»؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢) نحن أولياؤكم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣) تَرْزُلُونَ مِنْ عَفْوَِرٍ رَجِيمٍ ﴿ [فصلت: ٣٠ - ٣٢]، وفي وصية النبي ﷺ لسفيان بن عبد الله الثقفي رحمته الله قال: قلت: يا رسول الله! حدثني بأمر أعتصم به، قال: «قُلْ رَبِّي اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ» رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه، وصححه - أيضاً - ابن حبان والحاكم (١).

وهي وصية عظيمة جامعة، جمعت الدين كله والخير أجمعه، بها ختم الناظم رحمته الله هذه النبذة الطيبة المباركة في الوصية لطالب العلم.

* * *

(١) «جامع الترمذي» برقم (٢٤١٠)، و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٩٧٢)، و«صحيح ابن حبان» برقم (٥٦٩٨)، و«المستدرک» (٤ / ٣٤٩).

الوصية بكتاب الله ﷻ

عقد ﷻ هذا العنوان لبيان مكانة كتاب الله ﷻ وعظيم شأنه، وعلو منزلته، ومكانة تدبره، ومعرفة أحكامه، والعمل بمحكمه، والإيمان بمتشابهه، وذكر - أيضاً - فضائل كثيرة لتلاوته وتدبره إلى غير ذلك من الوصايا العظيمة المتعلقة بكتاب الله - جلّ وعلا -.

* وبدأ ﷻ ذلك بقوله:

٨٧- وَبِالتَّذَبُّرِ وَالتَّرْتِيلِ فَاتْلُ كِتَابَ اللَّهِ لَا سِيَّامًا فِي حِنْدِسِ الظُّلَمِ

الجارّ والمجرور في قوله: «وبالتدبر والتّرتيل» متعلّق بقوله: «فاتل كتاب الله»؛ أي اتل كتاب الله بالتدبر والتّرتيل؛ والله - جلّ وعلا - أمر بتدبر كتابه في مواضع من القرآن، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَبُّوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَا يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَذَبُّوا عَنْ يَدَيْهِ وَلِيَذَكَّرَ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ [ص: ٢٩].

فهذه آيات فيها الحثُّ على تدبُّر كتاب الله - جلَّ وعلا -، والتدبُّر يكون بالتأمُّل للمعاني والتفكُّر في الدلالات وعقلٍ مراد الله - سبحانه وتعالى - بحيث يكون حظُّ العبد من القرآن التلاوة للحروف والفهم للمعاني والدلالات ولا يكون حظُّه منه مجرد إقامة حروفه.

وقوله ﷻ: «والترتيل»؛ الترتيل: هو القراءة بتمهُّل، كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، أي اقرأه بتمهُّل؛ فإنَّه يكون عونًا لك على فهمه وتدبُّره.

وهناك فرقٌ بين من يقرأ السُّورة وهو يريد أن يعقل خطابَ الله - سبحانه وتعالى - له فيها، وبين من يقرأها وهو يريد أن ينتهي منها وأن يفرغ من قراءتها.

وبدأ النَّاطم ﷻ بالحثُّ على تلاوة القرآن بالتدبُّر والترتيل موافقةً للآيات الكثيرة في كتاب الله ﷻ والأحاديث العديدة في سنَّة النَّبيِّ - صلوات الله وسلامه عليه - التي جاء فيها الحثُّ على العناية بالقرآن قراءةً وترتيلًا وتدبُّرًا كقوله - جلَّ وعلا -: ﴿وَأَنذِرْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقوله - جلَّ وعلا -: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَتَّى تَلَوتِهِمْ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقوله - جلَّ وعلا -: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقوله - جلَّ وعلا -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وجاء في السُّنَّة أحاديث عديدة في الحثُّ على قراءة القرآن وتلاوته وترتيله وتدبره وفضل ذلك، منها قوله - عليه الصَّلاة والسَّلام -: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأُتْرَجَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ» متَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

وقوله - عليه الصَّلاة والسَّلام - للصَّحابة: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ - أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ - فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ (الكَوْمَاءُ: النَّاقَةُ الْعَظِيمَةُ السَّنَام) فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، فقالوا: يا رسول الله! نحُبُّ ذلك، قال: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمَنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ؟» رواه مسلم من حديث عقبة بن عامر ^(٢).

وقوله ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَقَّتْ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» رواه مسلم من حديث أبي هريرة ^(٣).

وقوله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الْمَ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ «أَلِفٌ» حَرْفٌ، و«لَامٌ» حَرْفٌ، و«مِيمٌ» حَرْفٌ»، رواه الترمذي ^(٤) من حديث ابن مسعود، وصحَّحه.

(١) رواه البخاري برقم (٥٤٢٧)، ومسلم برقم (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٩).

(٤) برقم (٢٩١٠).

وقول الناظم رَحِمَهُ اللهُ: «لَا سِيَّأَ فِي حِنْدَسِ الظُّلَمِ»؛ «حِنْدَس» - بالكسر -:
الليل المظلم، أي خاصّة في هذا الوقت المبارك.

يقول النووي رَحِمَهُ اللهُ في «التبيين في آداب حملة القرآن»^(١): «فصل: في الأوقات
المختارة للقراءة، اعلم أن أفضل القراءة ما كان في الصلوة، وأمّا القراءة في غير
الصلوة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير من الليل أفضل من النصف الأول».

* ثم قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٨٨- حَكَمَ بَرَاهِينُهُ وَاعْمَلْ بِمُحْكَمِهِ حِلًّا وَحَظْرًا وَمَا قَدْ حَدَّهُ أَقِم

«حَكَمَ بَرَاهِينُهُ»؛ أي حُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ، والمعنى: احتكم إليه وليكن المعول
عليه، فيما تأتي وتذر وفي جميع شؤونك.

«وَاعْمَلْ بِمُحْكَمِهِ»؛ المراد بـ«المحكم»؛ أي اليقين الواضح الدلالة، قال

تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾
[آل عمران: ٧].

«حِلًّا وَحَظْرًا»؛ أي في الحلال والحرام؛ لأنَّ «الحظر»: المنع، فكن عاملاً

بمحكم القرآن في الحلال والحرام، وفي الإباحة والمنع.

«وَمَا قَدْ حَدَّهُ أَقِم»؛ أي أقم حدود القرآن، لا تكن إقامة القرآن

للحروف فقط، بل أقم حروفه، وأقم - أيضاً - حدوده؛ بالالتزام بما في القرآن
والانتهاء عما نهى عنه.

(١) ص (٧٥).

روى عبد الرزاق في «مصنّفه»^(١) عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِنَتَذَرُوا إِلَيْهِمْ وَلِنَتَذَكَّرَ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾، قال: «وما تدبّر آياته إلّا اتّباعه بعمله، والله! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده؛ حتّى إنّ أحدهم ليقول: والله! لقد قرأت القرآن كلّهُ وما أسقطُ منه حرفاً واحداً، وقد أسقطه كلّهُ؛ ما ترى له في القرآن من خلق ولا عمل، وحتّى إنّ أحدهم ليقول: والله! إنّّي لأقرأ السّورة في نفسٍ واحدٍ، والله! ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتى كان القراء يقولون مثل هذا؟! لا كثر الله في المسلمين من هؤلاء». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

❖ ثمّ قال رَحِمَهُ اللهُ:

٨٩- واطْلُبْ مَعَانِيهِ^(٢) بِالنَّقْلِ الصَّرِيحِ وَلَا تَخْضُ بِرَأْيِكَ وَاحْذَرْ بَطْشَ مُنْتَقِمٍ
أي: ابحث عن معاني القرآن ودلالاته بالنقل الصريح، والقرآن يفسّر بعضه بعضاً، والسّنة شارحة للقرآن ومفسّرة له.

وهذه طريقة أهل العلم في تفسير القرآن؛ يفسّرون القرآن بالقرآن، ويفسّرون القرآن بالأحاديث الصّحاح عن رسول الله ﷺ، ويفسّرون القرآن بالمنقول عن الصّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ شَهِدُوا التَّنْزِيلَ، وأكرمهم الله ﷻ بالتّلقي والأخذ مباشرة عن رسول الله ﷺ.

(١) (٣/٣٦٣).

(٢) بإسكان الياء مراعاة للوزن العروضي.

«ولا تخُضْ برَأْيِكَ»؛ أي لا تُعمل رأْيَكَ المجرَّد في كتاب الله ﷻ، ولا تقل فيه بالرأْي، وإنما يكون رأْيكَ مبنياً على النقل الصريح.

وحذَّرَ رَحْمَةُ اللهِ مِنْ الخوض في القرآن بالرأْي أشدَّ التحذير؛ فقال: «واحدُ رَطَشٍ مُنتَقِمٍ»؛ أي احذر بطش الله ﷻ وعقوبته من أن تقول في كتابه - سبحانه وتعالى - بغير علم، قال الله - جلَّ وعلا -: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِمْ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يُوْحَدْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ولهذا كان الصَّحابة، ومن اتَّبَعَهُم بإحسان في تمام الورع وكمالهِ من الخوض في كتاب الله ﷻ بالرأْي المجرَّد أو بالظُّنون.

روى ابن أبي شيبة في «المصنَّف»^(١) عن أبي بكر الصِّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَكَهْمُهُ وَأَبَا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: «أَيُّ سَمَاءٍ تَظَلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقَلِّنِي؟! إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ».

والنُّقول عنهم في هذا المعنى كثيرة.

* قال رَحْمَةُ اللهِ:

٩٠- فَمَا عَلِمْتَ بِمَحْضِ النَّقْلِ مِنْهُ فَقُلْ وَكُلِّ إِلَى اللَّهِ مَعْنَى كُلِّ مَنْبِهِم

(١) (١٣٦/٦).

أي: ما اتَّضح لك معناه، واتَّضح لك مقصوده، ومراده بـ«النَّقل»؛ أي باعتمادك في ذلك على النَّقل وتعويلك عليه؛ فقل المعنى كذا وكذا استناداً إلى النَّقل الذي أبان لك المراد ووضَّح لك المقصود، وهذه طريقة أهل العلم في ما يشتهه عليهم من آي القرآن، يردُّون المشتبهات إلى الآيات المحكمات، والله أمر بذلك فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، وصف المحكمات بأنَّهنَّ أُمُّ الكتاب.

«وَكُلُّ إِلَى اللَّهِ مَعْنَى كُلِّ مُنْبِهِم»؛ أي الذي يكون معناه منبهماً، أي خفياً ومشتبهاً عليك، فكل معناه إلى الله، أي فوض معناه إلى الله، قائلاً: الله أعلم بمعناه. وجاء في «الصَّحيحين»^(١) عن مسروق قال: كنَّا عند عبد الله بن مسعود جلوساً وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرَّحمن! إنَّ قاصّاً عند أبواب كِنْدَةَ يقصُّ ويزعم أنَّ آية الدُّخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفَّار، ويأخذ المؤمنون منه كهَيْئَةِ الزُّكام؟ فقال عبد الله - وجلس وهو غضبان -: يا أيُّهَا النَّاسُ! اتَّقُوا اللَّهَ؛ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئاً فليقلِّ بما يعلم، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: الله أعلم، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وقد مرَّ معنا قول ابن عمر رضي الله عنهما: «العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدري»^(٢).

(١) رواه البخاري برقم (٤٧٧٤)، ومسلم برقم (٢٧٩٨).

(٢) ص (١٠٤).

* قال ﷺ:

٩١- ثُمَّ الْمَرَا فِيهِ كُفْرٌ فَاحْذَرْنَهُ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكَ أَقْوَامٌ بِزَيِّغِهِمْ

«ثُمَّ الْمَرَا فِيهِ»؛ أي في القرآن، والمراد بـ«المراء»؛ أي الجدل والخصومة المفضية إلى الشك والتكذيب، واعتقاد الباطل.

«كفرٌ»؛ يشير إلى ما رواه الإمام أحمد - وصححه ابن حبان - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، الْمَرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»^(١).

وقوله - عليه الصلاة والسلام -: «وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»، فيه شاهد لقول الناظم ﷺ الذي مرَّ آنفاً: «وَكُلُّ إِلَى اللَّهِ مَعْنَى كُلِّ مُنْبِهِمْ».

وروى أبو داود الطيالسي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «لَا تُجَادِلُوا فِي الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ جِدَالَ فِيهِ كُفْرٌ»^(٢).

«فاحْذَرْنَهُ»؛ أي كن من ذلك على حذرٍ، وإياك أن تقع في شيء من المراء في كتاب الله ﷻ! لأن ذلك يُفضي إلى التكذيب والشك والكفر بالله ﷻ ويكتابه.

(١) «المسند» برقم (٧٩٨٩)، و«صحيح ابن حبان» برقم (٧٤)؛ وصحَّح إسناده الألباني في «الصَّحِيحَة» (٢٦/٤).

(٢) «مسند الطيالسي» برقم (٢٢٨٦)؛ وصحَّح إسناده الألباني في «الصَّحِيحَة» برقم (٢٤١٩).

«ولا يَسْتَهْوِيَنَّ أَقْوَامٌ بِزَيِّعِهِمْ»؛ كثيرًا ما يعمل أهل الزَّيغ على فتنِ النَّاسِ؛ بتزيين ما عندهم من زيغ وضلال بزخرفة القول، فيفتنون ضعاف الإيمان وقليلي العلم، ولهذا حذّر من أن يُفتن العبدُ بها عند هؤلاء.

✽ ثم قال رحمه الله:

٩٢- وعن مناهيه كُنْ يا صاحٍ مُنْزَجِرًا والأمر منه بلا تردادٍ^(١) فالتزم

أي: كن كافيًا وممتنعًا عن جميع ما نهاك الله عنه في القرآن الكريم، «والأمر منه بلا ترداد فالتزم»؛ أي افعل ذلك وحافظ عليه ولازمه، «والأمر» مفعول «فالتزم». فجمع في هذا البيت بين الحث على فعل الأوامر وترك النواهي، قال ابن مسعود رحمته: «إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرَعَهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ»^(٢).

(١) لم تصرف مراعاة للوزن العروضي.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/١٩٦).

بهذه المناسبة أذكر شابًا صغيرًا درّسته قبل قرابة عشرين سنة، لما كان في المرحلة المتوسطة، وكان حافظًا لكتاب الله - جلّ وعلا - فجاءني يومًا بأوراق مكتوب عليها الأوامر والنواهي في القرآن فقال لي: هذه أشياء جمعتها أرغب أن تطلع عليها وهو في الصفّ الثاني متوسط، فقلت له: ما زلت صغيرًا الآن على التأليف، قال: لا، أنا لا أوّلّف، ولكن الله عزّ وجلّ أكرمني بحفظ القرآن، ويمرّ عليّ في القرآن أوامر كثيرة ونواهي كثيرة، الله يخاطبني بها فأردت أن أعقل عن الله عزّ وجلّ ما يأمرني به وما ينهاني عنه، فكان كلما مرّ عليه أمرٌ أو نهْيٌ في القرآن قيّده، ثم يرجع إلى «تفسير ابن كثير» و«تفسير ابن السّدي»، وينقل المعنى حتّى اجتمع له ملزمة كبيرة جدًّا في فقه الأوامر والنواهي في كتاب الله جلّ وعلا.

* قال رحمه الله:

٩٣- وما تشابه فَوْضٌ لِلإلهِ وَلَا تَخُضُ فَخَوْضُكَ فِيهِ مُوجِبُ النَّقْمِ

هنا يبيّن المنهج السديد فيما تشابه من آي القرآن، والله عز وجل قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فالقرآن فيه آيات متشابهات، والمتشابه هنا يُقابل المحكم، والمحكم: هو الواضح المعنى، الظاهر الدلالة، والمتشابه: هو الذي يشبه المعنى فيه، ولا تظهر الدلالة.

وهذا التشابه هو في الحقيقة تشابه نسبي وليس مطلقاً؛ لأنّه ليس في القرآن آيات لا يفهم معناها مطلقاً، فالله خاطبنا بكلام عربيّ مبين، ليس فيه آيات متشابهة تشابهاً مطلقاً، أي يخفى معناها وفهمها على كلّ أحد.

يقول مجاهد رحمه الله: «عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاث عَرَاضَاتٍ من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كلّ آية وأسأله عنها»^(١).

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: «التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يُعذر أحدٌ في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الرّاسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلّا الله».

ذكره ابن كثير في «تفسيره»^(٢)، ثمّ قال: ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبي الشعثاء وأبي نهيك وغيرهم.

ومراد ابن عباس رضي الله عنهما بـ«التفسير الذي يعلمه الرّاسخون»؛ هو تفسير

(١) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» برقم (٤٣٣٧)، والدّارمي برقم (١١٢٠)، وغيرهما.
(٢) (١٠/٢).

المتشابه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

فالرَّاسِخُونَ في العلم يعلمون معنى المتشابه الذي يخفى معناه على كثير من النَّاسِ بما آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ من بصيرة وفهم لكلام الله - سبحانه وتعالى -، وردُّ للمتشابه منه إلى المحكم.

وأما التفسير الذي لا يعلمه إِلَّا الله هو حقائق صفات الله عَزَّوَجَلَّ وحقائق اليوم الآخر وغير ذلك ممَّا ذُكر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وذُكر في سُنَّة نبيِّه - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - وعُرف معناه ودلالته وخفي كنهه وحقيقته، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدُّنيا من الجنة شيء إِلَّا الأسماء»^(١)، فنعقل المعاني ونفهم الدَّلالات؛ لكن الكُنْه والحقيقة الله - سبحانه وتعالى - أعلم به.

* قال رحمته الله:

٩٤- وَلَا تُطِيعْ قَوْلَ ذِي زَيْغٍ يُزَخِّرُهُ مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ فِي الدِّينِ مُتَّبِعِهِمْ
٩٥- حَيْرَانَ ضَلَّ عَنْ الْحَقِّ الْمُبِينِ فَلَا يَنْفَكُ مِنْ حَرْفٍ مُعْجَجٍ^(٢) لَمْ يَقُمْ

يحذِّر رحمته الله في هذين البيتين من سُبُل أهل الأهواء وطرائق الهالكين وأهل الزَّيغ والضَّلال، ويحذِّر من الإصغاء والسَّماع إليهم، فقال:

(١) رواه ابن جرير الطَّبْرِي في «تفسيره» برقم (٥٣٥ - ط. أحمد شاكر).

(٢) لم تصرف مراعاة للوزن.

«ولا تُطع قولَ ذي زُيغٍ يُزخرفُهُ»؛ فمن عادة أهل الزُيغ زخرفة ما عندهم من باطل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وجاء في «الصَّحَّاحِينَ» عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»^(١).

وقوله: «مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ فِي الدِّينِ مُتَّبِعٍ»؛ أي احذر صاحبَ الزُّيغ من أهل البدع والأهواء مَنْ هو مُتَّبِعٌ في دينه بفسادٍ في العقيدة أو انحلالٍ في الفكر.

«حَيْرَانَ ضَلَّ عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ»؛ يصفُ حال هؤلاء الزَّائِغِينَ المبتدعة المَتَّهِمِينَ في الدِّينِ، وما أكثر ما تستولي هذه الحيرةُ على أهل الباطل، وسيأتي لاحقاً ذكر شيء من شهادة هؤلاء على أنفسهم بالحيرة والشك^(٢).

قال: «فَلَا يَنْفَكُ مُنْحَرِفًا مُعَوَّجًا»؛ أي يكون بهذه الحال دائماً وأبداً منحرفاً عن صراط الله المستقيم، معوجاً عن الجادة السَّوِيَّة.

وقوله: «مُعَوَّجٌ» خبر كان، وحذف التَّنْوِين لضرورة الشعر.

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٤٧)، ومسلم برقم (٢٦٦٥).

(٢) انظر: (ص ١٩٥-١٩٦).

«لَمْ يَقُمْ»؛ أي لم يستقم على صراط الله - جَلَّ وعلا -، بل ينحرف عنه
يميناً وشمالاً.

ثم ساق أبياتا في فضل كتاب الله ﷻ وبيان عظم شأنه، قال:

٩٦- هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي مَنْ قَامَ يَقْرُؤُهُ كَأَنَّا خَاطَبَ الرَّحْمَنَ بِالْكَلِمِ

أي كأن الذي يقرأ كلام الله ويرتله خاطب الرحمن بالكلم؛ لأن القرآن كله
تعظيم لله ومناجاة له، وثناء عليه وتمجيد، واعتبر هذا في أم القرآن فاتحة الكتاب
المشتملة إجمالاً على ما اشتمل عليه القرآن تفصيلاً، وما تضمنته من مناجاة وثناء
على الله سبحانه وتعالى؛ روى مسلم في «صحيحه»^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،
قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي
نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي،
وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ قَالَ: مَجْدِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي -
فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا
سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٠ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ؛ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

٩٧- هُوَ الصِّرَاطُ هُوَ الْحَبْلُ الْمَتِينُ هُوَ الْـ مِيزَانُ وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى لِمُعْتَصِمٍ

(١) رقم (٣٩٥).

«هو الصَّراط»؛ أي الصَّراط المستقيم الَّذي يُفضي بصاحبه إلى جنَّات النِّعيم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

«هو الحبل المتين»؛ الَّذي من تمسَّك به واعتصم به نجا وهُدِيَ إلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

«هو الميزان»؛ أي الَّذي عليه المعوّل وإليه الاحتكام: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، والرُّدُّ إلى الله: الرُّدُّ إلى كتابه، والرُّدُّ إلى الرِّسول ﷺ: الرُّدُّ إلى سُنَّته.

«والعروة الوثقى»؛ كما قال - جلَّ وعلا -: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

«لمعتصم»؛ فمن أراد لنفسه خيرَ مُعتصمٍ وخيرَ مُتمسِّكٍ؛ فليتمسَّك بكتاب الله - جلَّ وعلا -، فهو الصَّراط المستقيم، والحبل المتين، والميزان القويم، والعروة الوثقى.

❖ قال ﷺ:

٩٨- هُوَ الْبَيَانُ هُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ هُوَ التَّ - تَفْصِيلٌ فَاقْنَعْ بِهِ فِي كُلِّ مُنْبِهِم

«هو البيان»؛ أي الإيضاح، قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

«هو الذِّكر الحكيم»؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]،

وقال: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

«هو التفصيل»؛ قال - جلّ وعلا -: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ [يونس: ٣٧]، وقال - جلّ وعلا -: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

«فاقنع به في كلّ منبهم»؛ أي كلّ أمرٍ خفيّ عليك من المعاني.

٩٩- هو البصائر والذكرى المُذكر هو المواعظ والبُشرى لِغَيْرِ عَمِي

«هو البصائر»؛ كما قال الله ﷻ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

«والذكرى المُذكر»؛ كما قال - جلّ وعلا -: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال - جلّ وعلا -: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

«هو المواعظ» كما قال - جلّ وعلا -: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال - جلّ وعلا -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ فُكْمٌ مَّوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال - جلّ وعلا -: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

«والبُشرى لِغَيْرِ عَمِي»؛ قال - جلّ وعلا -: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ

فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿البقرة: ٩٧﴾، وقال - جلَّ وعلا -: ﴿وَمَنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]. وقوله: «لِغَيْرِ عَمِّي»؛ أي لغير عمِّي عن الحق؛ لأنه لا يتنفع من بصائر القرآن وما فيه من الذكرى والمواعظ وما فيه من البشارات، فَمَنْ كان عن الحق عميًّا؛ فإنه لا يتنفع من ذلك ولا يستفيد.

* قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٠٠- هُوَ الْمُنْزَلُ نُورًا بَيِّنًا وَهُدًى وَهُوَ الشِّفَاءُ لِمَا فِي الْقَلْبِ مِنْ سَقَمٍ «هو المنزل نورًا بيِّنًا»؛ وصف القرآن بأنه نورٌ مبين، أي نورٌ بيِّن واضح، كما قال الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، قال - جلَّ وعلا -: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

«وهُدًى»؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال - جلَّ وعلا -: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وقوله: «وَهُوَ الشِّفَاءُ لِمَا فِي الْقَلْبِ مِنْ سَقَمٍ»؛ أي أنه شفاءٌ لأمراض القلوب، قال - جلَّ وعلا -: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا

فِي الصُّدُورِ وَهَدَىٰ رَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ [يونس: ٥٧]، وقال - جَلَّ وعلا -: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

* ثُمَّ قَالَ رَحْمَةُ اللَّهِ:

١٠١- لِكِنَّةٍ لِأُولِي الْإِيمَانِ إِذْ عَمِلُوا بِمَا آتَىٰ فِيهِ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكْمٍ
«لِكِنَّةٍ لِأُولِي الْإِيمَانِ إِذْ عَمِلُوا»؛ أي أَنَّ القرآن شفاءٌ لِأُولِي الْإِيمَانِ إِذَا
عَمِلُوا بِمَا آتَىٰ فِيهِ مِنْ عِلْمٍ، وَمِنْ حِكْمٍ، وَهَذَا فِيهِ التَّنْبِيهُ أَنَّ الْإِسْتِشْفَاءَ بِالْقُرْآنِ،
وَتَحْصِيلَ بَرَكَاتِ الْقُرْآنِ وَخَيْرَاتِهِ لَا يَنَالُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يَنَالُهُ أُولُوا الْإِيمَانِ
الَّذِينَ عَمِلُوا بِالْقُرْآنِ، فَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَفُوزُونَ بِبَرَكَاتِ الْقُرْآنِ وَخَيْرَاتِهِ وَمَا فِيهِ
مِنَ الشِّفَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال - جَلَّ وعلا -: ﴿قُلْ هُوَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

* قَالَ رَحْمَةُ اللَّهِ:

١٠٢- أَمَّا عَلَىٰ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْهُ فَهُوَ عَمَىٰ لِكَوْنِهِ عَنْ هُدَاهُ الْمُسْتَنِيرِ عَمَىٰ
«أَمَّا عَلَىٰ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْهُ فَهُوَ عَمَىٰ»؛ يَشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَىٰ﴾ [فصلت: ٤٤].

«لِكَوْنِهِ عَنْ هُدَاهُ الْمُسْتَنِيرِ عَمَىٰ»؛ أي عَنْ الْحَقِّ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ عَمَىٰ، فَلَمْ

يُبصر ما في القرآن من حقٍّ وهدى، فهذا لا يستفيد ولا ينتفع بما جاء في كتاب الله ﷻ من شفاء وخير وبركة.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

١٠٣ - فَمَنْ يُقِمُّهُ يَكُنْ يَوْمَ الْمَعَادِ لَهُ خَيْرُ الْإِمَامِ إِلَى الْفِرْدَوْسِ وَالنَّعِيمِ

أي: مَنْ يُقِمِ الْقُرْآنَ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ يَرْفَعَهُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِالْقُرْآنِ، وَيَكُونُ لَهُ يَوْمَ الْمَعَادِ إِمَامًا وَقَائِدًا لَهُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

١٠٤ - كَمَا يَسُوقُ أُولِيَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ إِلَى دَارِ الْمَقَامِ وَالْأَنْكَالِ وَالْأَلَمِ

كما قال - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ﴾ [الزُّمَر: ٧١]، وقال - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، وقال - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وجاء عن جابر رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُّشَفَّعٌ، وَمَا حِلٌّ مُّصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ»، رواه ابن حَبَّانَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ^(١)، ويروى مثله من قول ابن مسعود رضي الله عنه^(١).

(١) «صحيح ابن حَبَّانَ» برقم (١٢٤)، وانظر: «السُّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» رقم (٢٠١٩).

ويروى بمعناه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَائِنٌ لَكُمْ ذِكْرٌ، وَكَائِنٌ لَكُمْ أَجْرًا، أَوْ كَائِنٌ عَلَيْكُمْ وَزَرًا؛ فَاتَّبِعُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَتَّبِعْكُمْ الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعِ الْقُرْآنَ يَهْبِطَ بِهِ عَلَى رِیَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ يَتَّبِعْهُ الْقُرْآنُ يَزُحُّ فِي قَفَاهُ فَيَقْذِفُهُ فِي جَهَنَّمَ»^(٢)، وقوله: «يَزُحُّ» أي يدفع.

* قال رحمته الله:

١٠٥- وَقَدْ آتَى النَّصُّ فِي الطُّوَلَيْنِ أَمَّهُمَا ظِلًّا^(٣) لِتَالِيَيْهِمَا فِي مَوْقِفِ الْغَمِّ

قوله: «أَمَّهُمَا»؛ أي البقرة وآل عمران، وقوله: «الْغَمِّ»؛ من الغمة وهي الشدة. يشير إلى ما في «صحيح مسلم»^(٤) عن النّوّاس بن سَمْعَانَ الْكَلَابِي رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ»، وَضَرَبَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظِلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ (أي ضياء ونور)، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِرْقَانِ (الحرق: الجماعة) مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ (أي بَاسِطَاتٍ أَجْنَحَتَهُمَا فِي الطَّيْرَانِ)، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا».

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنّفه» (٣/ ٣٧٢)، وابن أبي شيبة في «مصنّفه» (٦/ ١٣١) من طريقين عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦)، والدارمي برقم (٣٣٢٨)، وفي إسناده أبو كنانة هو القرشي، وهو مجهول كما في «التقريب».

(٣) مثنى ظل، والأصل ظِلَّانِ وحُذِفَتِ التَّوْنُ لِلزُّرُورَةِ، ولهذا نظائر. انظر: «مغني اللبيب» (ص ٩١٧)، و«خزانة الأدب» (٣/ ٣٥٦).

(٤) برقم (٨٠٥).

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

- ١٠٦- وَأَنَّهُ فِي غَدٍ يَأْتِي لِصَاحِبِهِ مُبَشِّرًا وَحَاجِبًا عَنْهُ إِنْ يَقُمْ
١٠٧- وَالْمُلْكَ وَالْخُلْدَ يُعْطِيهِ وَيُلْبِسُهُ تَاجَ الْوَقَارِ إِلَهُ الْحَقِّ ذُو الْكَرَمِ
١٠٨- يُقَالُ اقْرَأْ وَرَتِّلْ وَارْقَ فِي غُرْفِ الْ- جَنَاتِ كَيْ تَنْتَهِيَ^(١) لِلْمَنْزِلِ النَّعِيمِ
١٠٩- وَحُلَّتَانِ مِنَ الْفِرْدَوْسِ قَدْ كُسِبَتْ لِوَالِدَيْهِ لَهَا الْأَكْوَانُ لَمْ تَقُمْ
١١٠- قَالَا بِمَاذَا كُسِبَتْ فَقِيلَ بِمَا أَقْرَأْتُمَا ابْنُكُمَا فَاشْكُرْ لِذِي النَّعِيمِ

قوله: «إِنْ يَقُمْ»؛ أي إِنْ يَقُمْ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عِلْمًا وَعَمَلًا.

وقوله: «وَالْمُلْكَ وَالْخُلْدَ يُعْطِيهِ» أي: يعطيه الملك بيمينه والخلد بشماله، وهاتان النعمتان هما جماع نعيم الآخرة.

وقوله: «وَيُلْبِسُهُ تَاجَ الْوَقَارِ» في «النهاية»: التَّاجُ مَا يُصَاغُ لِلْمُلُوكِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ.

وهذه الأبيات الخمسة يشير فيها الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى مَا جَاءَ عَنْ بَرِيدَةَ ابْنِ الْحَصِيبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»، قَالَ: ثُمَّ مَكَثَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظَلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ

(١) بِإِسْكَانِ الْيَاءِ مِرَاعَاةً لِلْوُزْنِ الْعَرُوضِيِّ.

لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ! فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ! فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمَلِكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا؛ قَالَ: فَيَقُولَانِ: بِمَ كُتِبْنَا هَذِهِ؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعِدْ فِي دَرَجَةِ الْجَنَّةِ، وَغَرَفَهَا فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذَا كَانَ أَوْ تَرْتِيلاً، رواه الإمام أحمد^(١)، وحسنه البغوي في «شرح السنة»^(٢)، وابن كثير في تفسير سورة البقرة، وفي سنده مقال؛ لكن له شاهد من حديث أبي أمامة، وآخر من حديث أبي هريرة، ولذلك أورده الألباني في «السلسلة الصحيحة»^(٣).

* ثُمَّ قَالَ ﷺ:

١١١- كَفَى وَحْسُبُكَ بِالْقُرْآنِ مُعْجِزَةً دَامَتْ لَدَيْنَا دَوَامًا غَيْرَ مُنْصَرِمٍ

١١٢- لَمْ يَعْزَرَهُ قَطُّ تَبْدِيلٌ وَلَا غَيْرٌ وَجَلَّ فِي كَثَرَةِ التَّرْدَادِ عَنْ سَامٍ

قوله: «وحسبك»؛ وهي بمعنى يكفيك، «بالقرآن معجزة»؛ أي يكفيك

معجزة كتاب الله ﷻ، فهو أعظم معجزة، «غير منصرم» أي غير منقطع، فهو

معجزة دائمة مستمرة.

(١) «المسند» (٢٢٩٥٠).

(٢) (٤/٤٥٤) حديث رقم (١١٩٠).

(٣) رقم (٢٨٢٩).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ»^(١): «وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُ
مُعْجَزَاتِ هَذَيْنِ الرَّسُولَيْنِ (يَعْنِي مُوسَى وَعِيسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَام -) مَعَ بُعْدِ
العَهْدِ وَتَشْتُّ شَمْلِ أُمَّتَيْهِمَا فِي الْأَرْضِ وَانْقِطَاعِ مُعْجَزَاتِهِمَا، فَمَا الظَّنُّ بِنُبُوَّةِ مَنْ
مُعْجَزَاتُهُ وَأَيَاتُهُ تَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ، وَالْعَهْدُ بِهَا قَرِيبٌ، وَنَاقِلُوهَا أَصْدَقُ الْخَلْقِ
وَأَبْرُهُمْ، وَنَقْلُهَا ثَابِتٌ بِالتَّوَاتُرِ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَأَعْظَمُهَا مُعْجَزَةٌ كِتَابٌ بَاقٍ غَضٌّ
طَرِيٌّ لَمْ يَتَغَيَّرْ وَلَمْ يَتَبَدَّلْ مِنْهُ شَيْءٌ، بَلْ كَأَنَّهُ مَنَزَّلُ الْآنَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَمَا
أَخْبَرَ بِهِ يَقَعُ كُلُّ وَقْتٍ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ كَأَنَّهُ كَانَ يَشَاهِدُهُ عِيَانًا».

قوله: «وَلَا غَيْرُ»؛ أَيِ تَغْيِيرٍ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «التَّبْيَانُ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ»^(٢): «فَاللَّهُ
- سُبْحَانَهُ - حَفَظَهُ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ وَالتَّبْدِيلِ، وَحَفَظَ مَعَانِيَهُ مِنَ التَّحْرِيفِ
كَمَا حَفَظَ أَلْفَاظَهُ مِنَ التَّبْدِيلِ، وَأَقَامَ لَهُ مِنْ يَحْفَظُ حُرُوفَهُ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ،
وَمَعَانِيَهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ».

وقوله: «وَجَلَّ فِي كَثْرَةِ التَّرْدَادِ عَنْ سَامٍ»؛ أَيِ أَنَّ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَكْرُرُ
تِلَاوَتَهُ لَا يَسَامُ وَلَا يَمَلُّ مَعَ كَثْرَةِ تَرْدَادِهِ وَتَكَرُّرِهِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ»^(٣) وَغَيْرِهِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ

(١) (٣٤٧/٢).

(٢) «التَّبْيَانُ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ» (١٠٠/٢).

(٣) بِرَقْمِ (٢٩٠٦).

رسول الله ﷺ يقول: «أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةً»، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟! قال: «كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجَنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ① يَهْدِي إِلَى أَرْشَدٍ [الجن: ١ - ٢]، مَنْ قَالَ بِهِ صُدِّقَ، وَمَنْ عَمَلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وضعفه الترمذي بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال»^(١).

ومعناه صحيح وما ذكر فيه كله حق، لكن لم يثبت عن نبينا - صلوات

الله وسلامه عليه -.

وقوله: «وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ»؛ لَهُ شَاهِدٌ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»^(٢) لِلْحَاكِمِ وَغَيْرِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَادِبَةُ اللَّهِ؛ فَاقْبُلُوا مِنْ مَادِبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ وَالنُّورُ الْمُبِينُ وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلَا يَعُوجُّ فَيَقْوَمُ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلُقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، أَتْلُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ، كُلَّ

(١) أورده الألباني رحمه الله في «السلسلة الضعيفة» برقم (٦٣٩٣).

(٢) (١/٧٤١).

حَرْفٍ عَشَرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: ﴿آلَمْ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ وَلَا مٌ وَمِيمٌ». وصَحَّحَ إسناده الحاكم، لكن تعقبه الذهبي بقوله: «إبراهيم ضعيف»؛ يعني إبراهيم بن مسلم الهجري، ولذلك أورده الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «السَّلْسَلَةِ الضَّعِيفَةِ»^(١).
* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

١١٣ - مُهِمِّنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ مُصَدِّقًا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ فِي الْقَدَمِ قوله: «مهمينًا»؛ أي له الهيمنة على الكتب التي جاءت قبله، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾، قال سفيان الثوري وغيره عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس: أي مؤتمنًا عليه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «المهمن الأمين»، قال: «القرآن أمينٌ على كل كتاب قبله»، ورواه عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد ابن كعب وعطيّة والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي وابن زيد نحو ذلك. وقال ابن جريج: «القرآن أمينٌ على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حقٌّ، وما خالفه منها فهو باطل».

وعن الوالبي عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أي شهيدًا، وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾؛ أي حاكمًا على ما قبله من الكتب.

(١) برقم (٦٨٤٢).

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى؛ فإنَّ اسم «المهيمن» يتضمَّن هذا كله، فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كلِّ كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الَّذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها». انتهى كلام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ^(١).

قوله: «عَرَبِيًّا»؛ أي كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقوله: «غَيْرَ ذِي عِوَجٍ»؛ كما قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

قوله: «مُصَدِّقًا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ»؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا آمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ. وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، وقال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٨٢).

* قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١١٤ - فِيهِ التَّفَاصِيلُ لِلْأَحْكَامِ مَعَ نَبَأٍ عَمَّا سَيَأْتِي وَعَنْ مَاضٍ مِنَ الْأُمَمِ
قوله: «فِيهِ التَّفَاصِيلُ لِلْأَحْكَامِ»؛ أي في القرآن الكريم تفاصيل أحكام
الشريعة، وبيان الحلال والحرام، وبيان الأمر والنهي، والواجب والحرام
والمستحب والمكروه، كُلُّ ذَلِكَ مَبِينٌ مُفَصَّلٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا -، كما قال
الله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال لِنَبِيِّهِ ﷺ:
﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا
نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَانُ﴾ يعني تفاصيل الشرائع والأحكام حتى جاء تبيينها بهذا الوحي الكريم
والذكر الحكيم.

قوله: «مع نبأ»؛ أي مع خبر.

قوله: «عَمَّا سَيَأْتِي وَعَنْ مَاضٍ مِنَ الْأُمَمِ»؛ أي أَنَّ الْقُرْآنَ إِضَافَةً إِلَى مَا فِيهِ
من بيان الأحكام والشرائع؛ فَإِنَّ فِيهِ أَنْبَاءَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وفيه قصص
الأولين الماضين، وأيضًا قصص مَنْ سَيَأْتِي مِنَ الْأُمَمِ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا -
- في كتابه.

وتقدّم قريبًا حديث عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه: «كَتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبْرُ
مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ»، وهذه الأمور الثلاثة جمعها الناظم في هذا البيت.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١١٥- فَاَنْظُرْ قَوَارِعَ آيَاتِ الْمَعَادِ بِهِ وَأَنْظُرْ لِمَا قَصَّ عَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمٍ

قوله: «فَاَنْظُرْ قَوَارِعَ آيَاتِ الْمَعَادِ»؛ أي فانظر، وتأمل في الآيات التي تتحدث عن المعاد، وتفاصيل يوم القيامة، وما في ذلك اليوم من أهوال وشدة وكرب، وأيضا ما يتعلق بالمعاد والبعث والنشور والجزاء والعقاب والجنة والنار. وقوله: «به»؛ أي فيه؛ لأنَّ الباء - وهي حرف جرّ - تنوب عن «في» ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ [الصافات: ١٤٥] أي في العراء، ولهذا أمثلة أخرى في القرآن.

قوله: «وَأَنْظُرْ لِمَا قَصَّ عَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمٍ»؛ أي فانظر - أيضا - في القرآن قصص الأمم العاتية كيف أحلَّ الله بهم أنواع العقوبات وصنوف المثالات، فهذا كله جاء مفصّلاً في مواضع عديدة من كتاب الله - سبحانه وتعالى -، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦ - ١٤]، وعادٌ هي إرم قبيلة معروفة كانت باليمن.

* قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١١٦- وَأَنْظُرْ بِهِ شَرْحَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ هَلْ تَرَى بِهَا مِنْ عَوِيبٍ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ

قوله: «به»؛ أي فيه - كما سبق -، والمعنى: انظر في القرآن شرح أحكام

الشريعة تجدها مبيّنة ومفصّلة على التّمام والكمال.

«هَلْ تَرَى بِهَا»؛ أي فيها «مِنْ عَوِيصٍ»؛ «العويص»: الأمر العسير، وكلامٌ عويص أي صعب، مأخوذ من العَوَص: وهو ضدُّ الإمكان واليسر.

«غير منفصم»؛ أي غير منقطع، و«الانفصام»: الانقطاع.

أي: يقول: تأمل أحكام الشريعة الواردة في القرآن؛ هل ترى فيها أحكاماً عويصة، أي صعبة عسرة، سواء في فهمها أو في العمل بها وتطبيقها، هل تجد شيئاً من ذلك، ثم لو قدر أنّ شيئاً منها أشكل على بعض الناس أو على بعض الفهوم، فهل فيها شيءٌ من الأحكام يشكل بحيث لا ينقسم الأمر، ولا يستين مطلقاً أم أنّها أحكام واضحة وأمور ميسرة؟

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١١٧- أَمْ مِنْ صَلَاحٍ وَلَمْ يَهْدِ الْأَنَامَ لَهُ أَمْ بَابِ هُلْكِ وَلَمْ يَزْجُرْ وَلَمْ يَلْمِ

«أَمْ» حرف عطف، «من صلاح» معطوفة على «من عويص».

قوله: «وَلَمْ يَهْدِ الْأَنَامَ لَهُ»؛ جاء في «القاموس»^(١): «الْأَنَامُ: الْخَلْقُ أَوِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَوْ جَمِيعُ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».

والمراد بـ«الأنام» هنا: الجنُّ والإنس؛ لأنّهم هم المعنيّون بالخطاب في

هدايات القرآن الكريم.

(١) «القاموس المحيط» للفيروز أبادي (ص ١٣٩٣).

قوله: «أَمْ بَابٍ» معطوفة على ما سبق، «هَلْكَ»؛ أي هلاك، في «القاموس»^(١):
«هَلْكَ كضَرَبَ وَمَنَعَ وَعَلِمَ، هُلْكًَا - بِالضَّمِّ -، وَهَلَاكًا».

«وَلَمْ يَزُجَّرْ»؛ أي لم يزجر الله عنه، «وَلَمْ يَلْمَ»؛ يعني فاعله، أو يزجر عن فعله.
ومعنى البيت: أي عندما تتأمل في نصوص القرآن هل ترى شيئاً فيه
مصالح للعباد ومنافع وفيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ولم يهد الأنام له؟
أو هل هناك في القرآن شيء من الأمور التي فيها هلاك ومفسدة ومضرة
على الأنام ولم يزجر عنها ويحذر منها؟

يقول شيخ الإسلام في بيان شمول الشريعة لكل خير، وهدايتها لكل
صلاح وفلاح، ونهيها عن كل شر وباطل كما في «مجموع الفتاوى»^(٢)، قال
رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَدْ أَمَرَ اللهُ الرَّسُولَ ﷺ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَنَهَى عَنْ كُلِّ مَنكَرٍ، وَأَحَلَّ كُلَّ
طَيِّبٍ وَحَرَّمَ كُلَّ خَبِيثٍ، وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ فِي «الصَّحِيحِ» أَنَّهُ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللهُ
نَبِيًّا إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ هُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ شَرٍّ مَا
يَعْلَمُهُ»^(٣)... وينبغي أن يُعْلَمَ أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ أَمَرَ اللهُ بِهَا أَمْرَ إِجْبَابٍ أَوْ
اسْتِحْبَابٍ، وَالْأَعْمَالَ الْفَاسِدَةَ نَهَى اللهُ عَنْهَا، وَالْعَمَلُ إِذَا اشْتَمَلَ عَلَى مَصْلَحَةٍ
وَمُفْسَدَةٍ؛ فَإِنَّ الشَّارِعَ حَكِيمٌ فَإِنْ غَلَبَتْ مَصْلَحَتُهُ عَلَى مَفْسَدَتِهِ شَرَعَهُ، وَإِنْ
غَلَبَتْ مَفْسَدَتُهُ عَلَى مَصْلَحَتِهِ لَمْ يَشْرَعْهُ بَلْ نَهَى عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ

(١) (ص ١٢٣٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٢٣ - ٦٢٤).

(٣) رواه مسلم برقم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ولهذا حرَّمهما الله تعالى بعد ذلك.

وهكذا ما يراه النَّاس من الأعمال مقرباً إلى الله ولم يشرعه الله ورسوله؛ فإنه لا بدَّ أن يكون ضرره أعظم من نفعه، وإلا فلو كان نفعه أعظم غالباً على ضرره لم يهمله الشارع؛ فإنه ﷺ حكيم لا يهمل مصالح الدين، ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى ربِّ العالمين.

وقال رَحِمَهُ اللهُ فِي موضع آخر^(١): «الشَّريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلَّا فجميع المحرَّمات من الشُّرك والخمر والميسر والفواحش والظُّلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد؛ لكن لما كانت مفسدٌها راجحةً على مصالحها نهى الله ورسوله عنها، كما أنَّ كثيراً من الأمور كالعبادات والجهاد، وإنفاق الأموال قد تكون مضرَّة؛ لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع».

* قال النَّازِم رَحِمَهُ اللهُ:

١١٨- أَمْ كَانَ يُغْنِي نَقِيرًا عَنْ هِدَايَتِهِ جَمِيعُ مَا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ نُظْمٍ
«أَمْ كَانَ يُغْنِي»؛ أَيضاً معطوفٌ على ما سبق، «نَقِيرًا»؛ «النَّقِير»: هي

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٦٥).

النُّقطة الَّتِي تكون على نواة التَّمر.

أي أن هذا لا يكون؛ لأنَّ شريعة الإسلام جاءت شاملةً لكلِّ خيرٍ، دالَّةً على كلِّ صلاح وفلاح، ولا يمكن أن يُستغنى عن الشَّريعة بالنُّظم الَّتِي يخترعها النَّاس ويؤسِّسونها من بنات عقولهم ونسج أفكارهم.

ومعنى البيت: هل يُغني عن هداية القرآن ولو بمقدار نقطةٍ يسيرةٍ أو قدرٍ يسيرٍ جدًّا جميعُ ما عند أهل الأرض من النُّظم الَّتِي يخترعونها ويؤسِّسونها من بنات عقولهم ونسج أفكارهم؟! الجواب: لا؛ لأنَّ شريعة الله - سبحانه وتعالى - جاءت شاملةً لكلِّ خيرٍ وفلاحٍ وسعادةٍ للنَّاس في الدُّنيا والآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في خواتيم كتابه «إعلام الموقعين»: «وهذا الأصل من أهمِّ الأصول وأنفعها، وهو مبنيٌّ على حرفٍ واحد، وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كلِّ ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنَّه لم يحوج أمته إلى أحدٍ بعده، وإنَّما حاجتهم إلى من يبلغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومٌ محفوظان لا يتطرَّق إليهما تخصيص: عمومٌ بالنسبة إلى المرسل إليهم، وعمومٌ بالنسبة إلى كلِّ ما يحتاج إليه من بُعث إليه في أصول الدِّين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامَّة، لا تُحوج إلى سواها، ولا يتمُّ الإيمان به إلَّا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحدٌ من المكلفين عن رسالته ولا يخرج نوعٌ من أنواع الحقِّ الَّذي تحتاج إليه الأمَّة في علومها وأعمالها عمَّا جاء به.

وقد توفِّي رسول الله ﷺ وما طائرٌ يقلِّب جناحيه في السَّماء إلَّا ذكر للأمَّة منه علمًا، وعلمهم كلَّ شيء حتَّى آداب التَّخلي وآداب الجماع والنَّوم والقيام

والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، والسفر والإقامة، والصمت والكلام، والعزلة والخلطة، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت، ووصف لهم العرش والكرسي والملائكة والجن والنار والجنة ويوم القيامة، وما فيه حتى كأنه رأي عين، وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأُمَّته قبله، وعرفهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما لم يعرف به نبي غيره، وكذلك عرفهم ﷺ أدلة التوحيد والثبوت والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده، اللهم إلا إلى من يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه، وكذلك عرفهم ﷺ من مكاييد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً، وكذلك عرفهم ﷺ من مكاييد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها وما يتحرزون به من كيد ومكره، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه، وكذلك عرفهم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائناتها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه، وكذلك عرفهم ﷺ من أمور معاشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة.

وبالجملة؛ فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته، ولم يوجههم الله إلى أحد

سواه، فكيف يظنُّ أنَّ شريعته الكاملة التي ما طرَّق العالمُ شريعةً أكمل منها ناقصةً تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟! ومن ظنَّ ذلك فهو كمن ظنَّ أنَّ بالنَّاس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظنَّ ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله له أصحاب نبيِّه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عمَّا سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله ﷺ خشية أن يشتغل النَّاسُ به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال النَّاس بآرائهم وزبد أفكارهم، وزُبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟! فالله المستعان^(١). اهـ

❖ ثمَّ قال الناظم رحمه الله:

١١٩ - أخبارُه عِظَةٌ أمثاله عِبْرٌ وكُلُّهُ عَجَبٌ سُخْقا لِذي صَمَمٍ
«أخباره»؛ أي أخبار القرآن، «عِظَةٌ»؛ أي فيها عظة للمتَّعِظ، قال - جلَّ
وعلا -: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]،
وقال - جلَّ وعلا -: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧]،
ومن يطالع قصص القرآن يجد فيها العِظَة والعِبرَة: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

«أمثاله عِبْرٌ»؛ أي للمعتبرين أولي الألباب، قال - جلَّ وعلا -: ﴿وَلِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عِزٌّ بِصُلُوبِهِمْ﴾ [يوسف: ١١١].

(١) «إعلام الموقعين» (٤ / ٣٧٧).

الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال:
﴿وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

«وكلُّه عَجَب»؛ أي القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].
«سُحْقًا لِّذِي صَمَم»؛ أي بُعدًا لمن صُمَّت أذنه عن سماع الهدى والحقّ
الَّذي جاء في كتاب الله - سبحانه وتعالى -.

* قال ﷺ:

١٢٠- لَمْ تَلْبَثِ الْجِنُّ إِذْ أَصْغَتْ لِتَسْمِعَهُ أَنْ بَادَرُوا نُذْرًا مِنْهُمْ لِقَوْمِهِمْ

يذكر هنا ﷺ قصّة النّفر من الجنّ الذين أكرمهم الله ﷻ وسمعوا
القرآن من صوت النّبيّ - عليه الصّلاة والسّلام -.

قوله: «أَصْغَتْ»؛ أي مالت، يقال: أصغى إلى الشّيء إذا مال إليه، ومنه

قوله تعالى: ﴿وَلِيَصْغِيَ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ﴾ [الأنعام: ١١٣]؛ أي وليتميل.

«أَنْ بَادَرُوا نُذْرًا»؛ أي ما إن استمعوا إلى هذا الذّكر الحكيم والكلام العظيم

إلّا رجعوا إلى قومهم منذرين، كما في قوله - جلّ وعلا - في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ

صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ

قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ

لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣١﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٢١- اللهُ أَكْبَرُ مَا قَدْ حَارَ مِنْ عِبَرٍ وَمِنْ بَيَانٍ وَإِعْجَازٍ وَمِنْ حِكَمٍ

تكبير الشيخ في هذا البيت والذي بعده تعظيم لكتاب الله، فالتكبير يأتي للتعظيم ويأتي للتعجب، ونظير هذا تكبير الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لما بشرهم النبي ﷺ بأنهم شطر أهل الجنة، قالوا: «الله أكبر»، والحديث في «الصحيحين»^(١).

قوله: «مَا قَدْ حَارَ»؛ أي جمع، «مِنْ عِبَرٍ»؛ أي من عظات بالغات، «وَمِنْ بَيَانٍ»؛ كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]؛ أي دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والكفر من الإيمان، «وإِعْجَازٍ»؛ «الإعجاز» مأخوذ من العَجَز، وهو نقيض القدرة، والمراد بـ«إعجاز القرآن»: إثبات القرآن عَجَزَ الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، وسيأتي بيان ذلك عند الناظم رَحِمَهُ اللهُ.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٢- وَاللهُ أَكْبَرُ إِذْ أُعِيَتْ بِلَاغَتُهُ وَحُسْنُ تَرْكِيبِهِ لِلْعُرْبِ وَالْعَجَمِ

قوله: «أُعِيَتْ»؛ أي أعجزت، «بِلَاغَتُهُ»؛ أي فصاحته، ويقال في تعريف البلاغة: هي فصاحة الكلام مع مطابقتها لمقتضى الحال.

وقوله: «وَحُسْنُ تَرْكِيبِهِ لِلْعُرْبِ وَالْعَجَمِ»؛ أي أن بلاغة القرآن وحسن

(١) رواه البخاري برقم (٣٣٤٨)، ومسلم برقم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

تركيبه أعجزت العرب والعجم من أن يأتي أحدٌ منهم بمثله أو بسورة من مثله، كما سيذكر ذلك الناظم رَحِمَهُ اللهُ.

❖ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٣- كَمْ مُلْحِدٍ رَامَ أَنْ يُبْدِيَ^(١) مُعَارَضَةً فَعَادَ بِالذُّلِّ وَالْخُسْرَانِ وَالرَّغَمِ

قوله: «كم» هنا للتكثير، «ملحد»؛ من الإلحاد وهو الميل، و«الملحد»: المائل عن الحق، المُدْخِل فيه ما ليس منه، «رام»؛ أي طلب، «أن يُبْدِيَ معارضةً»؛ أي للقرآن، يقال: عارضته بمثل ما صنع؛ إذا أتيت إليه بمثل ما أتى إليك، ومعارضة القرآن أن يأتي بمثله، «فَعَادَ بِالذُّلِّ وَالْخُسْرَانِ وَالرَّغَمِ»؛ حاول عددٌ من الملحدين معارضة القرآن، وكانت النتيجة الذُّلُّ والخسران والرَّغَمِ، و«الرَّغَم»؛ هو الذُّلُّ والصَّغار، يقال: رغم أنفه رَغْمًا، إذا ساخ في الرَّغَامِ، و«الرَّغَام» هو التُّراب، ثمَّ اسْتَعْمَلَ فِي الذُّلِّ والعجز والصَّغار.

وقد أثبت التاريخ أنَّ الَّذِي حصلت منه هذه المحاولة لم يخرج عن إحدى نتيجتين: إمَّا أن ييؤء بالخيبة وإعلان العجز والإفلاس وعدم القدرة، وإمَّا أَنَّهُ يَأْتِي بِسَخَافَاتٍ وَهَرَاءٍ وَكَلَامٍ سَمَجٍ سَقِيمٍ.

مثال الأوَّل: ما ذكره الشُّوكَانِي فِي تَفْسِيرِ أَوَّلِ آيَةِ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ، قَالَ:

«هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي افْتَتَحَ اللهُ بِهَا هَذِهِ السُّورَةَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

[المائدة: ١] فِيهَا مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا تَتَقَاصِرُ عِنْدَهُ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةُ مَعَ شَمُولِهَا

(١) بِإِسْكَانِ الْيَاءِ مِرَاعَاةً لِلْوِزْنِ الْعَرُوضِيِّ.

لأحكام عدّة: منها الوفاء بالعقود، ومنها تحليل بهيمة الأنعام، ومنها استثناء ما سيتلى ممّا لا يحلُّ، ومنها تحريم الصّيد على المُحرّم، ومنها إباحة الصّيد لمن ليس بمحرّم، وقد حكى النّقاش أنّ أصحاب الفيلسوف الكِندي قالوا له: أيّها الحكيم! اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم، أعمل مثل بعضه فاحتجب أيّامًا كثيرة، ثمّ خرج فقال: والله! ما أقدر، ولا يطيق هذا أحدٌ إنّي فتحتُ المصحف فخرجتُ سورة المائدة، فنظرتُ فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النّكث، وحلّل تحليلًا عامًّا، ثمّ استثنى بعد استثناء، ثمّ أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا^(١).

ومثال الثّاني: قصّة مسيلمة الكذاب، قال ابن كثير في «تفسيره»: «قد روينا عن عمرو بن العاص أنّه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكّة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۝٢ خُسْرٍ﴾، ففكر ساعة ثمّ رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليّ مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: «يا وُبر، يا وُبر، إنّما أنت أذنان وصدور، وسائرُك حقر فقر»، ثمّ قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله! إنّك لتعلم أنّي لأعلم أنّك تكذب^(٢).

(١) «فتح القدير» (٢/ ٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٨٢).

* قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٤- هِيَهَاتَ بُعْدًا لِمَا رَأَوْا وَمَا قَصَدُوا وَمَا تَمَنَّوْا لَقَدْ بَاؤُوا بِذُلِّهِمْ
أي: هؤلاء الملاحدة الذين حاولوا وراموا واجتهدوا أن يأتوا بمثل هذا
القرآن أو أن يعارضوا القرآن «هيهاتَ وبعْدًا لِمَا رَأَوْا»؛ أي أَنَّ هذا مطلبٌ
عزيزُ المنال لا سبيلَ لنيله، ومعنى «هيهاتَ»: اسم فعل ماضٍ بمعنى بُعد.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٥- خَابَتْ أَمَانِيهِمْ شَاهَتْ وُجُوهُهُمْ زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ هَدْيِهِ الْقِيَمِ
قوله: «خَابَتْ أَمَانِيهِمْ»؛ أي باءت بالخيبة والخسران، والذُّلُّ والحرمان،
«شاهت وجوههم»؛ هذا دعاءٌ على هؤلاء الملاحدة بأنَّ الله - سبحانه وتعالى -
يشوّه وجوههم، ومعنى يشوّهها أي يقبّحها، يقال: رجلٌ أشوّه قبيحُ الوجه،
شاهت الوجوه، تشوّه شوهاً قُبِحت، وقد جاء في «صحيح مسلم»^(١) أَنَّ النَّبِيَّ
ﷺ رَمَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ حُنَيْنٍ بِكَفٍّ مِنْ حَصَى، وقال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»؛
فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٦- كَمْ قَدْ تَحَدَّى قَرِيشًا فِي الْقَدِيمِ وَهُمْ أَهْلُ الْبَلَاغَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
تحدّى الله ﷻ في القرآن في مواضع عديدة - سيأتي ذكرها - قريشًا وهم

(١) برقم (١٧٧٧).

أهل بلاغة وفصاحة ولسان، مشهورون بذلك بين الخلق، وكانت النتيجة عجزهم وخيبتهم.

يقول الحافظ ابن كثير وهو يتحدث عن معجزات الأنبياء: «وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمن الفُصحاء والبُلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل لو اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وما ذاك إلا لأنَّ كلام الرَّبِّ لا يشبهه كلام الخلق أبدًا»^(١).

* ثُمَّ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٢٧ - بِمِثْلِهِ وَبِعَشْرِ ثُمَّ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يَرَوْهُ إِذْ ذَا الْأَمْرِ لَمْ يُرَمِّ
قوله: «بمثله»؛ أي تحدّاهم أن يأتوا بمثله، «وبعشر»؛ أي بعشر سور من مثله، «ثُمَّ وَاحِدَةٍ»؛ أي بسورة واحدة، «فلم يَرَوْهُ»؛ أي لم يستطيعوا هذا الأمر وأنّى لهم ذلك! «إِذْ ذَا»؛ أي هذا، «الْأَمْرُ لَمْ يُرَمِّ»؛ أي لا يستطيع أحد أن يناله أو يظفر به أو يحصّله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «بمثله»؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].
وقوله: «وبعشر»؛ أي: عشر سور كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٤٨).

وقوله: ﴿ثُمَّ وَاحِدَةً﴾؛ أي: سورة واحدة كما في قوله - جلّ وعلا -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، ويقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

✽ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٢٨- الجنُّ والإنسُ لم يأتوا لِيُاجْتَمِعُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ انْضَمُّوا لِمِثْلِهِمْ هذا البيتُ يشير فيه إلى الآية المتقدمة: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].
فلو اجتمع الجنُّ والإنس، أوَّلهم وآخرهم، وانضمَّ بعضهم إلى بعض على أن يأتوا بمثله لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

١٢٩- أَنِّي وَكَيْفَ رَبُّ الْعَرْشِ قَائِلُهُ سُبْحَانَهُ جَلَّ عَنْ شِبْهِهِ لَهُ وَسَمِيَّ قوله: «أَنِّي»؛ أي هيهات، «وَكَيْفَ رَبُّ الْعَرْشِ قَائِلُهُ»، والفرق بين كلامه - سبحانه وتعالى - وكلام خلقه، كالفرق بينه وبين خلقه، وقد مرَّ قول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وما ذاك إِلَّا لِأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ لَا يَشْبَهُهُ كَلَامُ الْخَلْقِ أَبَدًا».

قوله: «سُبْحَانَهُ»؛ أي تنزهه، «جَلَّ عَنْ شِبْهِهِ لَهُ وَسَمِيَّ»، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ أي نظيرًا ومماثلًا ومشابهًا.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٣٠- مَا كَانَ خَلْقًا وَلَا فَيْضًا تَصَوَّرَهُ نَبِيَّنَا لَا وَلَا تَعْبِيرَ ذِي نَسَمٍ

قوله: «مَا كَانَ خَلْقًا»؛ أي القرآن ليس بمخلوق، بل هو كلام الله - سبحانه وتعالى -، «وَلَا فَيْضًا تَصَوَّرَهُ نَبِيَّنَا»؛ أي وليس القرآن - أيضًا - فيضًا فاض على قلب نبيِّنا - عليه الصَّلاة والسَّلام - استنادًا إلى تصوُّره - عليه الصَّلاة والسَّلام - لأشياء، بل هو وحيٌّ من الله - سبحانه وتعالى -.

فقوله: «مَا كَانَ خَلْقًا»؛ فيه ردٌّ على الجهميَّة.

وقوله: «وَلَا فَيْضًا تَصَوَّرَهُ نَبِيَّنَا»؛ فيه ردٌّ على الفلاسفة.

وقوله: «وَلَا تَعْبِيرَ ذِي نَسَمٍ»؛ فيه ردٌّ على الأشاعرة والكلابية وغيرهم ممَّن قالوا: إنَّ القرآن عبارة عن كلام الله أو حكاية لكلام الله، فردَّ الشَّيخ على جميع هؤلاء بهذا البيت.

١٣١- بَلْ قَالَهُ رَبُّنَا قَوْلًا وَأَنْزَلَهُ وَحِيًّا عَلَى قَلْبِهِ الْمُسْتَقِظِ الْفَهْمِ

كُلُّ مَا قَالَهُ هَؤُلَاءِ بَاطِلٌ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّنَا تَكَلَّمَ بِهِ هُوَ - سبحانه وتعالى - حقيقةً، «وَأَنْزَلَهُ»؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: ٩٩]، «وَحِيًّا» كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابٍ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، «عَلَى قَلْبِهِ»؛ أي قلب محمد النَّبيِّ - عليه الصَّلاة والسَّلام - كما قال تعالى: ﴿وَلَنُفِخَنَّ فِي الْأُصْوَارِ ۖ فَنُزِّلُ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٣٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

فالقرآنُ بدأ منَ الله، هو الَّذي تكَلَّمَ به، وسمعه منه جبريل، ونزل به على النَّبيِّ الكريم - عليه الصَّلَاة والسَّلَام -.

وقوله: «المستيقظ»؛ لأنَّ قلبه - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - مستيقظٌ لا ينام، كما جاء في «الصَّحيحين»^(١): «يَا عَائِشَةُ! إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي». وقوله: «الفهم»؛ أي الَّذي منَ الله عليه - سبحانه وتعالى - بتمام الفهم وكماله.

يقول ابن تيمية في «العقيدة الواسطية»^(٢): «ومن الإيِّان بالله وكتبه: الإيِّان بأنَّ القرآنَ كلام الله منزَّلٌ غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأنَّ الله تكَلَّمَ به حقيقةً، وأنَّ هذا القرآن الَّذي أنزله على مُحَمَّد ﷺ هو كلام الله حقيقةً، لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنَّه حكاية عن كلام الله أو عبارة، بل إذا قرأه النَّاسُ أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكونَ كلام الله - تعالى - حقيقةً؛ فإنَّ الكلام إنَّما يضاف حقيقةً إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قاله مبلِّغاً مؤدِّياً، وهو كلام الله؛ حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف».

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٣٢ - وَاللَّهُ يَشْهَدُ وَالْأَمْلاَكُ شَاهِدَةٌ وَالرُّسُلُ مَعَ مُؤْمِنِي الْعُرْبَانِ وَالْعَجَمِ

كُلُّ هَؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ ﷻ أَنْزَلَهُ عَلَى قَلْبِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَلَا يَجِدُ ذَلِكَ إِلَّا صَاحِبَ زَيْغٍ وَضَلَالٍ وَنَأْيٍ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى.

(١) رواه البخاري برقم (١١٤٧)، ومسلم برقم (٧٣٨).

(٢) «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ محمد خليل هراس (ص ١٩٧ - ١٩٨).

الوصية بالسنة

جمع رَحِمَهُ اللهُ هنا جملةً من الوصايا العظيمة حول سنة النبي ﷺ والعناية بها حفظاً وفهماً ونشراً وتعليماً، وبيّن مكانة السنة في دين الله - تبارك وتعالى -، وبيّن شرف المعتنين بها، المحافظين عليها، الذّاين عنها، بدأ ذلك بقوله:

١٣٣- اِزُو الْحَدِيثَ وَلَا زِمَ أَهْلُهُ فَهُمْ النَّـ نَاجُونَ نَصًّا صَرِيحًا لِلرَّسُولِ نُمِي

أي: اعتن برواية الحديث وحفظه ونقله والاستشهاد به والاستدلال به، «ولا زِمَ أَهْلُهُ»؛ أي المعتنين به، «فَهُمُ النَّاجُونَ»؛ أي الذين تحققت نجاتهم لا اعتصامهم بكتاب الله وتمسكهم بسنة النبي ﷺ، والمراد بـ«النّجاة»؛ أي من سَخَطَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وعقابه.

«نَصًّا صَرِيحًا»؛ أي تحقّق نجاة هؤلاء جاء فيه نصٌّ صريحٌ، «لِلرَّسُولِ نُمِي»؛ أي رُفِعَ إلى النبي - عليه الصّلاة والسّلام -، يشير إلى ما رواه ابن ماجه والإمام أحمد عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»^(١).

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٣٩٩٣)، و«المسند» (٣/ ١٢٠).

وعند الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١).
وقد روى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»^(٢) وغيره عن الإمام أحمد أنه قال: «إن لم يكونوا أصحاب الحديث، فلا أدري من هم؟!». وفي «الصحيحين»^(٣) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ». وفي «صحيح مسلم»^(٤) من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». وروى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» عن يزيد بن هارون، وعبد الله بن المبارك، والإمام أحمد، وعلي بن المديني أنهم قالوا: «هم عندي أصحاب الحديث»^(٥).

قال أبو عبد الحاكم في «معرفه علوم الحديث»^(٦): «فلقد أحسن أحمد

(١) «جامع الترمذي» برقم (٢٦٤١)، وللحديث طرق وشواهد أخرى خرّجها العلامة الألباني رحمته الله في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) (ص ٢٥).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٣١١)، و«صحيح مسلم» برقم (١٩٢١).

(٤) برقم (١٩٢٠).

(٥) (ص ٢٧).

(٦) (ص ٣٥).

ابن حنبل في تفسير هذا الخبر أَنَّ الطَّائِفَةَ المنصورة الَّتِي يُرْفَعُ الخِذْلَانُ عَنْهُمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ هُمْ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ، وَمَنْ أَحَقُّ بِهَذَا التَّأْوِيلِ مِنْ قَوْمٍ سَلَكَوا مَحَجَّةَ الصَّالِحِينَ وَاتَّبَعُوا آثَارَ السَّلَفِ مِنَ الْمَاضِينَ، وَدَمَغُوا أَهْلَ الْبِدْعِ وَالْمُخَالَفِينَ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ».

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٣٤- سَامِتُ مَنَابِرِهِمْ وَاحِمِلُ مُحَابِرِهِمْ وَالزَّمُ أَكَابِرِهِمْ فِي كُلِّ مُزْدَحَمٍ

قوله: «سَامِتُ»؛ أي اقصد، «السَّمْتُ»: قصد الشيء، «مَنَابِرِهِمْ»؛ «المنابر» جمع منبر، وهو المكان الذي يرتقيه الخطيب والواعظ، والمعنى: اقصد مجالس أهل الحديث ومجالس العلم والفقهاء في دين الله، واحرص على حضورها والإفادة منها.

«وَاحِمِلُ مُحَابِرِهِمْ»؛ المحابر جمع محبرة، ومراد الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ: أي احرص عند حضورك لمجالس أهل العلم أَنْ يَكُونَ مَعَكَ الْقَلَمُ وَالْقِرْطَاسُ؛ لتقيد الفوائد، فالعلم صَيْدٌ وَالْكِتَابَةُ قَيْدُهُ.

«وَالزَّمُ أَكَابِرِهِمْ»؛ أي أكابر أهل العلم، كما جاء عن ابن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ صَالِحِينَ مَتَمَسِّكِينَ مَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمِنْ أَكَابِرِهِمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ مِنْ أَصَاغِرِهِمْ هَلَكُوا»، رواه عبد الرزاق في «المصنَّف»^(١) وغيره.

(١) برقم (٢٠٤٤٦).

«في كلِّ مُزْدَحَمٍ؛ أي إذا ازدحم النَّاسُ وتجمَّعوا على شيء، فليكن حرصك على المزاحمة بالرُّكْب عند الأكابر من أهل العلم والفقه في دين الله والقَدَم الرَّاسخة فيه والعمر المديد في تحصيله وتعليمه والتَّفقيه فيه.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٣٥- اسْلُكْ مَنَارَهُمْو الزَّمْ شِعَارَهُمْ وَاخْطُطْ رِحَالَكَ إِن تَنْزِلُ بِسُوحِهِمْ

قوله: «اسْلُكْ مَنَارَهُمْو»؛ «المنار» هو العلامة، والمراد: سِرُّ في الطَّرِيق الَّذِي ساروا عليه، ملتزمًا معالم طريقهم، مقتفياً آثارهم، لا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا. «والزَّمْ شِعَارَهُمْ»؛ أي: الزم الهدى الَّذِي لَزِمُوهُ، وتمسك بالنَّهْج الَّذِي كانوا عليه؛ فَإِنَّ شِعَارَهُمْ وَسِمَتَهُمُ التَّمَسُّكُ بالوحي المبين. «واخْطُطْ رِحَالَكَ»؛ «الخطُّ»: الوضع، و«رحال»: جمع رَحْل، وهو المركب للبعير.

«إِنْ تَنْزِلُ بِسُوحِهِمْ»؛ جمع ساحة، وتجمع - أيضًا - على ساحات، وهي الأرض الفضاء بين الدُّور، والمراد بقوله: «واخْطُطْ رِحَالَكَ إِن تَنْزِلُ بِسُوحِهِمْ»؛ أي إذا جئت مكانهم؛ فلازم الجلوس والاطمئنان والحرص والتَّعَلُّم. والرَّجُل المرتحل إذا حطَّ رحالَه؛ فهذا إشعارٌ بطول المكث، بخلاف المستعجل يُبقي رحالَه كما هي.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٣٦- هُمُ الْعُدُولُ لِحِمْلِ الْعِلْمِ كَيْفَ وَهُمْ أَوْلُو الْمَكَارِمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ

قوله: «هَمُّ الْعُدُولِ لِحَمْلِ الْعِلْمِ»؛ ذكر هنا عدالتهم، وأنهم خيرُ حملةٍ للعلم، اعتنوا بالعلم حفظاً وعملاً وإبلاغاً للأمة، وكلُّ هذه المعاني داخلة في حمل العلم، حمل العلم في الصدور، وحمل العلم إلى الناس؛ نصحاً وبياناً وتعليماً. وقوله: «كَيْفَ وَهُمْ أَوْلُو الْمَكَارِمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ»؛ أي إضافة إلى حملهم للعلم هم كذلك أهل الاتِّصاف بالصفات الرَّفِيعَةِ من مكارم الأخلاق والشَّيْمِ النَّبِيلَةِ، والآداب الفاضلة الَّتِي حَلَّاهُمْ اللَّهُ - سبحانه وتعالى - وزَيَّنَهُمْ بِهَا.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَمُّ الْعُدُولِ لِحَمْلِ الْعِلْمِ»؛ يشير إلى الحديث المشهور: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»^(١).

روى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»^(٢) بسنده عن مهنا - هو ابن يحيى - قال: سألت أحمد عن هذا الحديث، فقلت لأحمد: كأنه كلام موضوع؟ قال: لا هو صحيح، فقلت: مَنْ سمعته أنت؟ قال: من غير واحد....».

وَضَمَّنَهُ فِي خُطْبَةِ كِتَابِهِ «فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ»^(٣)، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ فِتْرَةً مِنَ الرُّسُلِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلَى الْهُدَى، وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى، يَحْيُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ الْمَوْتَى، وَيَبْصُرُونَ

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠ / ٢٠٩)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص ٢٩) وغيرهما، وصحَّحه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٢٤٨).

(٢) (ص ٢٩).

(٣) (ص ٦).

بكتاب الله أهل العمى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه، وكم من تائه ضالٌّ قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين...».

قال ابن عبد البرّ في «التمهيد»^(١): «وكلُّ حامل علم معروف العناية به، فهو عدلٌ محمولٌ في أمره أبدًا على العدالة حتّى تتبيّن جرحته في حاله»، واستدلّ بهذا الحديث، فالأصلُ في حملة العلم العدالة.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «مفتاح دار السَّعادة»^(٢): «فهذا الحمل المشار إليه في هذا الحديث هو التَّوَكُّلُ المذكور في الآية (يعني قوله تعالى: ﴿وَلِتَكُ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩])، فأخبر ﷺ أَنَّ العلم الَّذِي جاء به يحمله عدول أُمَّته مِنْ كُلِّ خَلْفٍ حتّى لا يضيع ويذهب، وهذا يتضمَّن تعديله ﷺ لحملة العلم الَّذِي بُعث به، وهو المشار إليه في قوله: «هذا العلم»، فكلُّ من حمل العلم المشار إليه لابدَّ وأن يكون عدلاً؛ ولهذا اشتهر عند الأُمَّة عدالة نقلته وحملته اشتهاراً لا يقبل شكّاً ولا امتراءً، ولا ريب أنَّ من عدَّله رسول الله ﷺ لا يُسمع فيه جرح، فالأُمَّة الَّذِينَ اشتهروا عند الأُمَّة بنقل العلم النَّبَوِيِّ وميراثه كلُّهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ؛ ولهذا لا يُقبل قدحُ بعضهم في بعض، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأُمَّة جرحه والقدح فيه كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من

(٢) (١/١٦٣).

(١) (١/٢٨).

(٣) كذا في المطبوع ولعل الصواب: التوكيل.

المتَّهَمِينَ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا عِنْدَ الْأُمَّةِ مِنْ حَمَلَةِ الْعِلْمِ، فَمَا حَمَلَ عِلْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَدْلٌ، وَلَكِنْ قَدْ يُغْلَطُ فِي مَسَمًّى الْعَدَالَةِ؛ فَيُظَنُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِ«الْعَدْلِ»: مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ عَدْلٌ مُؤْتَمَنٌ عَلَى الدِّينِ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُ مَا يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُنَافِي الْعَدَالََةَ، كَمَا لَا يُنَافِي الْإِيمَانَ وَالْوِلَايَةَ.

وَقَالَ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»^(١): «وَاسْتَشْهَدِ اللَّهَ ﷻ بِأَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَجَلٍ مَشْهُودٍ بِهِ - وَهُوَ التَّوْحِيدُ -، وَقَرْنَ شَهَادَتَهُمْ بِشَهَادَتِهِ وَشَهَادَةَ مَلَائِكَتِهِ، وَفِي ضَمَنِ ذَلِكَ تَعْدِيلُهُمْ؛ فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يَسْتَشْهَدُ بِمَجْرُوحٍ، وَمِنْ هَهُنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - يَرْخِذُ الْحَدِيثَ الْمَعْرُوفَ: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُذُولَهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَتَأْوِيلَ الْمُبْطِلِينَ». انْتَهَى كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٣٧- هُمُ الْأَفْضَلُ حَازُوا خَيْرَ مَنْقَبَةٍ هُمُ الْأَلَى بِهِمُ الدِّينُ الْحَنِيفُ مُحِمِّي قَوْلُهُ: «حَازُوا خَيْرَ مَنْقَبَةٍ»؛ إِشَادَةً بِفَضْلِ حَمَلَةِ الْعِلْمِ؛ بِأَنَّهُمْ حَازُوا خَيْرَ مَنْقَبَةٍ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مِنْ بَصِيرَةٍ بِدِينِ اللَّهِ، وَعِنَايَةٍ بِنَشْرِهِ وَإِشَاعَتِهِ فِي النَّاسِ.

وَقَوْلُهُ: «هُمُ الْأَلَى»؛ «الْأَلَى»: اسْمُ مَوْصُولٍ بِمَعْنَى «الَّذِينَ»، «بِهِمُ الدِّينُ الْحَنِيفُ مُحِمِّي»؛ أَيَّ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قَيَّضَهُمْ حِمَاةً لِلدِّينِ وَأَنْصَارًا لِلسُّنَّةِ، فَكَانُوا أَهْلًا لِلذَّبِّ عَنِ دِينِ اللَّهِ، وَعَنِ كِتَابِ اللَّهِ، وَعَنِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) (٢/٤٧٠).

ينفون عن كتاب الله تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين.

﴿ ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ ﴾:

١٣٨- هُمُ الْجَهَابَةُ الْأَعْلَامُ تَعْرِفُهُمْ بَيْنَ الْأَنَامِ بِسِيَاهُمْ وَوَسْمِهِمْ

قوله: «هُمُ الْجَهَابَةُ»؛ جمع جَهْد - بالكسر - وهو النَّقَادُ الخبير بغوامض الأمور البارِعُ العارفُ بطُرُقِ النَّقْدِ وتمييز الجيِّد من الرديِّ^(١)، وهو مُعَرَّبُ «الأعلام» أي أهل النبَلِ والفضل والخير والرُّتَبِ العليَّةِ.

«بسيآهم»؛ أي بعلاماتهم، يقال: «سيما» بالقصر، و«سياء» بالمد، «ووسمهم»؛ «الوسم» في الأصل أثر الكيِّ، وسمه وَيَسِمُهُ وَسْمًا وَسِمَةً، والمعنى أَنَّ هؤلاء معروفون بعلاماتٍ وآثار تميِّزهم عن غيرهم، والمراد بالعلامات والآثار: الالتزام بالدين والتَّمَسُّكُ بالسُّنَّةِ والتَّحَلِّيُ بالأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة، والسَّمَتُ الحسن، والبُعدُ عن سَفَساف الأمور ورديئها.

﴿ ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ ﴾:

١٣٩- هُمْ نَاصِرُو الدِّينِ وَالْحَامُونَ حَوَازَتَهُ مِنَ الْعَدُوِّ بِجَيْشٍ غَيْرِ مُنْهَزِمٍ

قوله: «هُمْ نَاصِرُو الدِّينِ»؛ أي الَّذِينَ قِيَّضَهُمُ اللَّهُ - سبحانه وتعالى - أنصارًا لدينه، «وَالْحَامُونَ حَوَازَتَهُ»؛ أي قِيَّضَهُمُ أَنْصَارًا لِلدِّينِ وحماة لحوزته، «مِنَ الْعَدُوِّ»؛ أي الَّذِينَ حَرَّصُوا عَلَى الصَّدِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ أَوْ نَشَرَ الْبَدْعِ وَالْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَقَدُوا أَلْوِيَةَ الْبَدْعَةِ، وَأَطْلَقُوا عَنَانَ الْفِتْنَةِ، الْمُخَالَفُونَ

(١) انظر: «تاج العروس» مادة (ج ه ب ذ).

للكتاب وللسنة هم أعداء للدين، «بحيش»؛ والمراد بـ«الجيش» هنا قوة الردود بالآيات والأحاديث، والنقول العظيمة عن أئمة السلف، ولهذا ترى بعض كتب الردود لأهل العلم قد يوضع لها عناوين بهذا المعنى مثل: «اجتماع الجيوش الإسلامية»، و«الصواعق المرسلة» كلاهما لابن القيم، و«جمع الجيوش والدساكر» ليوسف بن عبد الهادي.

وقوله: «غَيْرِ مُنْهَزِمٍ»؛ لأنَّ الله ﷻ تكفل بنصرة أوليائه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، فالغلبة لأنصار الدين وحماته، والظفر والنصر لرسول الله وأتباعهم.

✽ قال رحمه الله:

١٤٠- هُمُ الْبُدُورُ وَلَكِنْ لَا أَفُولَ لَهُمْ بَلِ الشُّمُوسُ وَقَدْ فَاقُوا بُنُورَهُمْ

قوله: «هُمُ الْبُدُورُ»؛ جمع بَدْر، ومَرَّ معنا في أوائل هذه المنظومة «فَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةِ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»^(١).

«لا أفول»؛ أي لا غياب، يقال: أَفَلَتِ الشَّمْسُ تَأْفُلُ وتَأْفُلُ أَفْلاً وأفولاً؛ غَرَبَتْ وغيابت، وكذلك القمر يَأْفُلُ، والمعنى: إذا أَفَلَ البدر الَّذي في السَّماءِ وغياب؛ فإنَّ هؤلاء العلماء لا أفول لهم؛ لأنَّ علمهم لا يزال في انتشار وفي

(١) (ص ٦٠).

شيوع، والنَّاس لا تزال تستفيد من هذا النُّور نور العلم، وضياء السُّنَّة والحقِّ
الَّذي دَعَوْا إليه.

وقوله: «وَقَدْ فَاقُوا بِنُورِهِمْ»؛ أي هؤلاء العلماء قد فاق نورهم نورَ
الشمس والقمر؛ لماذا؟ قال:

١٤١- لم يبقَ للشمس من نورٍ إذا أَفَلَتْ ونورُهم مُشْرِقٌ مِنْ بَعْدِ رَمْسِهِمْ

قوله: «بعد رمسِهِمْ»؛ جاء في «القاموس»: الرَّمْس: القبر، أي بعد دفنهم
في القبور، والمعنى أنَّ العالم بعد أن يُدفن في قبره؛ يبقى نوره؛ لأنَّ العلم الَّذي
حمَّله وسعى في نشره لا يموت بموته، وهذا هو حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهُ العالم
الجليل دُفن عام ألفٍ وثلاثمائة وسبع وسبعين، ونحن الآن في هذا اليوم مع
علم ونور قيَّضه الله - سبحانه وتعالى - لبيانه، هو دُفن لكن النُّور الَّذي أكرمه
الله سبحانه وتعالى بنشره باقٍ.

وهكذا الأئمَّة والعلماء السَّابِقين منهم واللاحقين قد دُفِنوا وأدخلوا
القبور؛ لكنَّ علمهم باقٍ، وهذه - والله - الغنيمة، وهذا عمرٌ لهم بعد عمر،
وحياةٌ بعد حياة.

كما قال الشاعر:

ذَكَرْتُ الْفَتَى عُمُرَهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وقال آخر:

يَمُوتُ قَوْمٌ فَيُحْيِي الْعِلْمُ ذِكْرَهُمْ وَالْجَهْلُ يُلْحِقُ أَحْيَاءَ بِأَمْوَاتٍ

والعالم لا يزال في قبره تتوالى عليه الأجور وهو في قبره؛ بما بثّه في الأمة من علم وبيان للدين، ونصرة لسنة النبي الكريم - صلوات الله وسلامه عليه -.

✽ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٢ - لَهُمْ مَقَامٌ رَفِيعٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ مِنَ الْعِبَادِ سِوَى السَّاعِي كَسَعِيهِمْ
أي أهل العلم مقامهم مقام رفيع وعالٍ، وهذا المقام الرفيع لا يناله كلُّ أحد ولا يظفر به كلُّ إنسان، وإنَّما الَّذِي يظفر به السَّاعِي كسعيهم، حيث إنَّ أهل العلم قد منَّ الله عليهم بالصَّبر والجلد، والاجتهاد حتَّى بلغوا مبلغاً عظيماً ورتبةً عليّةً، فالَّذي يريد لنفسه مثل مقام هؤلاء فليسع مثل سعيهم، وهذا فيه أن العلم لا يُنال إلَّا بالصَّبر والجلد والاجتهاد، كما جاء في «صحيح مسلم»^(١) عن يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم»، ولا ينال بمجرد الأمان، وفي الحديث: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالحِلْمِ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الحَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ»^(٢).

✽ ثمَّ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٣ - أْبْلَغُ بِحُجَّتِهِمْ أَرْجَحُ بِكَفَّتِهِمْ فِي الْفَضْلِ إِنْ قِسْتَهُمْ وَزَنَّا بِغَيْرِهِمْ
قوله: «أْبْلَغُ بِحُجَّتِهِمْ أَرْجَحُ بِكَفَّتِهِمْ» أي قُلْ: ما أبلغ حجَّتَهُم، وما

(١) رقم (٦١٢).

(٢) رواه الخطيب في «تاريخه» (١٢٧/٩) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣٤٢) وحسنه.

أَرْجَحَ كِفَّتَهُمْ، مثل قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أي ما أسمعهم، وما أبصرهم يوم القيامة.

وقوله: «إِنْ قِسْتَهُمْ وَزَنَّا بغيرِهِمْ» أي إذا أردت أن تقايس وتوازن أهل العلم بغيرهم في الفضل والشرف والسؤدد فأبلغ بحجة العلماء وأرجح بكفتهم فهي الكفة الرَّاجحة، وحبَّتْهم الحجة البالغة الدامغة، ومكانتهم المكانة العالية السامقة.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٤- كَفَاهُمُ شَرَفًا أَنْ أَصْبَحُوا خَلَفًا لِسَيِّدِ الْحَنْفَا فِي دِينِهِ الْقِيَمِ

قوله: «كَفَاهُمُ شَرَفًا» أي كفاهم نُبَلًا وفضيلةً ومنزلةً ومكانةً، «أَنْ أَصْبَحُوا خَلَفًا» أي أتباعًا؛ لأنَّهم ورثوا العلم الَّذي جاء به؛ فإنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم، «لِسَيِّدِ الْحَنْفَاءِ» محمَّد - عليه الصَّلاة والسَّلام -، «الْحَنْفَاءِ»: جمع حنيف، وهو المائل عن الضَّلال إلى الهدى وعن الباطل إلى الحقِّ، وعن الشُّرك إلى التَّوحيد، «فِي دِينِهِ الْقِيَمِ»؛ الجار والمجرور متعلِّق بقوله: «أَصْبَحُوا خَلَفًا» أي خلفوا النَّبِيَّ ﷺ في دينه القويم، فقاموا بالدَّعوة إليه والانتصار له والذِّبُّ عنه وحماية حوزته.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٥- يُحْيُونَ سُنَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ فَلَهُمْ أَوَّلَى بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ

قوله: «يُحْيُونَ سُنَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ»؛ فيه إشارة إلى أنَّ هؤلاء الأئمَّة العدول

يعملون على إحياء السُّنن بخلاف طريقة أهل الباطل المبنية على إشاعة البدع وإماتة السُّنن.

«فَلَهُمْ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ»؛ أي هم أولى النَّاسِ بالنَّبِيِّ - عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام -؛ لأنَّهم قاموا مقامه - عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - في حمل الدِّين ونقله، وبثه في الأُمَّة.

❖ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٦- يَرْوُونَ عَنْهُ أَحَادِيثَ الشَّرِيعَةِ لَا يَأْلُونَ حِفْظًا لَهَا بِالصَّدْرِ وَالْقَلَمِ

قوله: «يَرْوُونَ عَنْهُ أَحَادِيثَ الشَّرِيعَةِ»؛ أي هذا دأبهم وهُمُّهم رواية الحديث عن النَّبِيِّ - عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام -، «لَا يَأْلُونَ حِفْظًا لَهَا»؛ أي لا يدَّخرون وُسْعًا وطاقَةً وجهدًا في حفظ الحديث، «بِالصَّدْرِ وَالْقَلَمِ»؛ أي يجتهدون في حفظ السُّنن وضبطها في صدورهم، وكتبهم.

❖ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٧- يَنْفُونَ عَنْهَا انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَحْرِيفَ الْغُلَاةِ وَتَأْوِيلَ الْغَوِيِّ اللَّئِيمِ

قوله: «يَنْفُونَ عَنْهَا»؛ أي عن السُّنَّةِ وعن الشَّرِيعَةِ «انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ» وتحريف الغلاة وتأويل الغوي اللَّئيمِ يشير إلى الحديث المتقدم: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»^(١).

(١) (ص ١٦٣).

قال ابن القيم في «إغاثة اللّاهفان»^(١): «فأخبر أنّ الغالين يحرفون ما جاء به، والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه، والجاهلون يتأولونه على غير تأويله، وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة، فلولا أنّ الله تعالى يقيم لدينه من ينفي عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وروى ابن عبد البر في «التمهيد»^(٢) عن عبدة بن سليمان المروزي قال: قلت لابن المبارك: أما تخشى على العلم أن يجيء المبتدع فيزيد في الحديث ما ليس منه؟ قال: «لا أخشى هذا بعيش الجهابذة النقاد».

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٤٨ - أدّوا مقالته نصّحاً لأئمّته صانوا روايتها عن كلّ ممتهم

قوله: «أدّوا مقالته»؛ أي مقالة النبي - عليه الصّلاة والسّلام - الشريفة، ومعنى أدّوها أي بلغوها للأئمة، الصّحابة بلغوها للتّابعين، والتّابعون بلغوها لأتباعهم، ولسان حال كلّ يقول: هذا ما أدّي إلينا ونؤدّيه إليكم تامّاً كما أدّي إلينا.

«نصّحاً لأئمّته»؛ هذا من كمال نصّحهم، وكانت مهمّتهم في الأئمة إبلاغهم سنّة رسول الله ﷺ وهدية القويم.

(١) (١/١٥٩).

(٢) (١/٦٠).

«صَانُوا رَوَايَتَهَا»؛ أَي الشَّرِيعَةَ وَالسُّنَّةَ «عَنْ كُلِّ مُتَّهَمٍ»؛ لَا يَقْبَلُونَ رَوَايَتَهُ، وَلِهَذَا أُلْفَتْ مُؤَلَّفَاتُ كَثِيرَةٍ لِأَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْبَابِ - بَابُ الْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ - وَمَنْ الَّذِي تُقْبَلُ رَوَايَتُهُ وَالَّذِي لَا تُقْبَلُ.

جاء في «التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيعِ» لِلْبَاجِي^(١): عَنْ مُحَمَّدٍ - يَعْنِي ابْنَ سِيرِينَ - أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ دِينَ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَهُ»، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْمُبَارَكِ: «الْإِسْنَادُ مِنَ الدِّينِ، لَوْلَا الْإِسْنَادُ؛ لَقَالَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ»، وَكَانَ بِهِزِ ابْنِ أَسَدٍ يَقُولُ - إِذَا ذَكَرَ لَهُ الْإِسْنَادَ الصَّحِيحَ -: «هَذِهِ شَهَادَةُ الْعَدُولِ الْمَرْضِيِّينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ»، وَإِذَا ذَكَرَ لَهُ الْإِسْنَادَ وَفِيهِ شَيْءٌ قَالَ: «هَذَا فِيهِ عَهْدَةٌ»، وَيَقُولُ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا ادَّعَى عَلَى رَجُلٍ عَشْرَةَ دِرَاهِمٍ لَمْ يَسْتَطِعْ أَخْذَهَا إِلَّا بِشَهَادَةِ الْعَدُولِ، فَدَيْنَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُؤْخَذَ فِيهِ بِالْعَدُولِ»، وَقَالَ عَبْدَةُ ابْنُ سَلِيمَانَ: قِيلَ لِابْنِ الْمُبَارَكِ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ؟ قَالَ: «يَعِيشُ لَهَا الْجَهَابُذَةُ»، وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: سَمِعْتُ يَزِيدَ بْنَ أَبِي حَبِيبٍ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتَ الْحَدِيثَ فَأَنْشُدْهُ كَمَا تُنْشِدُ الضَّالَّةَ، فَإِنْ عُرِفَ فَخُذْهُ، وَإِلَّا فَدَعْهُ»، وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: «لَا يُؤْخَذُ هَذَا الْعِلْمُ إِلَّا عَمَّنْ شُهِدَ لَهُ بِالطَّلَبِ»، وَرَوَى الْمَغِيرَةُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ (هُوَ النَّخَعِيُّ) قَالَ: «كَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَأْخُذُوا عَنِ الرَّجُلِ نَظَرُوا إِلَى صَلَاتِهِ وَإِلَى هَيْئَتِهِ وَإِلَى سَمْتِهِ»، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ: قَالَ شُعْبَةُ: «كَنتُ أَنْظُرُ إِلَى فَمِ قَتَادَةَ، فَإِذَا قَالَ: حَدَّثَنَا؛ كَتَبْنَا عَنْهُ فَوْقَ قَفْطِهِ عَلَيْهِ، وَإِذَا لَمْ يَقُلْ: حَدَّثَنَا؛ لَمْ أَكْتُبْ عَنْهُ»، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ: «خَصَلْتَانِ لَا يَسْتَقِيمُ فِيهِمَا حَسَنٌ

(١) (١/ ٢٩١).

الظَّنَّ: الحكم والحديث»، يعني: لا يستعمل حُسن الظَّنِّ في قبول الرواية عمَّن ليس بمرضيٍّ اهـ.

﴿ ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٤٩- لَمْ يُلْهِهِمْ قَطُّ مِنْ مَالٍ وَلَا خَوَلٍ وَلَا ابْتِيَاعٍ وَلَا حَرْثٍ وَلَا نَعَمٍ قوله: «لَمْ يُلْهِهِمْ»؛ أي هؤلاء العلماء الأعلام حملة السُّنَّة «قَطُّ مِنْ مَالٍ وَلَا خَوَلٍ»؛ «الخول»: ما أعطاك الله من النِّعم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية، يقال للواحد منهم: خال، ويجمع على خَوَلٍ، وجاء في «الصَّحَّاحِينَ»: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ»^(١).

فهذه الأشياء كلها المال، والخول، والبيع والشُّراء، والحَرْث والأَنْعام لم تشغلهم عن العلم وتحصيله، قال أبو عبد الله الحاكم في «معرفة علوم الحديث»^(٢): «إِنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ خَيْرَ النَّاسِ وَكَيْفَ لَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ وَقَدْ نَبَذُوا الدُّنْيَا بِأَسْرَافِهَا وَرِئَاءِهَا، وَجَعَلُوا غَدَاءَهُمُ الْكِتَابَةَ، وَسَمَرَهُمُ الْمَعَارِضَةَ، وَاسْتَرَوَاهُمْ الْمَذَاكِرَةَ، وَخَلَقُوهُمْ الْمِدَادَ، وَنَوْمَهُمُ الشُّهَادَ، وَاصْطِلَاءَهُمُ الضِّيَاءَ، وَتَوَشُّدَهُمُ الْحَصَى، فَالْشَّدَائِدُ مَعَ وَجُودِ الْأَسَانِيدِ الْعَالِيَةِ عِنْدَهُمْ رِخَاءٌ، وَوُجُودِ الرِّخَاءِ مَعَ فَقْدِ مَا طَلَبُوهُ عِنْدَهُمْ بَوَسٌ، فَعَقَوْهُمْ بِلَذَاذَةِ السُّنَّةِ غَامِرَةً، تَعَلَّمُ السُّنَنُ سُرُورَهُمْ، وَمَجَالَسُ الْعِلْمِ حُبُورَهُمْ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ قَاطِبَةُ إِخْوَانِهِمْ، وَأَهْلُ الْإِلْحَادِ وَالْبِدْعِ بِأَسْرَافِهَا أَعْدَاؤُهُمْ».

(١) رواه البخاري برقم (٣٠)، ومسلم برقم (١٦٦١) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) (ص ٣٥).

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥٠- هَذَا هُوَ الْمَجْدُ لَا مُلْكٌ وَلَا نَسَبٌ كَلَّا وَلَا الْجَمْعُ لِلْأَمْوَالِ وَالْخَدَمِ

قوله: «هَذَا هُوَ الْمَجْدُ»؛ أي العناية بالعلم وبدين الله وبسنة رسول الله

ﷺ، «لَا مُلْكٌ وَلَا نَسَبٌ» فالمجد بالعلم والعمل، «كَلَّا وَلَا الْجَمْعُ لِلْأَمْوَالِ وَالْخَدَمِ»؛ لأن هذه كلها تنتهي إلا العلم فإنَّ النَّفْعَ به دائمٌ.

* قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥١- فَكُلُّ مَجْدٍ وَضِيعٌ عِنْدَ مَجْدِهِمُو وَكُلُّ مُلْكٍ فَخْدَامٌ لِمُلْكِهِمِ

قوله: «فَكُلُّ مَجْدٍ وَضِيعٌ عِنْدَ مَجْدِهِمُو»؛ أي بالنسبة إلى مجد هؤلاء العلماء

الأعلام، «وَكُلُّ مُلْكٍ فَخْدَامٌ لِمُلْكِهِمِ»، وهذا فيه أنَّ المجد الحقيقيَّ والسِّيادة والعلوَّ والرِّفعة بالعلم، جاء في «تاريخ بغداد»^(١) عن شعبة أنَّه قال: «إِنَّ سَفِيَانَ الثَّوْرِيَّ سَادَ النَّاسَ بِالْوَرَعِ وَالْعِلْمِ».

وفي «جامع بيان العلم»^(٢) لابن عبد البر: قال الحجاج لخالد بن صفوان:

من سيِّد أهل البصرة؟ فقال له: الحسن، فقال: وكيف ذلك وهو مولى؟ فقال: احتاج النَّاسُ إليه في دينهم، واستغنى عنهم في دنياهم، وما رأيتُ أحدًا من أشراف أهل البصرة إلاَّ وهو يروم الوصول في حلقتِه إليه ليستمع قوله ويكتب علمه، فقال الحجاج: هذا والله السُّؤْدَدُ.

(١) (١٦٢/٩).

(٢) رقم (٣٣٢).

١٥٢- وَالْأَمْنُ وَالنُّورُ وَالْفَوْزُ الْعَظِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْبُشْرَىٰ لِحِزْبِهِمْ

اشتمل هذا البيت على ذكر أربع ثمرات عليّة وقطوف سنيّة يقطفها هؤلاء:

الأولى: الأمن، أي في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ

يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّسْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

الثانية: النُّور، فالعلم نور لصاحبه وضياء يهتدي به في الظلمات، قال

تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي

الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:

١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٔ قَوْلٌ

لِلْفَنَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

الثالثة: الفوز العظيم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي

جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

الرابعة: البُشْرَى في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ

أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ

يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأُولَاءُ ﴿١٧﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

ثمَّ إِنَّ النَّازِمَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا أَشَادَ بِهِؤَلَاءَ وَذَكَرَ مَجْدَهُمْ وَعَلَوْهُمْ وَرَفَعَتِهِمْ، وَفِي هَذَا تَشْوِيقٌ لِلْقُلُوبِ لَتَبْلُغَ مَبْلَغَهُمْ، فَلَمَّا أَنَسَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْقُلُوبَ تَاقَتْ إِلَى هَذِهِ الْمَنَازِلِ، وَاشْتَاقَتْ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَاتِ قَالَ:

١٥٣- فَإِنْ أَرَدْتَ رُقِيًّا نَحْوَ رُتَبَتِهِمْ وَرُمْتَ مَجْدًا رَفِيعًا مِثْلَ مَجْدِهِمْ
أَيُّ إِنِّ أَحْبَبْتَ لِنَفْسِكَ هَذَا الَّذِي أَشِيرَ إِلَيْهِ فِي الْأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ، وَرَغِبْتَ فِي ذَلِكَ؛ فَعَلَيْكَ بِلَزُومِ مَا يَلِي:

١٥٤- فَاغْمِذْ إِلَى سُلَمِ التَّقْوَى الَّذِي نَصَبُوا وَاصْصَعِدْ بِعَزْمٍ وَجِدٍّ مِثْلَ جِدِّهِمْ
عَلَيْكَ بِسُلَمِ التَّقْوَى، ارْقَ فِي دَرَجَاتِهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَزَالُ فِي رَفْعَةٍ وَعَلَوْ مَا دُمْتَ فِيهِ، وَقَوْلُهُ: «سُلَمِ التَّقْوَى»؛ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَفَاوُتِ أَهْلِ التَّقْوَى فِي التَّقْوَى، وَتَبَايُنِ دَرَجَاتِهِمْ فِيهَا، وَأَنْتُمْ لَيْسُوا فِيهَا عَلَى دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ، فَاجْتَهِدْ أَنْ تَبْلُغَ الدَّرَجَةَ الْعُلْيَا الرَّفِيعَةَ مِنْ دَرَجَاتِ الْمُتَّقِينَ، وَيُلْمَحُ فِي هَذَا الْبَيْتِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَنَفَّسُوا اللَّهَ يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، أَيُّ عِلْمًا وَضِيَاءً وَنُورًا تَمَيِّزُونَ بِهِ.

«وَاصْصَعِدْ بِعَزْمٍ»؛ أَيُّ بِهَمَّةٍ عَالِيَةٍ، «وَجِدٍّ مِثْلَ جِدِّهِمْ»؛ أَيُّ اجْتَهِدْ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَبِذَلِكَ مِثْلَ جِدِّ هَؤُلَاءِ، وَهَذَا - أَيْضًا - يَتَطَلَّبُ أَنْ يَنْظُرَ طَالِبُ الْعِلْمِ فِي سَيْرِ هَؤُلَاءِ وَجِدَّهُمْ وَجَلَدَهُمْ وَصَبْرَهُمْ وَمُثَابَرَتَهُمْ وَيَكْرُرَ الْمَطَالَعَةَ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

كَرَّرَ عَلَيَّ حَدِيثُهُمْ يَا حَادِي فَحَدِيثُهُمْ يَجْلُو الْفَوَادَ الصَّادِي

فيطالع سير هؤلاء باستمرار واستدامة حتى يكرمه الله - سبحانه وتعالى -
بمماثلة ومشابهة هؤلاء، قال الشاعر:
الجُدُّ في الجِدِّ والحرمانُ في الكسلِ فانْصَبْ تُصَبِّ عن قريبٍ غايةَ الأملِ

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٥٥- واعْكُفْ عَلَى السُّنَّةِ الْمُثَلَّى كَمَا عَكُفُوا حِفْظًا مَعَ الْكَشْفِ عَنْ تَفْسِيرِهَا وَدُمِ
قوله: «كما عَكُفُوا»؛ أي مثلما عكف هؤلاء على سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ مذاكرةً
وحفظًا ومدارسةً.

«حِفْظًا مَعَ الْكَشْفِ عَنْ تَفْسِيرِهَا»؛ يعني لا تكن عنايتك بالسُّنَّةِ عنايةً
بالحفظ فقط، بل اعتنِ أيضًا بالكشف عن تفسيرها، وهذا يكون بالأخذ عن
أهل العلم الأكابر من حملة السُّنَّةِ، «ودُمِ»؛ أي داوم على الحفظ وعلى الفهم
روايةً ودرايةً.

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٥٦- واقْرَأْ كِتَابًا يُفِيدُ الْإِصْطِلَاحَ بِهِ تَدْرِى الصَّحِيحَ مِنَ الْمُوصُوفِ بِالسَّقَمِ
أي: اقرأ في كتب مصطلح الحديث، وللناظم رَحِمَهُ اللهُ منظومة في هذا الباب
سمّاها: «اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي أَحْوَالِ الْأَسَانِيدِ وَالْمَتُونِ»، وله متن يسمّى: «دليل
أرباب الفلاح لتحقيق فنِّ الاصطلاح».

«به تَدْرِى الصَّحِيحَ مِنَ الْمُوصُوفِ بِالسَّقَمِ»؛ أي بهذا العلم إذا درسته
وتعلّمته تستطيع أن تميّز بين الصحيح والسقيم.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥٧- حَكِّمَ قَوَاعِدَهُ وَاحْرَزَ فَوَائِدَهُ تَحْزَنُ عَوَائِدَهُ كَالدُّرِّ تَنْتَظِمُ

أي: اعتن بقواعد هذا الفن واحرص على ضبطها لعظم فائدها؛ فإن فيها «بحث أحوال السند من حيث انتهائه من مرفوع وموقوف ومقطوع، وفي ذاته من متصل ومنقطع ومسلسل وعال ونازل وأنواع كل منها، ويبحث في أحوال المتن باعتبار طرقة من مشهور وعزيز وغريب، وباعتبار مراتبه من صحيح وحسن وضعيف ومحفوظ وشاذ ومعروف ومنكر ومتابع وشاهد، وباعتبار الاستدلال والعمل به من محكم ومعارض وناسخ ومنسوخ وراجع ومرجوح وما يتعلق بها، وباعتبار علله من معلق، ومرسل، ومعضل، ومنقطع، ومدلس، وموضوع، ومتروك، ومعلل، ومدرج ومقلوب، ومزيد ومضطرب، ومصحف، ومحرّف، ومجهول، ومبهم، ومختلط، وعن صيغ الأداء من سماع، وتحديث، وإخبار وإنباء، وقراءة، ومناولة، ومشافهة ومكاتبه، وإجازة، وعنونة، وقول، ووصية، ووجادة، وعن أسماء الرواة وكناهم وألقابهم وأنسابهم من متفق، ومفترق، ومؤتلف، ومختلف، ومبهم، ومتشابه وغير ذلك، وعن طبقاتهم ومواليدهم ووفياتهم وبلدانهم وسيرهم وأحوالهم تعديلًا وجرحًا، ومراتب كل منهما، وآداب الشيخ والطالب، وسنن التحمل والأداء وصفة كتابة الحديث وسماعه وإسماعه، والرحلة فيه وسببه وتصنيفه وغير ذلك»^(١) من الفوائد العظيمة التي مقصودها معرفة المقبول من المردود والصحيح من السقيم وهي «كالدرّ حسنًا وجمالًا» «تنتظم» في عقد متكامل يعدُّ جزء من الدين.

(١) «دليل أرباب الفلاح لتحقيق فن الاصطلاح» للنّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ٨-٩).

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥٨ - فَهِيَ الْمَحَجَّةُ فَاسْلُكْ غَيْرَ مُنْحَرِفٍ وَهِيَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَاءُ فَاعْتَصِمِ

قوله: «فَهِيَ»؛ أي السُّنَّةُ، «المَحَجَّةُ» أي الطَّرِيقَةُ الواضحة البَيِّنَةُ المستقيمة،
«فاسْلُكْ غَيْرَ مُنْحَرِفٍ»؛ أي الزَّمِ صِرَاطَ السُّنَّةِ المستقيم ولا تنحرف عنه ذات
اليمين ولا ذات الشِّمال.

«وهي الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَاءُ»؛ كما جاء في حديث ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»^(١).

الحَنِيفِيَّةُ؛ لِأَنَّ فِيهَا الْمِيلَ عَنْ كُلِّ ضَلَالٍ وَبَاطِلٍ، وَالسَّمْحَةُ؛ لِأَنَّ فِيهَا
اليسر والسَّهولة، وعدم العنت والتَّعسير والمشقَّة.

وقوله: «فَاعْتَصِمِ»؛ أي اعتصم بالسُّنَّةِ والزَّمِهَا وتمسَّكْ بِهَا وَعَضَّ عَلَيْهَا بناجذيك.

* قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥٩ - وَحَيٍّ مِنَ اللَّهِ كَالْقُرْآنِ شَاهِدُهُ فِي سُورَةِ النَّجْمِ فَاحْفَظْهُ وَلَا تَرِمِ

يقول: «وَحَيٍّ مِنَ اللَّهِ كَالْقُرْآنِ» أي السُّنَّةُ وَحَيٌّ مِنَ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مثل
القرآن، مثل ما أَنَّ الْقُرْآنَ وَحَيٌّ مِنَ اللَّهِ؛ فَالسُّنَّةُ كَذَلِكَ وَحَيٌّ مِنَ اللَّهِ، مَا الدَّلِيلُ؟ قَالَ:

«شَاهِدُهُ فِي سُورَةِ النَّجْمِ»؛ أي الشَّاهِدُ والدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّجْمِ فِي أَوَّلِهَا: ﴿وَمَا

يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عِنْدَ أَبِي

دَاوُدَ وَأَحْمَدَ وَالْحَاكِمَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ (١/ ٢٣٦)، وَحَسَّنَهُ لغيره الألباني في «الأدب المفرد» برقم (٢٨٨).

رسول الله ﷺ؛ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أكتب كل شيء ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟! فأمسكت عن الكتاب، فذكرت لرسول الله ﷺ فأومأ بإصبعه إلى فيه فقال: «اكتب؛ فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»^(١).
«فاحفظه ولا تهم»؛ أي احفظ ذلك، وإياك وأن تقع في الوهم والغلط.

* ثم قال ﷺ:

١٦٠ - خير الكلام ومن خير الأنام بدا من خير قلب به قد فاه خير فم
قوله: «خير الكلام»؛ أي سنته - عليه الصلاة والسلام - وهديه خير الكلام وأحسنه، قال - عليه الصلاة والسلام -: «إن أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ»^(٢).

«ومن خير الأنام بدا»؛ أي جاء هذا الخير وظهر من خير الأنام محمد - صلوات الله وسلامه عليه -.

«من خير قلب»؛ فقلبه - عليه الصلاة والسلام - خير القلوب وأطيبها وأزكاها.
«به»؛ أي بهذا الخير «قد فاه خير فم»؛ أي فم النبي - عليه الصلاة والسلام -.
هذه أربعة وجوه في الخير جمعها في هذا البيت: خير كلام من خير الأنام، وخير قلب، وخير فم.

* ثم قال ﷺ:

١٦١ - وهي البيان لأسرار الكتاب فبالإغراض عن حكمها كن غير متيسر

(١) رواه أبو داود برقم (٣٦٤٨)، وأحمد (١٦٢/٢)، والحاكم (١٨٧/١).

(٢) رواه النسائي برقم (١٥٧٨)، وصححه الألباني.

أي: أَنَّ السُّنَّةَ شارحة للقرآن ومفسرة له.

«فبالإعراض عن حُكْمِهَا كُنْ غَيْرَ مَتَّبِعٍ»؛ أي: كن غير متَّصِفٍ
بالإعراض عن حكم السُّنَّةِ، بل احرص على لزومها والتَّمسُّكِ بها، واحذر
أشدَّ الحذر أن تكونَ متَّصِفًا بالإعراض عنها.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٦٢- حَكَمَ نَبِيِّكَ وَأَنْقَذَ وَارِضَ سُنَّتِهِ مَعَ الْيَقِينِ وَحَوْلَ الشَّكِّ لَا تَحْمِ
قوله: «حَكَمَ نَبِيِّكَ»؛ أي فيما تأتي وتذر ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

«وأنقذ»؛ من الانقياد، وهو الالتزام والتَّمسُّك.

«وارض سُنَّتَهُ»؛ أي حلَّ قلبك بالرضا بسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، «مَعَ الْيَقِينِ» دون شكٍّ
ولا ريب: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]؛
أي أيقنوا ولم يشكُّوا، «وَحَوْلَ الشَّكِّ»؛ أي فيما جاء عنه، وفي هديه، وفي سُنَّتِهِ -
عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - «لَا تَحْمِ»؛ أي لا تقرب.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٦٣- وَاغْضُضْ عَلَيْهَا وَجَانِبَ كُلِّ مُحَدَّثَةٍ وَقُلْ لِيَذِي بَدْعَةٍ يَدْعُوكَ لَا نَعْمِ
قوله: «وَاغْضُضْ عَلَيْهَا»؛ أي على السُّنَّةِ بالنَّوَاجِذِ، «وَجَانِبَ كُلِّ مُحَدَّثَةٍ»
أي: ابتعد عن جميع البدع، كما في حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: وعظنا
رسولُ الله ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت

منها القلوب، فقال رجل: إنَّ هذه موعظة مودِّع؛ فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مِنْ يَعْشُ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّدِينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنْ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» رواه أبو داود، والتِّرْمِذِيُّ، وابن ماجه، وأحمد^(١).
«وَقُلْ لِيذِي بَدْعَةٍ يَدْعُوكَ لَا نَعَم»؛ أي لا أقبل منك ولا أستمع إليك.

* قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٦٤- فما لِيذِي رِيَّةٍ فِي نَفْسِهِ حَرْجٌ مِمَّا قَضَى قَطُّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ قَسَمٍ قوله: «فَمَا لِيذِي رِيَّةٍ»؛ أي صاحب الشك الذي «فِي نَفْسِهِ حَرْجٌ»، وفي صدره ارتياب «مِمَّا قَضَى» أي مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - وهديه القويم، فمن كان بهذه الصِّفَةِ فما له «فِي الْإِيمَانِ مِنْ قَسَمٍ»؛ أي من حظٍّ ولا نصيب، والدليل قال:
١٦٥- (فَلَا وَرَبِّكَ) أَقْوَى زَاجِرًا لِأَوَّلِي الْأَبَابِ أَلْ أَلْبَابِ وَالْمُلْحِدُ الزَّنْدِيقُ فِي صَمَمٍ «فَلَا وَرَبِّكَ أَقْوَى زَاجِرًا لِأَوَّلِي الْأَبَابِ»؛ أي: أَقْوَى زَاجِرًا عَنْ ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، «وَالْمُلْحِدُ الزَّنْدِيقُ فِي صَمَمٍ»؛ أي صُمَّتْ أذناه عن سماع هذا الحقِّ المبين والنُّور العظيم.

(١) رواه أبو داود برقم (٤٦٠٧)، والتِّرْمِذِيُّ برقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه برقم (٤٢)، وأحمد برقم (١٧١٨٢)، وصحَّحه الألباني في «السُّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» برقم (٩٣٧).

فصل في الفرائض والآلة والتحذير من العلوم المبتدعة

لما أنهى رَحِمَهُ اللهُ الوصية بكتاب الله - جلَّ وعلا - وسنة نبيه ﷺ عقد هذا الفصل للحث على العناية بعلم الفرائض وعلوم الآلة، وللتحذير من العلوم المبتدعة التي من تعلّمها أفسدت عليه دنياه وأخراه.

وبداً - أولاً - بالحث على تعلّم علم الفرائض، فقال رَحِمَهُ اللهُ:

١٦٦- وبالفرائض نصف العلم فاعن كما أوصى الإله وخير الرسل كلهم

قوله: «وبالفرائض»؛ أي «علم الفرائض»، ويسمى - أيضاً -: «علم المواريث»، ويسمى «علم التركات»، وهو «علم بأصول من فقه وحساب تعرف حق كل في التركة»^(١)، وهو من علوم الفقه ولا يخلو من ذكره كتاب فقهي؛ لكن لأهميته ومكانته العظيمة أفرده عدد من أهل العلم بالتأليف.

وقوله: «نصف العلم»؛ مبني على حديث يروى في ذلك عن رسول الله ﷺ؛ لكنه لا يصح، خرّجه ابن ماجه والحاكم وغيرهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلَّمُواهَا؛ فَإِنَّهُ نِصْفُ

(١) «الدّر المختار» (٧ / ٣٤٩).

الْعِلْمِ، وَهُوَ يُنْسَى، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنَزَّعُ مِنْ أُمَّتِي»^(١).

وقوله: «فاغن»؛ أي اجعل هذا العلم محلَّ عنايتك، وموضع اهتمامك.

«كما أوصى الإله وخيرُ الرُّسلِ كُلِّهِمْ»؛ أي كما أوصى الله ﷻ بهذا العلم،

وأوصى به رسوله محمد ﷺ خير رسل الله أجمعين.

❖ قال رحمه الله:

١٦٧ - مِنْ فَضْلِهَا أَنْ تَوَلَّى اللَّهُ قِسْمَتَهَا وَلَمْ يَكِلْهَا إِلَى غَرْبٍ وَلَا عَجَمٍ

أي: مِنْ فَضْلِ الْفَرَائِضِ وَشَرَفِهَا وَمَكَانَتِهَا الْعَظِيمَةِ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ -

جَلَّ وَعَزَّ - تَوَلَّى بِنَفْسِهِ - سَبَّحَانَهُ - قَسَمَتَهَا؛ فَأَنْزَلَ فِي ذَلِكَ آيَاتٍ تُتْلَى فِي كِتَابِهِ،

تَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا عِنْدَ النَّازِمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِي هَذَا الْبَيْتَ.

وقوله: «وَلَمْ يَكِلْهَا إِلَى غَرْبٍ وَلَا عَجَمٍ»؛ أي لم يكل الله تعالى قسمة

الفرائض إلى أحدٍ من النَّاسِ، بل تَوَلَّى ذَلِكَ - جَلَّ وَعَلَا - بِنَفْسِهِ.

❖ ثُمَّ قَالَ رحمه الله:

١٦٨ - (يُوصِيكُمُ اللَّهُ) آيٍ بَعْدَهَا^(٢) اتَّصَلَتْ وَفِي الْكَلَالَةِ أُخْرَى فَادْنُ وَاغْتَنِمِ

يشير رحمه الله إلى الآيات القرآنية التي ورد فيها قسمة الفرائض، وهي ثلاث آيات.

(١) رواه ابن ماجه برقم (٢٧١٩)، والحاكم برقم (٧٩٤٨)، والدارقطني (٦٧/٤).

وفي سنده حفص بن عمر بن أبي العطف، قال البخاري في «الضعفاء» له (ص ٤٥):

«منكر الحديث»، وقال الحافظ في «التلخيص الحبير» (٧٩/٣): «متروك».

(٢) في نسخة: «من بعدها».

فقوله: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ» يشير به إلى قول الله تعالى في سورة النساء:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

وقوله رَحِمَهُ: «آي بَعْدَهَا اتَّصَلَتْ»؛ أي: والآية التي تليها متصلة بها،

وهي قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

وقوله: «وفي الكَلَالَةِ أُخْرَى»؛ يشير به إلى ما جاء في آخر آية من النساء،

وهي قول الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَلَةِ إِنْ أَمْرُؤَا هَٰلِكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

فهذه ثلاث آيات كريمات وردت في سورة النساء: آيتان متصلتان، وآية منفصلة عنهما جاءت في آخر السورة.

وقد اشتملت هذه الآيات الثلاث على أحكام الموارث:
الآية الأولى: في ميراث عمودي النسب: أصول الميِّت وفروعه.
والآية الثانية: في ميراث الزوجين والإخوة لأُمّ.
والآية الثالثة: في ميراث الإخوة الأشقاء والإخوة لأب.

وقوله رَحِمَهُ: «وفي الكلالة»؛ المراد بـ«الكلالة»: الميِّت يموت وليس له ولد صلب، ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، فمن كان من الأموات كذلك يُقال له: «الكلالة».

وقوله: «فادُّنْ واغْتَنِمْ»؛ أي اقرب من هذه الآيات وتدبّر في المعاني والمضامين وتفقه؛ تَفَرَّزْ بأعظم غنيمة.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ:

١٦٩- وَخُذْ إِذَا شِئْتَ مَا قَدْ تَسْتَعِينُ بِهِ مِنْ آلَةٍ تُلْفِيهَا حَلًّا لِنُجْبِهِمْ
١٧٠- كَالنَّخْوِ وَالصَّرْفِ وَالتَّجْوِيدِ مَعَ لُغَةٍ يُدْرَى بِهَا حَلٌّ مَا يُخْفَى مِنَ الْكَلِمِ

هذان البيتان فيهما الحثُّ على علوم الآلة.

والعلوم تنقسم إلى قسمين:

- علوم آلة: وهي العلوم التي لا تُقصد لذاتها، وإنما هي علمٌ خادمٌ لغيره.

- وعلوم ليست علوم آلة: وهي العلوم المقصودة لذاتها.

وأشار في البيت الأول إلى علم الآلة، وعرف به وذكر فائدته.

فتعريفه لعلم الآلة في قوله: «تَسْتَعِينُ بِهِ»؛ بَيَّنَّ أَنَّهُ عِلْمٌ خَادِمٌ، يعين على فهم الكتاب والسنة، ليس مقصودًا لذاته.

وقوله: «تُلْفِيهَا»؛ أي تجدها، وأصلها: «تُلْفِيهَا»؛ لكن حُذِفَت الياء؛ لَأَنَّهُ جواب الأمر، وهو «خُذْ».

وقوله: «حَلًّا لِمُنْبِهِم»؛ أي تجدها حلًّا لما أَشْكَلَ أو أَغْلَقَ عليك فهمه أو لم تتبيَّن المراد به، يقال: «أبهم الأمر»؛ أي اشتبه فلم يُدَرَّ كيف يُؤْتَى له.

وقوله: «كَالتَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَالتَّجْوِيدِ»؛ هذه بعض علوم الآلة الَّتِي ينبغي على طالب العلم أن يُعْنَى بها؛ لَأَنَّ فِيهَا حَلًّا لما استبهم عليه، ولما أَغْلَقَ عليه فهمه، وهذه ذكرها على سبيل المثال لا الحصر.

و«النَّحْو» هو: العلم بالقواعد الَّتِي يُعْرِفُ بها أَحْكَامُ أَوَاخِرِ الْكَلِمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ فِي تَرَاكِيِبِهَا مِنَ الْإِعْرَابِ وَالْبِنَاءِ وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ.

و«الصَّرْف» هو العلم بالقواعد الَّتِي تُعْرِفُ بها كَيْفِيَّةُ صِيَاغَةِ الْأَبْنِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَحْوَالُ هَذِهِ الْأَبْنِيَّةِ الَّتِي لَيْسَتْ إِعْرَابًا وَلَا بِنَاءً.

و«التَّجْوِيد» هو العلم الَّذِي يُعْرِفُ بِهِ إِخْرَاجَ كُلِّ حَرْفٍ مِنْ مَخْرَجِهِ، وَإِعْطَاؤَهُ حَقَّهُ وَمُسْتَحَقَّهُ مِنَ الصِّفَاتِ.

* قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٧١- وَاحْذَرُ قَوَانِينَ أَرْبَابِ الْكَلَامِ فَمَا بِهَا مِنَ الْعِلْمِ غَيْرُ الشَّكِّ وَالتُّهَمِ

هذا البيت والأبيات التي بعده في التحذير من علم الكلام الباطل،
وقوانين المتكلمين الفاسدة.

قوله: «فاحذر قوانين أرباب الكلام»؛ أي كُنْ على حذرٍ - يا طالب العلم - من قوانين علماء الكلام الباطل، وهي القواعد التي وضعوها لتحريف كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وردّ ما يخالف أهواءهم ممّا جاء في كتاب الله وسنة نبيه - صلوات الله وسلامه عليه -، وسيأتي بيان المراد بعلم الكلام الباطل الذي ذمّه السلف وحذّروا منه أشدّ التحذير، وسيأتي - أيضًا - ذكر بعض النقول عنهم في ذلك.

قوله: «فما بها من العلم غير الشك والتهم»؛ أي أنّ هذا العلم ليس فيه إلا الشك، ولا يجني مَنْ حصّله من ورائه إلا الشكوك والتهم والظنون الفاسدة، والأوهام الكاسدة، لا يجني من ورائه علمًا ولا تحقيقًا، وستأتي شهادة المشتغلين بهذا العلم بأنفسهم على هذا.

✽ قال رحمه الله:

١٧٢ - قاموس فلسفة مفتاح زندقية كم من ملّم به قد باء بالندم

قوله: «قاموس فلسفة مفتاح زندقية»؛ أي أنّ علم الكلام هو في حقيقته وواقع أمره؛ قاموس فلسفة ومفتاح زندقية، وهذه إشارة إلى فساد هذا العلم في مقدّماته ونتائجها؛ أمّا مقدّماته: فهو - كما أشار الشيخ - قاموس فلسفة: صفّ كلام، وجمع جمل، وترتيب ألفاظ وحروف على غير هدى.

وأما نتائجه: فهو مفتاح زندقه، يفتح على المشتغل به باب زندقه وضلال، وسيأتي من كلام السلف ما يعضد ذلك ويشهد له.

قوله: «كَمْ مِنْ مُلِمٍّ بِهِ قَدْ بَاءَ بِالنَّدَمِ»؛ أي كثير من الملمين بهذا العلم الذين توسعوا فيه، وتضلعوا منه باءوا بالندم، وكانت نتيجةهم الأسف على أوقات ضاعت وأزمنة مضت عليهم في الاشتغال بهذا العلم الباطل، وسيأتي ذكر بعض النقول عن هؤلاء الذين باءوا بالندم إثر اشتغالهم به.

❖ قال رحمه الله:

١٧٣- رَأُوا بِهَا عَزَلَ حُكْمِ اللَّهِ وَاقْتَرَحُوا لِلْحَقِّ رَدًّا وَإِنْفَادًا لِحُكْمِهِمْ
قوله: «رَأُوا بِهَا»؛ أي قصدوا بالقوانين والكلليات التي وضعوها «عزَلَ حُكْمِ اللَّهِ»؛ أي تعطيل أحكام الله - سبحانه وتعالى -، «وَاقْتَرَحُوا لِلْحَقِّ رَدًّا»؛ أي أرادوا - أيضًا - بها ردَّ الحقِّ الثَّابِتِ في كتاب الله وسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فهي علوم تؤدي إلى تعطيل الأحكام الشرعية، وجحد الحقائق الثابتة في الكتاب والسنة، «وَإِنْفَادًا لِحُكْمِهِمْ»؛ أي ومما قصدوه بهذا العلم إنفاذ ما توصلوا إليه بالآراء الفاسدة والأوهام الباطلة.

❖ قال رحمه الله:

١٧٤- يُرْوَكُ^(١) أَنْ تَزَنَ الْوَحْيَيْنِ مُجْتَرِّئًا عَلَيْهِمَا بِعُقُولِ الْمُغْفَلِ الْعَجِمِ

(١) مضارع أَرَوَكَ أي يجعلونك ترى ذلك، وأصلها يُرَوْنَكَ وحذفت النون من غير ناصب ولا جازم لضرورة الشعر.

قوله: «يُرَوِّكُ أَنْ تَزْنَ الْوَحَيْنَ مُجْتَرِّئًا عَلَيْهِمَا»؛ أي يريد منك أربابُ الكلام بحُثِّهم وترغيبهم في هذا العلم؛ ليكون لك شأن أن تجترأ وتقيس نصوص الكتاب والسُّنَّةَ بالعقل وتحتكم إلى تلك القوانين التي وضعوها، وأن تجعل العقل ميزان الوحيين وتحاكمهما إليه، فما قبله العقل يُقبل وما لم يقبله يردُّ، وهذا ما يُعرف بقانون التَّأويل، وهو قانون كلِّ عند أرباب الكلام الباطل.

وقوله: «بِعُقُولِ الْمَغْفِلِ»؛ أي بالعقول المليئة بالغفلة والجهل والضلال، «الْعَجَمِ»؛ أي أن أكثر هؤلاء من الأعاجم، وفي مقدِّمتهم الجهم بن صَفْوَان ومن كانوا على شاكلته.

❖ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٥- وَأَنْ تُحَكِّمَهَا فِي كُلِّ مُشْتَجَرٍ إِذْ لَيْسَ فِي الْوَحْيِ مِنْ حُكْمٍ لِحُكْمٍ
قوله: «وَأَنْ تُحَكِّمَهَا فِي كُلِّ مُشْتَجَرٍ»؛ أي: ويُريد منك أهل الكلام أن تحكِّم تلك القوانين في كلِّ نزاع وخلاف وخصومة.

قال ابن منظور: «وَأَشْتَجَرَ الْقَوْمُ وَتَشَاجَرُوا: أَي تَنَازَعُوا، وَالْمُشَاجَرَةُ الْمَنَازَعَةُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، قال الزَّجَّاجُ: أَي فِيمَا وَقَعَ مِنَ الْإِخْتِلَافِ فِي الْخُصُومَاتِ»^(١).

(١) «لسان العرب» (٦/٦٣).

وقوله: «إِذْ لَيْسَ فِي الْوَحْيِ مِنْ حُكْمٍ لِمَحْتَكِمٍ»؛ هذا كلام هؤلاء يريدون منك أن تحتكم إلى قوانينهم؛ لأنه ليس في الوحي - بزعمهم - من حكم لمحتكم، وإنما الحكم على فهم هؤلاء في علم الكلام الباطل، وهذا يبيّن حال هؤلاء الشنيعة، وتقريراتهم الباطلة الفاسدة.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٦- أَمَّا الْكِتَابُ فَحَرِّفْ عَنْ مَوَاضِعِهِ إِذْ لَيْسَ يُعْجِزُكَ التَّحْرِيفُ لِلْكَلِمِ

هذه وصيّة هؤلاء في القرآن الكريم: تحريف له، وصرف له عن دلالاته، وكلُّ آية تخالف عقول هؤلاء يزعمون أنّ ظاهرها غير مراد، وإنما المراد كذا وكذا؛ ممّا يتوصّل إليه هؤلاء بالأهواء الباطلة.

وقوله: «إِذْ لَيْسَ يُعْجِزُكَ التَّحْرِيفُ لِلْكَلِمِ»؛ يعني ليس أمراً معضلاً، ولا صعباً؛ فهذه وصيّتهم بالقرآن الكريم تلقّي آياته بالتّحريف.

* ثمّ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٧- كَذَا الْأَحَادِيثُ أَحَادٌ وَلَيْسَ بِهَا بُرْهَانٌ حَقٌّ وَلَا فَضْلٌ مُخْتَصِمٌ

وهذه وصيّتهم بالسُّنّة، وهي القول بأنّها أخبار آحاد، وأخبار الآحاد لا تقبل في الاعتقاد، هذه المقالة لم تُعرف إلّا عن المعتزلة، وأيّ كتاب وجدت فيه هذه المقالة فهو متأثر بمقالة المعتزلة.

قال أبو المظفر السَّمْعَانِي: «وإنّما هذا القول الَّذِي يَذْكُرُ أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ لَا يَفِيدُ الْعِلْمَ بِحَالٍ، وَلَا بَدَّ مِنْ نَقْلِهِ بِطَرِيقِ التَّوَاتُرِ لَوْ قَوَّعَ الْعِلْمُ بِهِ؛ شَيْءٌ اخْتَرَعْتَهُ

القدرية والمعتزلة، وكان قصدهم منه ردُّ الأخبار»^(١).

فاشتمل البيتان على وصيتين لأرباب الكلام فيما يتعلق بالكتاب والسنة، وقد جمع بين هاتين الوصيتين أحد رؤوس الجهمية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وقيل عن بعض رؤوس الجهمية - إمَّا بشر المريسي أو غيره - : أَنَّهُ قال : ليس شيءٌ أنقضَ لقولنا من القرآن، فأقروا به في الظاهر، ثمَّ صرَّفوه بالتأويل، ويقال إِنَّه قال: إذا احتجُّوا عليكم بالحديث فغالطوهم بالتكذيب، وإذا احتجُّوا بالآيات فغالطوهم بالتأويل»^(٢).

* ثمَّ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٨ - وَقَدْ أَبَى اللهُ إِلَّا نَصَرَ مَا خَذَلُوا وَكَسَرَ مَا نَصَرُوا مِنْهُمْ عَلَى رَغَمِ قوله: «وَقَدْ أَبَى اللهُ إِلَّا نَصَرَ مَا خَذَلُوا»؛ أي هؤلاء خذلوا الكتاب والسنة، فأبى الله عَزَّوَجَلَّ إِلَّا النَّصْرَ لكتابهِ وسننهِ ونبيِّهِ ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله: «وَكَسَرَ مَا نَصَرُوا مِنْهُمْ عَلَى رَغَمِ»؛ أي أبى الله عَزَّوَجَلَّ إِلَّا إِبْطَالَ وإِزْهَاقَ ما نصره من الآراء الفاسدة، والأوهام الكاسدة، والظُّنون الباطلة، والعقائد المنحرفة على الرِّغم منهم.

(١) انظر: «الحجة في بيان المحجة» لقوام السنة (٢/ ٢١٥).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ٢١٧ - ٢١٨)، وانظر: «الصَّواعق المرسلة» لابن القيم (٣/ ١٠٣٨).

وهذه الأبيات - كما عرفنا - جاءت في سياق ذم علم الكلام والتحذير منه، وإبطال ما عليه المتكلمون، وبيان مقاصدهم بهذا العلم الفاسد الباطل. وعلم الكلام الذي حذر منه السلف وذمّوه وبيّنوا خطورته وفساد نتائجه هو: الخوض في العقيدة أو في الدين عموماً بالرأي المجرد والعقل المحض، أمّا كلام الإنسان بالخير والفائدة في حدود الكتاب والسنة؛ فهذا لا يُذمّ. والعقل له حدودٌ معيّنة ونطاقٌ محدّد لا يمكنه تجاوزه، وإذا جاوزه وقع في الضلال، ولهذا إذا حاول المرء إدراك حدود ما وراء عقله؛ فإنّه يخطئ ويتكلّف ما ليس له، والله - سبحانه - لم يؤت الإنسان من العلم إلّا قليلاً، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِشِرَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال ابن حمدان في كتابه «المفتي والمستفتي»^(١): «وعلم الكلام المذموم: هو أصول الدين؛ إذا تكلم فيها بالمعقول المحض أو المخالف للمعقول الصريح الصحيح».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والسلف إذا ذمّوا أهل الكلام، وقالوا: علماء الكلام زنادقة، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح، فلم يريدوا به مطلق الكلام، وإنّما هو حقيقة عرفيّة فيمن يتكلّم في الدين بغير طريقة المرسلين»^(٢).

فمراد السلف بـ«الكلام المذموم»: «هو كلام الجهميّة الذين نفّوا به

(١) (ص ٥٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٦٠-٤٦١).

الصفات وزعموا أنَّهم يثبتون به حدوث العالم وهي طريقة الأعراض»^(١).
وَذَكَرُ شيخ الإسلام ابن تيمية هنا للجهمية ليس لكون هذا الأمر مختصاً
بهم، وإنما لكون هؤلاء أبرز من اشتهر بهذا العلم الباطل.

♦ ومن الوجوه التي يُعلم بها فساد علم الكلام وبطلانه:
أولاً: أَنَّهُ قولٌ على الله بغير علم، ومن أعظم المحرمات: القول على الله
بلا علم.

الثاني: أَنَّ فيه تحريفاً لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، وتكذيباً لهما.

الثالث: أَنَّهُ ليس من الدين، ولو كان من الدين لبيَّنه الرسول الكريم ﷺ.

الرابع: اشتماله على الباطل في مقدماته ونتائجه.

الخامس: اشتماله على العقائد الباطلة، والآراء المنحرفة، والشُّكوك والظُّنون.

♦ وفيما يلي سياق بعض النُّقول عن علماء السلف في ذمِّ علم الكلام:

سُئِلَ الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: عَمَّا أحدث النَّاسُ من الكلام في الأعراض
والأجسام؟ فقال: «مقالات الفلاسفة».

وقال: «عليك بالآثر وطريقة السلف، وإياك وكلَّ محدثة؛ فإنَّها بدعة!»^(٢).

وقال أيضاً: «أتانا من خراسان ضيفان كلاهما ضالَّان: الجهميَّة والمشبهة»^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٤٧٣).

(٢) «ذمُّ الكلام وأهله» (٥ / ٢٠٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٤٧٣).

وقال أبو يوسف رَحِمَهُ اللهُ: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم»^(١).

وقال - أيضًا - رَحِمَهُ اللهُ: «من طلب الدين بالكلام تَزُنْدَقُ»^(٢).

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «الكلام في الدين كله أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه»^(٣).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنَّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْأَسْوَاقِ، وَيُقَالُ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ»^(٤)، وقال أيضًا: «ما جهل النَّاسُ، وَلَا اخْتَلَفُوا إِلَّا لِتَرْكِهِمْ لِسَانَ الْعَرَبِ، وَمِيلِهِمْ إِلَى لِسَانِ أَرِسْطُو طَالِيْس»^(٥).

وقال أيضًا: «لَأَنْ يَبْتَلِيَ اللَّهُ الْمُرَّاءَ بِكُلِّ ذَنْبٍ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مَا عَدَا الشُّرْكَ خَيْرَ لَهُ مِنَ الْكَلَامِ»^(٦).

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «علماء الكلام زنادقة، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح»^(٧).

(١) «تاريخ بغداد» (٧ / ٦١)

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (١ / ١١٧).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١ / ١٦٨).

(٤) «الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار» (١ / ١٣٠).

(٥) «صون المنطق» (ص ١٥).

(٦) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١ / ١٤٦)، و«الحجة في بيان المحجة» (١ / ١٠٤).

(٧) «مجموع الفتاوى» (٦ / ٢٤٣).

وقال الإمام ابن عبد البر رحمته الله: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع أهل الأمصار؛ أن أهل الكلام أهل بدع وزيف، لا يعدُّون عند الجميع في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر والمتفقهة فيه»^(١).

ولقد شهد أئمة الكلام المذموم على أنفسهم بالحيرة والشك، ومن ذلك قول الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضالُّ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دُنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عُمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال: «لقد تأملت الطُّرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطُّرق طريقة القرآن...، ثم قال: ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»^(٢).

وقال الشهرستاني مبينًا أنه لم يجد في الفلسفة وعلم الكلام إلا الحيرة والشك:

لعمري لقد طُفَّت المعاهد كلُّها وسيَّرتُ طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعًا كفَّ حائرٍ على ذقنٍ أو قارعًا سنَّ نادم^(٣)

ومقصوده بـ«المعاهد»: دور المتكلمين التي أُسست لنشر علم الكلام وبثه،

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢ / ١٩٤).

(٢) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٢ / ١٣٥)، و«درء التعارض» (١ / ١٦٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤ / ٧٣)، و«درء التعارض» (١ / ١٥٩).

فهو يخبر أنه لم يجد في كل هذه المعاهد التي مرَّ عليها وطاف بها إلا أحد شخصين: إما شخص جالس حائر لم يصل من خلال هذا العلم إلى يقين، أو شخص نادم أنه دخل في هذا العلم.

قال الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ معارضا هذين البيتين:

لعلك أهملت الطَّوافَ بمَعهد الرِّسول ومن لاقاه من كلِّ عالم
فما حارَ من يهْدِي بهدي مُحَمَّدٍ ولستَ تراه قارعا سنَّ نادم

* ثمَّ قال النَّازم رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٩ - كَذَا الْكُهَّانَةُ وَالتَّنْجِيمُ إِنَّمَا كُفْرَانٍ قَدْ عَبَّأَ بِالنَّاسِ مِنْ قِدَمٍ

هذا البيت والأبيات التي بعده يحذّر فيها رَحِمَهُ اللهُ - أيضًا - من علوم باطلة أخرى، تفسد على النَّاس عقائدهم وأديانهم.

قوله: «كَذَا الْكُهَّانَةُ وَالتَّنْجِيمُ»؛ أي: احذّر كذلك الكهانة والتنجيم، «الْكُهَّانَةُ» المراد بها: ادّعاء علم الغيب كالإخبار بما سيّقع في الأرض، والأصل فيها: استراقُ الجنِّ السَّمْعَ من كلام الملائكة؛ فتلقّيه في أذن الكاهن.

و«الكاهن»: لفظ يُطلق على العرّاف، والذي يضرب بالحصى والمنجم^(١).

وقال البغوي: «الكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيّبات في المستقبل، وقيل: الذي يُخبر عمّا في الضمير»^(٢).

(١) انظر «فتح الباري» (١٠/ ٢٦٧).

(٢) «فتح المجيد شرح كتاب التّوحيد» (٣١٦).

وقد جاء في السُّنَّة أحاديث في التحذير من الكهانة، منها ما رواه البزار^(١) عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطَيِّرَ لَهُ أَوْ تَكْهَنَ أَوْ تُكْهَنَ لَهُ أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»، قال المنذري: «رواه البزار بإسناد جيّد»^(٢).
وعن أبي هريرة والحسن عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» رواه الإمام أحمد^(٣) بإسناد حسن.

وأما «التنجيم»: فالمراد به - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله -: «الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية»^(٤).

ومما ورد في ذمّه ما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ زَادَ مَا زَادَ»^(٥)، وإسناده صحيح.

ومعنى قوله: «زَادَ مَا زَادَ»؛ أي كلما زاد في علم التنجيم؛ زاد وقوعاً في السحر والباطل.

وقوله: «إِنَّهُمَا كُفْرَانٍ قَدْ عَبَثَا فِي النَّاسِ مِنْ قَدَمٍ»؛ أي أن الكهانة كُفْرٌ

(١) «مسند البزار» برقم (٣٥٧٨).

(٢) «الترغيب والترهيب» (٤ / ١٧).

(٣) «المسند» (٢ / ٤٢٩).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣٥ / ١٩٢).

(٥) رواه أحمد برقم (٢٠٠٠)، وأبو داود برقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه برقم (٣٧٢٦).

والتنجيم كُفْرٌ، وليس هو علماً جديداً، وإنما هو من قديم يعبَثُ بالنَّاسِ،
ويفسد عليهم عقائدهم وأديانهم.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «واعلم أنَّ التنجيم على ثلاثة أقسام:
أحدها: ما هو كفرٌ بإجماع المسلمين، وهو القول بأنَّ الموجودات السُّفليَّة
مرَكَّبة على تأثير الكواكب والرُّوحانيات، وأنَّ الكواكب فاعلة مختارة، وهذا
كفرٌ بإجماع المسلمين.

الثاني: الاستدلالُ على الحوادث الأرضيَّة بمسير الكواكب واجتماعها
وافتراقها ونحو ذلك، ويقول: إنَّ ذلك بتقدير الله ومشيتته، فلا ريب في تحريم
ذلك، واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك.

الثالث: تعلُّم المنازل - منازل الشَّمس والقمر -؛ للاستدلال بذلك على
القبلة وأوقات الصَّلوات والفصول، وهذا اختلف فيه السَّلف؛ فكرهه قتادة
وسفيان بن عُيَيْنَةَ، وأجازه أحمد وإسحاق وغيرهما»^(١).

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٨٠ - إسنادهَا حَرْبُ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ كَمَا مُتَوْنَهَا أَكْذَبُ الْمَنْقُولِ مِنْ كَلِمِ

قوله: «إسنادهَا حَرْبُ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ»؛ أي أنَّ مصدرَ ومنبَع هذه العلوم
ومرجعها الأخذ عن إبليس اللعين وجنوده، «كَمَا مُتَوْنَهَا أَكْذَبُ الْمَنْقُولِ مِنْ
كَلِمِ»؛ أي وأيضاً محتواها ومضمونها أكذب المنقول من كَلِمِ، فما يقوله الكهَّان

(١) «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٤١ - ٤٤٨) باختصار.

سنده الشياطين، ومتنه الكذب والباطل.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٨١- مَا لِلتُّرَابِ وَمَا لِلْغَيْبِ يُدْرِكُهُ مَا لِلتَّصَرُّفِ وَالْمُخْلُوقِ مِنْ عَدَمٍ

يشير هنا رَحِمَهُ اللَّهُ إلى وهاء ما عليه هؤلاء الكهنة والمنجمين ومن تأثر بهم.

فقوله: «ما للتُّراب وما للغيب»؛ يعني أي صلة وارتباط بين التُّراب وبين

معرفة المغيبات؟!

ومن أفعال الكهنة: الخطُّ في الأرض، يخطُّون خطوطاً في التُّراب، ثمَّ من خلال

هذه الخطوط يقولون: يحصل كذا، ولا يحصل كذا، أو يموت فلان.. إلى آخره.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٨٢- لَوْ كَانَتِ الْجِنَّ تَدْرِي الْغَيْبَ مَا لَبِثَ دَهْرًا تُعَالِجُ أَصْنَافًا مِنَ الْأَلَمِ

يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْنَا عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا

دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي

الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤]؛ لأنَّ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُبِضَ ومات وهو متكئٌ على

عصاه، وكانت الجنُّ تعمل بجدٍّ ونشاطٍ يظنُّونه حيًّا، ولَمَّا جاءت دَابَّةُ الْأَرْضِ

وأكلت المنسأة التي هو متكئٌ عليها؛ سقط فأدركت الجنُّ حينئذٍ أَنَّهُ كَانَ مَيِّتًا

منذ وقت، ولم يكونوا يعلمون ذلك.

فلو كانت الجنُّ تدري الغيب ما لبث هذا الدهر تتعب وتنصب، كما

أخبر الله - سبحانه - عنهم في قوله: ﴿مَا لِيَتُوبُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(١).

* قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

١٨٣ - أَمَّا النُّجُومُ فَزَيْنٌ لِلسَّمَاءِ وَ(رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ) طَرْدًا لاسْتِمَاعِهِمْ
١٨٤ - كَمَا بِهَا يَهْتَدِي السَّارِي لِوَجْهَتِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَيْثُ السَّيْرُ فِي الظُّلُمِ

يشير رَحْمَةُ اللَّهِ هنا إلى فوائد النجوم، وأنها خلقت لثلاث:

الأولى: زينٌ للسماء.

والثانية: رجومًا للشياطين.

والثالثة: يهتدى بها في السير في البرِّ والبحر.

وقوله «رجومًا»؛ الأصل أن يكون مرفوعًا؛ لأنه معطوف على «زين»،
لكن لعل الناظم ذكره على سبيل الحكاية والاقتراس من القرآن، كما في قوله
تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وهذه
الآية الكريمة من أدلة البيت الأول، ومن الأدلة عليه - أيضًا - قوله تعالى: ﴿إِنَّا
زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾^(٦) وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ^(٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَا
الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ^(٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ^(٩) إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ
شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

والبيت الآخر دليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦ / ٥٠٢).

ظَلَمْتَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴿[الأنعام: ٩٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْنَجْمَ وَهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [النحل: ١٦].

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ»^(١): وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ﴾ [الملك: ٥]: «خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثَ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يَهْتَدِي بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيْبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ».

رواه البخاري معلقًا، ووصله ابن جرير الطَّبْرِي^(٢) وابن أبي حاتم^(٣) فِي «تَفْسِيرِيهِمَا»، وَزَادَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي آخِرِهِ: «وَإِنَّ نَاسًا جَهْلَةً بِأَمْرِ اللَّهِ قَدْ أَحْدَثُوا فِي هَذِهِ النُّجُومِ كَهَانَةً، مِنْ أَعْرَسَ بِنَجْمٍ كَذَا وَكَذَا، وَمِنْ سَافَرَ بِنَجْمٍ كَذَا وَكَذَا؛ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلِعَمْرِي مَا مِنْ نَجْمٍ إِلَّا يُولَدُ بِهِ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ، وَالطَّوِيلُ وَالْقَصِيرُ، وَالْحَسَنُ وَالذَّمِيمُ، وَمَا عِلْمُ هَذَا النَّجْمِ وَهَذِهِ الدَّابَّةِ وَهَذَا الطَّائِرِ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ، وَقَضَى اللَّهُ أَنَّهُ: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ولعمري لو أَنَّ أَحَدًا عِلْمَ الْغَيْبِ؛ لَعَلِمَهُ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ يَأْكُلُ فِيهَا رَغَدًا حَيْثُ شَاءَ، وَنُهِيَ عَنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ الْبَلَاءُ حَتَّى وَقَعَ بِمَا نُهِيَ عَنْهُ،

(١) (٣ / ١١٦٨).

(٢) «تفسير الطَّبْرِي» (١٧ / ١٨٥).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩ / ٢٩١٣ - ٢٩١٤).

ولو كان يُعلم الغيبُ لعِلِمَتُهُ الجنُّ حينَ ماتَ نبيُّ الله سليمان ﷺ، فلبثت تعمل له حولاً في أشدِّ الهوانِ - لا يشعرون بموته - ما دَّهَمَ على موته إلا دابة الأرض» انتهى.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٨٥- والنِّيرَانِ بِحُسْبَانٍ وَذَلِكَ تَقْ - سَدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الْمُسْبِغِ النَّعَمِ
قوله: «والنِّيرَانِ» معطوف على النُّجُوم، والمراد بهما الشَّمْس والقمر وهو من باب التَّغْلِيْب؛ لأنَّ الَّذِي يوصف بالنُّور هو القمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، ويقال لهما - أيضًا -: القَمَرَان.

والنَّاظِم رَحِمَهُ اللهُ يشير في هذا البيت إلى قول الله سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٨٦- فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَاكَ قَفَا ما لَيْسَ يَعْلَمُهُ فَهُوَ الْكَذُوبُ سِمِ
أي من تأوَّل في النُّجُوم غير ما خُلِقَتْ له، وقد تقدَّم بيان أنَّها خُلِقَتْ لثلاثة أمور: زينة للسماء، ورجومًا للشَّيَاطِين، وعلامات يُهْتَدَى بها، ولم يذكر - جَلَّ وعلا - أنَّ لها تصرفاً في ملكوت السَّمَوَات والأرض أو صلة بسعادة البشر

وشقائهم، فَمَنْ عَدَلَ عَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ فَوَائِدِهَا إِلَى الْإِسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى الْغَيْبِ فَقَدْ قَفَا مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِييَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ».

قال الشيخ سليمان في «تيسير العزيز الحميد»^(١): «أخطأ؛ أي حيث تكلم رجلاً بالغيب، «وأضاع نصييه»؛ أي حظه من عمره؛ لأنه اشتغل بما لا فائدة فيه، بل هو مضرة محضة، «وتكلف ما علم له به»؛ أي تعاطى شيئاً لا يتصور علمه؛ لأن أخبار السماء، والأمور المعية لا تعلم إلا من طريق الكتاب والسنة، وليس فيها أزيد مما تقدم انتهى.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَهُوَ الْكَذُوبُ بِسَمٍ»؛ أي سَمَهُ بالكذب، مِنْ وَسَمٍ وَسَمًا وَسِمَةً أي اجعل الكذب علامة لهؤلاء وصفة يُعرفون بها؛ و«الكَذُوبُ» على وزن فعول، وهو من صيغ المبالغة.

* قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٨٧ - كَالْمُقْتَفِينَ لِعِبَادِ الْهِيَائِلِ فِي عَزْوِ التَّصَرُّفِ وَالتَّأْيِيرِ لِلنُّجُمِ

قوله: «كَالْمُقْتَفِينَ لِعِبَادِ الْهِيَائِلِ»؛ أي أَنَّ الْمُشْتَغِلِينَ بِالتَّنَجِيمِ شَأْنَهُمْ كَشَأْنِ عِبَادِ الْهِيَائِلِ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانُوا يَعْبُدُونَ النُّجُومَ وَالْكَوَاكِبَ، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ

(١) (ص ٤٤٣ - ٤٤٤).

الْأَفْلَاقِ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِّرَ إِيَّيَّ بِرِيٍّ مِمَّا فُتِّرُكُونَ ﴿٧٨﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٨].

وإبراهيم عليه السلام كان في هذا مناظرًا لقومه قاصداً بذلك بيان فساد عقائدهم وتعلّقهم بالكواكب والنجوم والشمس والقمر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «بيان تلبس الجهمية»^(١): «كانوا يتخذون الكواكب والشمس والقمر أرباباً يدعونها من دون الله، ويبنون لها الهياكل، وقد صنّفت في مثل مذهبهم كتب مثل كتاب: «السّرّ المكتوم في السّحر ومخاطبة النّجوم»، وغيره من الكتب». وهذا فيه التأكيد لما قرّره الناظم؛ لأنّ هؤلاء وأولئك يشتركون في التعلّق بالنجوم واعتقاد التأثير فيها.

* قال رحمه الله:

١٨٨ - والكاتين نظاماً في عبادتها عقداً وكيفاً وتوقيتاً لنسكهم

قوله: «والكاتين نظاماً في عبادتها»؛ معطوف على قوله: «كالمقتفين لعباد الهياكل». وقوله: «عقداً»؛ العقد أي: العهد والبيعة المعقودة، والمعنى: أنّ هؤلاء المنجمين وضعوا كتباً قرّروا فيها نظاماً وقواعد تعاقدوا عليها في طريقة عبادتهم لهذه النجوم من حيث الكيف والتوقيت، ويسمونها علومًا ومعارف، وهي من أبطل الباطل.

(١) (١/ ٥٣٠).

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إِنَّ قَوْمًا يَحْسِبُونَ أَبَا جَادٍ،
وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ، وَلَا أَرَى لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ خَلْقٍ»، رواه عبد الرزاق في
«مصنّفه»^(١) بإسناد صحيح.

❖ قال رحمته الله:

١٨٩ - فَذَا سُعُودٌ وَذَا نَحْسٌ وَطَلْسُمُهُ كَذَا وَنَاسِبُهُ ذَا كَمْ بِخَرْصِهِمْ
يعني أَنَّ هؤلاء يزعمون أَنَّهُم بنظرهم في النُّجُومِ والتَّعَلُّقُ بها؛ يصلون
لمعرفة السُّعُودِ والنُّحُوسِ ونحو ذلك.

وقوله: «فَذَا سُعُودٌ»؛ من سَعَدَ سَعْدًا وَسُعُودًا، والسَّعَادَةُ خلافُ الشَّقَاوَةِ.
وقوله: «وَذَا نَحْسٌ»؛ «النَّحْسُ»: الأمرُ الْمُظْلِمُ، وقد نحس، كَفَرِحَ وَكُرِمَ،
فهو نَحِسٌ، وهو ضدُّ السَّعْدِ.

«وطلسمه»؛ واحد طلاسِم، وهو «اسم للسِّرِّ المكتوم، وقد كثر استعمال
الصُّوفِيَّةِ في كلامهم فيقولون: سِرٌّ مُطْلَسَمٌ، وحجابٌ مُطْلَسَمٌ، وذاتٌ مطلسم،
والجمع: طلاسِم»^(٢).

فالمراد بـ«الطَّلَسَمِ»: الأمور غير الواضحة الخفية، فالكلام الَّذي يسمعه
الإنسان ولا يفهم منه شيئاً ولا يستبين منه معنى؛ يسمّى «طلاسِم».

وقوله رحمته الله: «وطلسمه كذا وناسبه ذا»؛ أي أَنَّ هذا الأمر يناسب هذا
الطَّلَسَمِ ويتوافق معه ويتواءم.

(١) برقم (١٩٨٠٥).

(٢) «تاج العروس» (٣٣ / ٢٤ - ٢٥).

وقوله: «كَمْ بَخْرَصِهِمْ»؛ «كَمْ» للتكثير، و«الخرص» يأتي بمعنى الكذب، أي كلُّ ذلك يقولونه كذبًا ودجلًا، ويأتي - أيضًا - بمعنى الظنِّ، أي يقولونه بالظنون والأوهام.

ولما أنهى رَحِمَهُ اللهُ الكلام في ذم الكهانة والتنجيم وما يتعلّق بهما شرع في التحذير من المجالات الباطلة والهابطة التي تشيع الفساد، وتنشر الرذائل.

✽ فقال رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٠- واحذَرِ مَجَالَاتِ سُوءٍ فِي الْمَلَأِ نُشِرَتْ تَدْعُو جِهَارًا إِلَى نَشْرِ الْبَلَاءِ بِهِمْ
أي: كُنْ يا طالب العلم - طالب الحق والهدى - على حَذَرٍ شديد من مجلات سوء، من مجلات هذه صفاتها، وهي أَنَّهَا مجلات سوء، أمَّا المجلات التي قامت على نشر الشريعة والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ فهذه يحرص عليها ويستفاد منها، وكذلك المجلات القائمة على بيان أمور دنيوية وأشياء نافعة بما يتعلّق بالطب أو الهندسة أو الزراعة فهذه يستفاد منها، والذي يحذر منه مجلات السوء، المجلات القائمة على نشر السوء والأخلاق الفاسدة والعري والتّهتك والرذيلة وإشاعة الفواحش، فهذه يجب على كلِّ مسلم أن يكون منها على حَذَرٍ شديد.

وقوله: «فِي الْمَلَأِ نُشِرَتْ»؛ أي نشرت في أوساط الناس، وسعى أربابها وأصحابها في إشاعتها ونشرها، يقول هذا في زمانه رَحِمَهُ اللهُ، فكيف لو كان في زماننا هذا؟!

قوله: «تَدْعُو جِهَارًا إِلَى نَشْرِ الْبَلَاءِ بِهِمْ»؛ أي أَنَّ هذه المجلات التي نُشِرَتْ

في الملاء على نطاق واسع هدفها وغايتها الدعوة جهاراً إلى نشر البلاء بالناس لما يُعرض فيها من الرذائل والتّهتك، والأمور الباطلة التي تشيع الفاحشة، وتنشر الفساد^(١).

أقول: كيف لو رأى رَحِمَهُ اللهُ المجلّات التي في زماننا هذا؟! وأشياء أخرى لم تكن في زمانه مثل القنوات الفضائية، ومثل مواقع الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، هذه لم تكن في زمانه، والأمر فيها أشدّ، والخطر فيها أعظم، والبلاء أشنع، وكم أودت بأقوام، وكم أفسدت من أخلاق، وكم خرّبت من أديان، وكم أوجدت من انحلال وضياع؟! فإذا كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يحذّر من مجلّات سوء، فإنّ القنوات ومواقع شبكة الإنترنت التي تحمل الرذيلة والفساد وأنواع الفتن - فتن الشبهات، وفتن الشهوات - الأمر فيها أخطر وأشدّ، والواجب على المسلم، وطالب العلم أن يربأ بنفسه عن أن يشاهد ما يعرض فيها، ولا يقول: عندي إيمان يزعني ودين يردعني! فهي فتنة خطيرة، وعواصف جارفة، وقد قال - عليه الصّلاة والسّلام -: «مَنْ سَمِعَ بِالذَّجَالِ فَلْيَنَأْ عَنْهُ، فَوَاللّهِ! إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»^(٢)، أي لا يقترب من الفتنة، ويقول: عندي إيمان يمنعني؛ لأنّه إذا أسلم نفسه لهذه القنوات ولتلك المواقع وأخذ ينظر، ربّما سرقت منه إيمانه أو

(١) ينظر في بيان خطر هذه المجلّات وحرمة بيعها وشرائها وقراءتها والنظر فيها البيان الصّادر من اللّجنة الدّائمة للبحوث العلميّة والإفتاء بتاريخ ٢١ / ١ / ١٤٢١ هـ ضمن

«مجموع فتاوى اللّجنة» (١٧ / ١١٧ - ١٢٣).

(٢) رواه أبو داود برقم (٤٣١٩)، والإمام أحمد (٤ / ٤٣١) وإسناده صحيح.

سَلَبَتْ مِنْهُ أَخْلَاقَهُ أَوْ أَفْسَدَتْ عَلَيْهِ دِينَهُ وَأَضَرَّتْ بِهِ غَايَةَ الضَّرَرِ.

وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مَخَاطِرًا بِشَيْءٍ؛ فَلَا يَخَاطِرُ بِدِينِهِ، فَإِنَّ الدِّينَ أَثْمَنُ شَيْءٍ يَمْلِكُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَالْجُلُوسُ إِلَى تِلْكَ الْقَنَوَاتِ، وَإِلَى تِلْكَ الْمَوَاقِعِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مَخَاطِرَةٌ بِالدِّينِ، وَهَذَا أَمْرٌ تَهَاوَنَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ حَتَّى طَلَبُوا الْعِلْمَ، وَأَصْبَحَ - الْآنَ - بَعْضُ النَّاسِ - بَلْ كَثِيرٌ - يَجْلِسُ فِي خُلُوةٍ بَاطِلَةٍ مَعَ تِلْكَ الْقَنَوَاتِ أَوْ تِلْكَ الْمَوَاقِعِ يَغْلِقُ عَلَى نَفْسِهِ الْبَابَ، ثُمَّ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ مَوَاقِعِ الْفُسَادِ وَقَنَوَاتِ الرَّذِيلَةِ، وَمَعَ مَضِيِّ الْوَقْتِ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ تَذَهَبُ الْأَخْلَاقُ، وَيُمْلَأُ الْقَلْبُ بِالشُّبُهَاتِ، فَبَدَلًا أَنْ يَكُونَ قَلْبًا نَقِيًّا زَكِيًّا طَاهِرًا صَافِيًّا؛ يَصْبَحُ قَلْبًا مَرِيضًا، إِمَّا مَرِيضًا بِالشَّهْوَةِ أَوْ مَرِيضًا بِالشُّبْهَةِ أَوْ مَرِيضًا بِهِمَا.

وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَخَاطِرَ بِدِينِهِ، وَلَا يَسْتَهْوِيَهُ فَضُولُ نَظَرٍ أَوْ فَضُولُ سَمْعٍ أَنْ يُطَالَعَ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْمَطَالَعَةَ تُفْضِي إِلَى سَرَقَةِ الْأَدْيَانِ وَالْأَخْلَاقِ، وَالْكَفَّارِ فِي هَذَا الْبَابِ - بَابِ الشَّهَوَاتِ - يَمْكُرُونَ مَكْرًا كَبِيرًا، وَكَانُوا قَدِيمًا لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى بَيُوتَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْكَارِ النَّاشِئَةِ وَعَقُولِهِمْ، أَمَّا الْآنَ فِي زَمَانِنَا أَصْبَحَتْ رِذَائِلُهُمْ وَبَاطِلُهُمْ وَفُسَادُهُمْ تَحْمِلُهُ الرِّيَاحُ، بَلْ هِيَ أَعَاصِيرُ مَدْمَرَةٍ؛ تَدْمُرُ الْبُيُوتَ وَالْأَدْيَانَ وَالْأَخْلَاقَ وَالْفَضَائِلَ، وَتَنْشُرُ الْفَاحِشَةَ وَالرَّذِيلَةَ؛ وَلِذَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ عَصَامِيًّا مُحَافِظًا عَلَى دِينِهِ لَيْسَ مَخَاطِرًا بِهِ، يَقُولُ: أَنْظُرْ وَأَشَاهِدْ فَقَطْ وَلَنْ أَتَأَثَّرَ! بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَغْلِقَ كُلَّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْفِتْنَةِ، وَكُلَّ مَنَافِذِ الشَّرِّ وَالْفُسَادِ.

وَالْمَصِيبَةُ عَظِيمَةٌ وَالبَلَاءُ كَبِيرٌ وَالْخَطَرُ فَادِحٌ! وَإِذَا كَانَ طَالِبُ الْعِلْمِ يَجْلِسُ

إلى تلك القنوات أو إلى تلك المواقع من الذي يحذّر النَّاسَ؟! وإذا كان رائدُهم يقع في هذه الأخطار فمن الذي يُنذِرهم؟! ولذا فإنَّ طالبَ العلم أولى النَّاسِ بالحدَر من هذه المواقع.

﴿ ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴾

١٩١- تَدْعُو لِنَبِيِّ الْهُدَى وَالِدِّينِ أَجْمَعِهِ وَالْعِلْمِ بَلْ كُلِّ عَقْلٍ كَامِلٍ سَلِمَ

هذه مقاصد وغايات تلك المجلّات: الدّعوة إلى نبذ الهدى الذي بُعث به

نبينا - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾

[الصف: ٩]، بل تدعو إلى نبذ الدّين كاملاً، وإذا جمع الهدى والدّين كما في هذه

الآية، فيُراد بـ«الهدى»: العلم النّافع، ويُراد بـ«الدّين الحقّ»: العمل الصّالح

والطّاعات المقرّبة إلى الله - سبحانه وتعالى -.

فهذه المجلّات تدعو إلى نبذ العقائد، وإلى نبذ كذلك العبادات

والطّاعات والأخلاق.

وقوله: «وَالْعِلْمِ»؛ أي هي حرب على العلم، وفي تلك المجلّات يُنتقص

العلم، ويُقلّل من شأنه، ويحتقر العلماء، وتُزدري مكانتهم، ويُهَوّن من قيمتهم،

ويُستخفّ بهم، ويستخفّ بالعلوم الشرعيّة، ومقابل ذلك تعظيم الأشياء

الباطلة، والحقارات الفاسدة باسم الحضارات، وباسم التّمدّن، وباسم الرّقّيّ

في شعارات تبرز، وتحتها تهدم الأخلاق وينشر السّرّ والفساد.

وقوله: «بَلْ كُلِّ عَقْلٍ كَامِلٍ سَلِمَ»؛ أي هي مُفسدةٌ للعقول، فَبَدَلْ أَنْ

يُصبح عقل الإنسان راجحاً رصيناً رزيناً؛ يصبح عقلاً تافهاً حقيراً، بل يصبح عقلاً بهيمياً، لا اهتمام له إلا في حدود اهتمام بهيمة الأنعام، أمّا المعاني العظيمة والأمور الجليلة والأخلاق الفاضلة؛ فهذه كلها تترحل عن الإنسان إذا مضى في النظر إلى تلك المجالات أو المواقع أو القنوات.

* قال ﷻ:

١٩٢- وَلِلرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا وَالرَّرْتِعِ كَالْحَيَوَانِ السَّائِمِ الْبِهَمِ أي ممّا تدعو إليه هذه المجالات: الدّعوة إلى الرُّكون إلى الدُّنيا وزخرفها، بحيث لا يكون همُّ الإنسان إلا الحياة الدُّنيا، ولا همَّ له في الآخرة، وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ [الإسراء: ١٨ - ١٩].

وقوله: «والرَّتْعِ كَالْحَيَوَانِ السَّائِمِ الْبِهَمِ»؛ أي هذه المجالات تدعو أن يصبح الإنسان يرتع في هذه الحياة الدُّنيا، فلا همَّ له إلا أن يأكل ويشرب ويلعب كبهيمة الأنعام سواء، وقد قال الله - سبحانه - عن الكفار: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

* قال ﷻ:

١٩٣- وَلِلتَّهْتِكِ جَهْرًا وَخَلَاةٍ مَعِ نَبَذِ الْمُرُوءَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ أي وممّا تتضافر في الدّعوة إليه تلك المجالات: الدّعوة إلى التَّهْتِكِ، والمراد به: الانحلال من الأخلاق والسُّتر والعِفَّة والصِّيَانَة والشَّيْمِ، «جَهْرًا»؛

أي لا حياء من الله ولا من عباده، يدعون إلى العُري، ونبذ الحجاب، وكشف العورات، «والخلاعة»؛ والمراد بها الفاحشة والرذيلة، «مَعَ نَبَذِ المُرُوءَةِ»؛ تلك المجلَّات التي تدعو إلى الوقوع في الفاحشة، بعضها تدعو إلى إشاعة مقدماتها مثل صور النساء المتجمَّلات المتزيَّيات، أو بنشر صور النساء الفاتنات الجميلات، أو بأزيد من ذلك؛ بنشر صورٍ فيها تلاصقٌ بين الرجال والنساء، رجلٌ يضمُّ امرأةً أو يقبلُ امرأةً، كلُّ هذه مقدمات للزنى والفواحش، والله - جلَّ وعلا - لما نهى عن الزنا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فهذا فيه نهْيٌ عن الزنا وعن كلِّ مقدِّمة تفضي إليه؛ من نظيرٍ أو لمسٍ أو سماعٍ أو غير ذلك؛ ولهذا قال - عليه الصَّلاة والسَّلام -: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّنى مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الْإِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ»^(١).

وقوله: «نَبَذِ المُرُوءَةِ»؛ أي - وأيضًا - فهي تدعو إلى نبذ المروءة، و«المروءة»: خُلُقٌ عظيم، إذا وُجد في الشَّخص حِجْزُه عن الوقوع في خوارم الأخلاق، ونواقص الآداب.

وقوله: «وَالْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ»؛ أي هذا كله ممَّا تتضافر تلك المجلَّات في

(١) رواه البخاري برقم (٦٢٤٣)، ومسلم برقم (٢٦٥٧) - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رحمته الله عليه.

الدَّعوة إليه، ويشاركها في زماننا - بل بشكلٍ أزيد، ونطاقٍ أوسع - القنوات الفضائية، ومواقع الإنترنت التي لا حصر لها ولا عدَّ - وقى الله المسلمين شرَّها -.

❖ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٤- والاعتماد على الأسباب مُطْلَقُهَا دُونَ الْمُسَبِّبِ وَالْخَلْقِ مِنْ عَدَمٍ

أي ممَّا تدعو إليه تلك المجلَّات: الاعتماد على الأسباب دون المسبِّب الَّذي هو الله، فهي تعلق القلوب بالأسباب، وتعطل فيها الإيَّان بمسبِّب الأسباب، تعطل الثَّقة بالله والتَّوَكُّل والاعتماد عليه، وتدعو إلى التَّعلُّق بالأسباب والرُّكون إليها وتعظيم شأنها؛ فيها حديث واسع عن قدرات الإنسان وقواه وإمكانياته، ولا ترى فيها بإذن الله أو إن شاء الله أو توكل على الله أو فوض أمرك إلى الله، و«أخْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ»^(١)، أو الدَّعوة إلى الاستعانة بالله والتَّوَكُّل عليه والثَّقة به، وتفويض الأمر إليه، ونحو ذلك من أمور الإيَّان التي هي أساس الفلاح والنَّجاح في الدُّنيا والآخرة، فلا يُعنى بها ولا يهتمُّ بها في تلك المجلَّات، وإنَّما فيها الدَّعوة إلى التَّعلُّق بالأسباب.

وقوله: «وَالْخَلْقِ مِنْ عَدَمٍ»؛ أي الله - جلَّ وعلا - قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ

الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، فهو سبحانه الَّذي بيده الخفض والرَّفع، والقبض والبسط، والعطاء والمنع، وبيده - تبارك وتعالى - أزمَّة الأمور، فكيف يُدعى إلى التَّعلُّق بالأسباب، والأمر بيد الخلاق من عدم، مُسبِّب الأسباب، وخالق كلِّ

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

شيء؟! وقد جاء في بعض النسخ: «الإخلاق من عدم»، ولعل ما أثبتته هو الصواب.

* قال رحمه الله:

١٩٥ - والكُفْرُ باللهِ والأُمْلَاقُ مَعَ رُسُلٍ وَالْوَحْيِ مَعَ قَدَرٍ وَالْبَعْثِ لِلرَّمَمِ

أي ومما تدعو إليه تلك المجلات: الكفر بالله - سبحانه وتعالى - إما في ربوبيته - جلّ وعلا - أو أسمائه وصفاته وعظمته، أو تحقيق العبودية له، أو الاستخفاف بدينه والحق والهدى الذي أمر به - جلّ وعلا - أو التشكيك في أمور الإيمان إلى غير ذلك من أنواع الكفر.

وقوله: «والأُمْلَاقُ»؛ أي تدعو إلى الكفر بالملائكة، والاستخفاف بهم أو الجحد لوجودهم أو القول بأن الملائكة لا حقيقة لها، وإنها هي رموز، أو غير ذلك من أنواع الكفر بالملائكة، والإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان.

قوله: «مَعَ رُسُلٍ» أي: وتدعو إلى تكذيب المرسلين، أو الاستهزاء بهم، أو إنكار ما جاءوا به، أو بغضهم، أو بغض ما جاءوا به.

وقوله: «وَالْوَحْيِ» أي: الكفر بالوحي بالتكذيب بكتب الله المنزلة على رُسُل الله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه، أو إنكارها، أو إنكار شيء منها، أو بغضها، أو الاستهزاء بها.

وقوله: «مَعَ قَدَرٍ» بالتكذيب بقدرة الله الشاملة، أو مشيئته النافذة، أو تفرده بالخلق والتدبير.

وقوله: «وَالْبَعْثِ لِلرَّمَمِ» بإنكار البعث أو التكذيب بالجزاء والحساب أو

الجنة والنار، ونحو ذلك من تفاصيل يوم القيامة.

وقوله: «للرَّمَم» في «اللسان»: رَمَّ العظم وهو يَرُمُّ بالكسر رَمًّا ورَمِيمًا، وأَرَمَ صار رِمَّةً أي بلي، «والبَعْثُ للرَّمَم»؛ أي البعث للأجساد والعظام التي أصبحت بالية.

وهذا البيت جمع فيه الناظم رَحِمَهُ دَعْوَةُ تلك المجالات إلى الكفر بأصول الإيمان الستة: الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرُّسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ فقوله: «والكُفْرُ بالله» فيه الكفر بالأصل الأول، «والأُمْلَاكُ» الكفر بالأصل الثاني، «مَعَ رُسل» الكفر بالأصل الثالث، «والوَحْي» الكفر بالأصل الرابع، وهو الإيمان بالكتب، «مَعَ قَدَر» الكفر بالأصل الخامس وهو الإيمان بالقدر، «والبَعْثُ للرَّمَم» الكفر بالأصل السادس: الإيمان باليوم الآخر.

* قال رَحِمَهُ:

١٩٦- وَلَا عِتْنَاكِ الطَّبِيعَاتِ لَيْسَ لَهَا مُدَبِّرٌ فَاعِلٌ مَا شَاءَ لَمْ يَضْمِ
أي ومما تدعو إليه تلك المجالات ويُشر فيها: الدَّعْوَةُ إلى اعتناق الطَّبِيعَاتِ؛
باعتقاد أن الذي أوجد هذه الكائنات هي الطبيعة وأنه ليس هناك خالق لها ولا صانع لها ولا مبدع، بل هي أشياء أوجدتها الطبيعة! والله تعالى يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦]، وإنكار الخالق والقول بأن هذه الأشياء وُجدت صدفة من غير خالق ولا مدبر مقالة قديمة، لكنها - كما سيشير الناظم - تتكرر في كل زمن بصيغ وأساليب تناسبه من

خلال أبرز الوسائل الشائعة فيه، وكون هذه المخلوقات وجدت بنفسها من غير مُحْدِثٍ ولا خالقٍ محالٍّ ممتنعٌ، يجزم العقل ضرورةً ببطْلانه، ويُعلم يقيناً أنَّ من ظنَّ ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل؛ لأنَّ كلَّ من له عقل يعرف أنَّه لا يمكن أن يوجد شيءٌ من غير موجد ولا مُحْدِثٍ، بل إنَّ العقول والفطر مضطَّرةٌ إلى الاعتراف بباريها وموجدها، وشواهد الوجدانيَّة لا حصر لها، فكلُّ ما خطر في القلوب وشاهدته الأبصار وأدركته الحواسُّ والمشاعر، وكلُّ متحرِّك وساكن، وكلُّ حيوان وجما أدلَّةٌ وبراهينٌ على وحدانيَّة الله وآياتٌ عليه.

وفي كلِّ شيءٍ له آيَةٌ تَدُلُّ على أنَّه واحدٌ

وقوله: «لَيْسَ لَهَا مُدَبِّرٌ فَاعِلٌ»؛ أي يدعو هؤلاء إلى اعتقاد أنَّ هذه المخلوقات أوجدتها الطَّبيعة وليس لها خالقٌ، ولا مدبِّرٌ، ولا ربٌّ موجدٌ، وهذا فيه إنكار وجود الله وأنَّه الخالق - سبحانه وتعالى - لهذه الأكوان، ففيها الدَّعوة إلى الإلحاد وإنكار ربوبيَّة الله - سبحانه وتعالى - للعالمين.

وقوله: «لَمْ يَضْمِ»؛ «الضَّيْم»: الظُّلم.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٧ - قَامَتْ لَدَيْهِمْ بِلَا قِيُومٍ ابْدَعَهَا^(١) مُسَخَّرَاتٍ لِّغَايَاتٍ مِّنَ الْحِكْمِ

قوله: «قَامَتْ»؛ أي هذه المخلوقات وجميع الكائنات، «لَدَيْهِمْ»؛ أي لدى هؤلاء الملاحدة، «بِلَا قِيُومٍ»؛ أي بلا خالق مبدع، «ابْدَعَهَا»؛ أي أوجدها.

(١) بتسهيل الهمزة مراعاة للوزن العروضي، ويمكن ترك التَّنوين في «قِيُومٍ» مع قطع الهمزة.

وقوله: «مُسَخَّرَاتٍ لِغَايَاتٍ مِنَ الْحُكْمِ»؛ أي فهم أنكروا أَنَّ لها مُبْدَعًا، وأنكروا أَنَّها مخلوقة لحكمةٍ وغاياتٍ.

١٩٨- سَمَّوْهُ مَدْحًا لَهُ الْعِلْمَ الْجَدِيدَ بَلِ الْ كُفِّرَ الْقَدِيمَ وَمِنْهُ الْقَوْلُ بِالْقَدَمِ

أي هذا الباطل، وهذا الرُّكَّام من الفساد والإلحاد والزَّندقة والضَّلال من أجل ترويجهِ وإشاعته بين النَّاسِ «سَمَّوْهُ مَدْحًا لَهُ الْعِلْمَ الْجَدِيدَ»، وهذه طريقة أهل الباطل يضعون لباطلهم عناوين بَرَّاقة، مثل «العلم الجديد»، ومثل نبذهم للأخلاق يسمَّى «الحرية» أو «المساواة» ونحو ذلك من الشُّعارات الَّتِي يرفعها هؤلاء، وتحتها السُّمُّ الزُّعَاف.

ولا يُعرف أَنَّ صاحب باطل يُسمَّى باطله باطلاً، أو يسمَّى كفره كفراً، أو يسمَّى شره شراً، بل دائماً صاحب الباطل يسمَّى باطله بأسماء جميلة من أجل أن يُقْبَلَ وأن ينتشر بين النَّاسِ، فلا تجده يقول: أنا داعية إلى الكفر، أو أنا داعية إلى الزَّندقة أو أنا داعية إلى الخلاعة، فمثلاً إن فتح مكاناً لإشاعة الفاحشة والرَّذيلة يجعل عنوانه «الفنون الجميلة»!! فالعنوان شيءٌ والمضمونُ شيءٌ آخر.

وإذا كان داعيةً إلى الكفر والإلحاد فيضع على مجلَّته أو موقعه عنواناً جذاباً كـ «التَّقدُّم» أو «الحضارة» أو «الرُّقْيَى» ليصطاد به العقول المغفَّلة، هذه طريقة هؤلاء قديماً وحديثاً.

وقوله: «بَلِ الْكُفْرَ الْقَدِيمَ»؛ أي: هذا الَّذِي يدعون إليه من الإلحاد والإيمان بالطَّبيعة وإنكار وجود الله، وإنكار أصول الإيمان كفر قديم معروف

في الأمم الماضية وليس علمًا جديدًا: ﴿ أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ ﴾ [القمر: ٤٣].
وقوله: «ومنه»؛ من هذا الكفر «القول بالقدم»؛ وهو قول الفلاسفة الأول
الذين يقولون بقدّم العالم.

✽ قال رَحِمَهُ اللهُ:

١٩٩- تَقَسَّمُوهُ الْمَلَا حِيدُ الطُّغَاةِ عَلَى سَهْمٍ وَأَكْثَرَ لَا أَهْلًا بِذِي الْقِسَمِ
أي هذا الكفر والباطل تقاسموه، فالشيخ يصوّر هذا الكفر بأنّه ميراث
قديم ورثه هؤلاء المعاصرون، وليس كما يزعمونه أنّها علوم جديدة، اكتشفوها
وعرفوها في هذا العصر، بل هو كفرٌ قديم تقاسمه ملاحدة العصر بين مستقلٍّ
منه ومستكثر، «لا أَهْلًا بِذِي الْقِسَمِ»؛ لأنّها قِسَمٌ ضلال وباطل.

✽ قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٠- وَكُلَّمَا مَرَّ قَرْنٌ أَوْ قُرُونٌ أَتَوْا بِهِ عَلَى صُورَةٍ أُخْرَى لِحُبِّهِمْ
هذه طريقة أهل الباطل والإلحاد، في كلّ زمان يأتون بباطلهم على صورة
أخرى، بحيث يواكبون رغبات أهل زمنهم وما شاع وانتشر وتعلّقت به
قلوبهم، «لِحُبِّهِمْ»؛ أي لأنّهم أهل خبث ومكر.

✽ ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠١- بَعْضُ الْحَبِيثِ عَلَى بَعْضٍ سَيْرُكُمْهُ رَبِّي وَيَجْعَلُهُ فِي النَّارِ لِلضَّرَمِ
أي هذه مآلات هؤلاء ونهايتهم: أنّ باطلهم كلّه سيرُكُمْهُ ربُّ العالمين

بعضه على بعض ويجعله في جهنم، وقوله: «للضرم» في «اللسان»: «الضرم مَصْدَرُ ضَرَمَ ضَرَمًا وَضَرِمَتِ النَّارُ وَتَضَرَّمَتْ وَاضْطَرَمَتْ: اشْتَعَلَتْ وَالتَّهَبَتْ».

٢٠٢- واغْجَبَ لِعُدْوَانِ قَوْمٍ حَاوَلُوا سَفَهَا أَنْ يَجْمَعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي كِمَمٍ

أي من محاولات بعض هؤلاء وطرائقهم في نشر علومهم الباطلة؛ أن حاولوا جمعه مع علوم الإسلام في «كِمَمٍ»؛ أي في موضع واحد وفي ثوب واحد، وكأنَّهما شيء واحد، وكأنَّ هذا الباطل من الإسلام؛ ولذلك تجد أنَّ بعضهم يحاول بطريقة أو أخرى أن يجعل هذه الأشياء ليست مصادمة للإسلام ولا منابذة له، بل هي منه! ويأتون بعبارات: «الإسلام دين التيسير»، و«الإسلام دين السَّماحة» ومقصودهم بها أنَّه لا يعارض تلك الأهواء، ولا ينقض تلك الأباطيل، فليس هو دين «إقصاء» و«لا كَبْتٍ لِلْحُرِّيَّاتِ»، بل هو دين سماحة ويسر.

وقوله: «في كِمَمٍ»؛ في «القاموس»: «الْكُمُّ بِالضَّمِّ: مدخل اليد ومخرجها من الثَّوب، جمع: أكمام وكِمَمَة، والْكِمُّ بالكسر والْكِيمَة: وعاءُ الطَّلَعِ وغطاءُ النُّورِ، والجمع: كِمام وأَكِمَّة وأَكمام».

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٣- كَالنَّارِ فِي الْمَاءِ أَوْ طُهِرَ عَلَى حَدَثٍ فِي وَقْتِهِ أَوْ إِخَاءِ الذُّبِّ وَالْغَنَمِ

أي هل يجتمع النَّارُ والماء، أو الطُّهُرُ والحَدَثُ في وقت واحد وفي آنٍ واحد؟! وكذلك هل يتآخى الذُّبُّ والغنم؟! عدوُّ الغنم الشَّرس.

فهؤلاء يحاولون أن يجمعوا بين الحق والباطل في ثوب واحد! ﴿فَمَاذَا بَعَدَ
الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

هذه خلاصة ما تروّج له تلك المجلّات وزبدة ما تدعو إليه، «والحاصل:
أنّ هذه المجلّات قوائمها التّجارة بجسد المرأة، الّتي أسعفها الشّيطان بجميع
أسباب الإغراء ووسائل الفتنة؛ للوصول إلى نشر الإباحيّة، وهتك الحرمات،
وإفساد نساء المؤمنين، وتحويل المجتمعات الإسلاميّة إلى قطعان بهيميّة، لا
تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا، ولا تقيم لشرع الله المطهر وزنًا، ولا ترفع به
رأسًا، كما هو الحال في كثير من المجتمعات»^(١).

والله المستعان والحافظ لا شريك له.



(١) مجموع «فتاوى اللّجنة الدّائمة» (١٧ / ١١٩).

خاتمة في تحصيل ثمرات العلم النافعة واجتناء قُطوفه الدَّانية اليانعة

لما بيّن الناظم فيما سبق فضل العلم وشرفه ومكانته، وبيّن أصل العلم - وهو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ -، وحذّر من العلوم الباطلة كعلم الكلام والتنجيم والكهانة وغير ذلك، وحذّر من الفتن؛ أتى رحمه الله في تمام هذا النظم، فعقد هذه الخاتمة ليبيّن من خلالها ثمار العلم النافعة وقطوفه الدَّانية اليانعة.

وبيّن رحمه الله في صدر هذه الخاتمة أنّ تلك الثمار والقُطوف والآثار لا تُنال بمجرد الانتماء للعلم فقط، والاعتزاء إليه، ولا بمجرد تحصيله دون عمل به، بل إنّها تُنال بتحقيق خشية الله - تبارك وتعالى -، والقيام بطاعته، وفعل ما يقتضيه العلم من خضوع وذلّ وانكسار لله - جلّ وعلا -، وعدّد صفات أهل العلم الذين هم أهل لاجتناء ثمار العلم والفوز بآثاره العظيمة وثماره المباركة الجليلة.

✽ قال رحمه الله:

٢٠٤- وَحَاصِلُ الْعِلْمِ مَا أُمِلِي الصِّفَاتِ لَهُ فَأَصْغِ سَمْعَكَ وَاسْتَصِصْ إِلَى كَلِمِي
صدر بهذا البيت نصحاً للسامع وترغيباً للنفوس وتهيئةً للقلوب؛ لتحسن

الإصغاء وتحسن الاستفادة، أي أنه سيذكر كلامًا عظيمًا وتقريرًا مفيدًا يحتاج من طالب العلم إلى أن يُحسن إصغاء السَّمع لتتم له الفائدة.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٥- وَذَاكَ لَا حِفْظُكَ الْفُتْيَا بِأَحْرَفِهَا وَلَا بِتَسْوِيدِكَ الْأُورَاقِ بِالْحُمَمِ
أي: حاصل العلم ليس هو بمجرد حفظ الفتيا بأحرفها، «وَلَا بِتَسْوِيدِكَ الْأُورَاقِ بِالْحُمَمِ»؛ أي وليس العلم - أيضًا - مجرد أن تمسك قلمًا وتسمع ما يُقال وتكتب، و«الْحُمَمِ» على وزن صُرَد، وهو الفحم.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٦- وَلَا تَصَدِّرْ صَدْرَ الْجَمْعِ مُحْتَبًا تُمْلِيهِ لَمْ تَفْقَهُ الْمَعْنَى بِالْكَلِمِ
قوله: «وَلَا تَصَدِّرْ صَدْرَ الْجَمْعِ مُحْتَبًا تُمْلِيهِ»؛ أي وليس - أيضًا - العلم مجرد أن تكون لك الصدارة في المجالس، تجلس أمام الناس والسامعين، وتلقي وتُملي عليهم ما عندك، «مُحْتَبًا»؛ أي جالسًا جلسة الاحتباء، وهي معروفة.
وقوله: «لَمْ تَفْقَهُ الْمَعْنَى بِالْكَلِمِ»؛ أي دون أن تقف على مقاصد الشرع وحقائق العلم، ومعاني الألفاظ ودلالاتها.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٧- وَلَا الْعِمَامَةُ إِذْ تُرْخِي ذُؤَابَتَهَا تَصْنَعًا وَخِصَابُ الشَّيْبِ بِالْكَتَمِ
قوله: «وَلَا الْعِمَامَةُ إِذْ تُرْخِي ذُؤَابَتَهَا تَصْنَعًا»؛ أي وليس العلم أن يضع

الإنسان على رأسه عمامة جميلة ولها ذؤابة طويلة؛ لتكون صورته جذابة للناس، يتصنع ويتظاهر بأنه عالم وأنه فاضل، والعمامة التي قد يضعها بعض أرباب الباطل وأصحاب الطرق بمجرد هيئتها أضلّت أقوامًا كثيرين، فقبلوا كل ما قاله لا لشيء إلا لعمامته!!

وقوله: «وخصاب الشيب بالكتم»: «الخصاب»؛ تغيير لون الشيب بالكتم، و«الكتم» لونه أسود، وقد جاء عن النبي ﷺ الأمر بتغيير الشيب وتجنبه السواد^(١).

* قال ﷺ:

٢٠٨- ولا بقولك يعني دائبًا ونعم كلاً ولا تحملك الأسفار كالبهم

أيضًا: وليس العلم أن تتصدّر بـ«نعم» أو «لا» أو نحو ذلك، ولا بحمل الأوراق والكتب دون تفقه لما فيها، ودون معرفة بمضامينها.

* قال ﷺ:

٢٠٩- ولا بحمل شهادات مبهرجة بزخرف القول من نشرٍ ومُنْتَظَمٍ

أي: ليس العلم مجرد شهادات تحمل مزخرفة ومنمّقة ومجمّلة، يقول حاملها: أنا عندي شهادة كذا، ومُنِحْتُ درجة كذا، أو يزخرف الشهادة ويعلّقها، وإذا دخل عليه الدّاخِل قال: إذا أردت أن تعرفني؛ فانظر إلى هذه الشّهادات.

(١) من حديث جابر رضي الله عنه أخرجه مسلم برقم (٢١٠٢).

على أنه لا ضير على طالب العلم في الحصول على الشهادات العلمية إذا صلحت نيته واستقام قصده، فإنَّ «من أراد الشهادة ليتقوى بها على تبليغ العلم والدعوة إلى الخير، فقد أحسن في ذلك، وإن أراد المال ليتقوى به فلا بأس أن يدرس ليتعلم وينال الشهادة التي يستعين بها على نشر العلم، وأن يقبل الناس منه هذا العلم، وأن يأخذ المال الذي يعينه على ذلك، فإنه لولا الله سبحانه ثمَّ المال لم يستطع الكثير من الناس التَّعلم وتبليغ الدعوة»^(١).

* ثمَّ بيَّن رَحِمَهُ اللهُ المَراد بـ«العلم» فقال:

٢١٠- بَلْ خَشْيَةُ اللهِ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ فاعْلَمْ هِيَ الْعِلْمُ كُلُّ الْعِلْمِ فَالتَّزِمِ

فالعلم الحقيقيُّ هو خشية الله في السرِّ والعلن، في الغيب والشهادة، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعبد كلما كان بالله أعرف؛ كان منه أخوف، ولعبادته أطلب، وعن معصيته أبعد. وقوله: «فاعْلَمْ هِيَ الْعِلْمُ كُلُّ الْعِلْمِ فَالتَّزِمِ»؛ أي اعلم ذلك: أنَّ العلم، كلُّ العلم: خشية الله، وأنَّ رأس العلم خشية الله - سبحانه وتعالى -.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في رسالته «شرح حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في فضل طلب العلم»^(٢): «فالعلم النَّافع هو ما باشر القلب؛ فأوَّقر فيه معرفة الله تعالى وعظمته، وخشيته وإجلاله، وتعظيمه ومحَبَّته، ومتى سكنت هذه الأشياء

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لابن باز (٧/ ٢٢٧-٢٢٨)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «ففرق بين من يكون الدين مقصوده والدنيا وسيلة، ومن تكون الدنيا مقصوده والدين وسيلة» «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٢٦)
(٢) (ص ٤٥).

في القلب خشع؛ فخشعت الجوارح تبعاً له.

وفي «صحيح مسلم»^(١) عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ»، وهذا يدلُّ على أنَّ العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علم غير نافع.

قال^(٢): «وقال كثيرٌ من السَّلف: ليس العلم كثرة الرواية ولكن العلم الخشية، وقال بعضهم: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً».

وبيَّن رَحِمَهُ اللهُ كيف أنَّ العلم يوجب الخشية، وأنَّ فقده يستلزم فَقْدَهَا من سِتَّة وجوه في رسالة له^(٣) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢١١- فَلْتَعْرِفِ اللَّهَ وَلْتَذْكُرْ تَصَرُّفَهُ وَمَا عَلَى عِلْمِهِ قَدْ خُطَّ بِالْقَلَمِ

ثمَّ شرع رَحِمَهُ اللهُ ببيان العلم النَّافع المثمر الثَّمَرَات العظيمة.

قوله: «فَلْتَعْرِفِ اللَّهَ»؛ أي بأسمائه الحسنَى وصفاته العليا وأفعاله الجليلة العظيمة، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته تقرب من الثلاثين آية، مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ

(١) برقم (٢٧٢٢).

(٢) نفسه (ص ٥٠).

(٣) موجودة في ضمن «مجموع رسائل ابن رجب» في المجلد الثاني منه، (ص ٧٧١ - ٨١٠).

مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ [الطلاق: ١٢]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي فيها الدَّعوة إلى العلم بالله ومعرفة - سبحانه وتعالى -.

وقوله: «وَلْتَذَكَّرْ تَصَرُّفَهُ»؛ أنه - سبحانه وتعالى - المتصرّف في هذا الكون خفضاً ورفعاً، بسطاً وقبضاً، عطاءً ومنعاً، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا خافض لما رفع ولا رافع لما خفض، ولا معزّز لمن أذلّ ولا مذللّ لمن أعزّز.

وقوله: «وَمَا عَلَى عِلْمِهِ»؛ أي علم الله - سبحانه وتعالى - المحيط بكلّ شيء، الذي وسع كلّ شيء، كما قال - جلّ وعلا -: ﴿وَسِعَ رَوْقِي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: «قد خطّ بالقلم»؛ أي أنّ الله عزّ وجلّ علم الأشياء أزلاً، وأحاط علمه بكلّ شيء، وخلق القلم وأمره - سبحانه وتعالى - بأن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، كما جاء في حديث عبادة بن الصّامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ»، رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه ^(١).

(١) «المسند» (٣١٧/٥)، و«سنن أبي داود» برقم (٤٧٠٠)، و«جامع الترمذي» برقم (٣٣١٩).

عقد الإمام البخاري رحمه الله في كتابه «الصحيح» - في كتاب القدر - باباً؛ قال فيه: «باب جفّ القلم على علم الله، ﴿وَأَصْلُهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال أبو هريرة: قال لي النبي ﷺ: «جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ»^(١)، ووصله في موضع آخر^(٢).

قال الحافظ في «الفتح»: «قوله باب - بالتَّوْنين -: جَفَّ القلم؛ أي فرغت الكتابة، إشارة إلى أَنَّ الَّذِي كُتِبَ فِي اللَّوْحِ المحفوظ لا يتغيَّر حكمه، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة؛ لأنَّ الصَّحيفة حال كتابتها تكون رطبة أو بعضها، وكذلك القلم، فإذا انتهت الكتابة؛ جَفَّت الكتابة والقلم... وهذا لفظ حديث أخرجه أحمد وصحَّحه ابن حبان؛ من طريق عبد الله بن الدَّيلمى عن عبد الله ابن عمرو، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمئِذٍ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَاهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ»، وأخرجه أحمد وابن حبان من طريق أخرى عن ابن الدَّيلمى نحوه، وفي آخره أَنَّ القائل: «فَلِذَلِكَ أَقُولُ» هو عبد الله ابن عمرو، ولفظه: «قلت لعبد الله بن عمرو: بلغني أَنَّك تقول: إِنَّ القلم قد جَفَّ؟ فذكر الحديث، وقال في آخره: «فلذلك أقول: جَفَّ القلم بما هو كائن»^(٣) انتهى.

(١) «البخاري» (٦/٢٤٣٣).

(٢) حديث رقم (٤٧٨٨).

(٣) «فتح الباري» (١١/٥٩٨-٥٩٩).

* ثُمَّ قَالَ النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١٢- وَحَقُّهُ اعْرِفْ وَقُمْ حَقًّا بِمُوجِبِهِ وَمَنْهَجَ الْحَقِّ فَاسْلُكْ عَنْهُ غَيْرَ عَمِي

قوله: «وَحَقُّهُ اعْرِفْ»؛ أي اعرف حقَّ الله عليك، وهو: أن تعبد الله - سبحانه - مخلصًا له الدين، فتفرده - جلَّ وعلا - وحده بالعبادة، ولا تجعل معه - سبحانه - وتعالى - شريكًا في شيءٍ منها، كما في حديث معاذ بن جبل أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له: «يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» متَّفَق عليه^(١).

وقوله: «وَقُمْ حَقًّا بِمُوجِبِهِ»؛ أي قُمْ بما تستوجبُه معرفتُك بحَقِّ الله حقَّ القيام، وجاهد نفسك على تتميم ذلك وتكميله؛ بأن تُخلص الدين كله لله، وتُسلم وجهك لله مطيعًا مخلصًا صادقًا ذليلاً خاضعًا.

وقوله: «وَمَنْهَجَ الْحَقِّ فَاسْلُكْ»؛ أي مع معرفتِك بحَقِّ الله ومجاهدتِك نفسك للقيام به؛ الزم منهج الحق، المنهج الَّذي كان عليه الرَّسول - عليه الصَّلَاة والسلام - باتِّباع سنَّته ولزوم نهجه والاقتداء بهديه والبُعد عن المحدثات الَّتِي ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد جمع في هذا البيت بين الإخلاص والمتابعة، الإخلاص للمعبود وهو حقُّ الله، والمتابعة للرَّسول وهي حقُّه - عليه الصَّلَاة والسلام -.

«وَمَنْهَجَ الْحَقِّ» أي: المنهج الَّذي كان عليه الرَّسول ﷺ.

(١) رواه البخاري برقم (٥٦٢٢)، ومسلم برقم (٣٠).

وقوله: «عنه غير عمي»؛ أي لا تكن عميًا، أعمى عن الحق والهدى الذي

بعث به رسول الله ﷺ.

* قال رسول الله ﷺ:

٢١٣- أشقى وأسعد مختارًا أضلّ هدى أذى وأبعد عدلاً منه في القسم

هذه كلها أفعال لله، وهي من ربوبيته سبحانه؛ فآمن بها، وإيمانك بها من

علمك بالله ومعرفتك به.

قوله: «أشقى وأسعد»؛ أي أن الشقاء والسعادة بيده، كما قال - سبحانه -:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾

وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

والنبي - عليه الصلاة والسلام - تلا هذه الآية لما سُئل: هل نعمل فيما قدر

وقضي أو في أمر مستأنف؟ كما في «الصحيحين»^(١) عن عليٍّ عليه السلام قال: كنا في جنازة

في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، ففعد وقعدنا حوله ومعه مخرصة، فنكس،

فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ

كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ»، قال: فقال رجل:

يا رسول الله! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ؛

فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ؛ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ

الشَّقَاوَةِ»، فقال: «اعْمَلُوا فِكُلُّ مُيَسَّرٍ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ،

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٤٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٧).

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيَسْرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ الْآيَاتِ.

وقوله: «أَضَلَّ هَدًى»؛ أي أَنَّ الإِضْلالَ والهداية بيده، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ

اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقوله: «وَأَبْعَدَ عَدْلًا مِنْهُ فِي الْقِسْمِ»؛ أي وأبعد بعض الخلق عدلاً منه

سبحانه، وطردهم ولعنهم وأبعدهم من رحمته - سبحانه وتعالى -، فهو يثيب

المطيع بفضله - جَلَّ وعلا -، ويعاقب الظَّالِمَ المعتدي بعدله - جَلَّ وعلا -، ﴿وَلَا

يُظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وللإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ أبياتٌ جمعت هذه المعاني، يقول فيها:

ما شئتُ كان وإن لم أشأْ	وما شئتُ إن لم تشأْ لم يكنْ
خلقت العباد على ما علمتْ	وفي العلم يجري الفتى والمسْنُ
على ذا منتَ وهذا خذلتْ	وهذا أعنتْ وذا لم تعنْ
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيد	ومنهم قبيحٌ ومنهم حسنٌ ^(١)

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

٢١٤- أَوْحَى وَأَرْسَلَ وَصَّى أَمْرًا وَنَهَى أَحَلَّ حَرَّمَ شَرَعَ كَامِلَ الْحُكْمِ

أي وآمن - أيضًا -: بهذه الأمور «أَوْحَى» - سبحانه وتعالى -، وأنَّ الوحي

المنزَّل على الأنبياء وحيه - جَلَّ وعلا - وتنزيله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

(١) رواها عنه اللالكائي (٧٧٦ / ٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١ / ٤٥٠).

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ
مِّنْ عِبَادِنَا ﴿الشورى: ٥٢﴾.

«وَأَرْسَلْ»؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾
[الحج: ٧٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء: ٢٥].

«وَصَّى أَمْرًا وَنَهَى»، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]،
وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، والله - سبحانه -
لا يأمر إلا بما فيه الخير والفلاح والسعادة للناس في الدنيا والآخرة، ولا ينهى
إلا عما فيه الشرُّ والضُّرُّ على الناس في الدنيا والآخرة.

«أَحَلَّ وَحَرَّمَ»: التحليل والتَّحريم له - جلَّ وعلا - هو الذي يحلُّ وهو
الذي يحرم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ
وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾
[النحل: ١١٦].

قوله: «شَرَعًا كَامِلَ الْحُكْمِ»؛ أي أَنَّ شرع الله - سبحانه وتعالى - كله
حِكْمٌ؛ فآمن بذلك، وآمن - أيضًا - أَنَّهُ - سبحانه -:

٢١٥- يُحِبُّ الْإِحْسَانَ وَالْعِصْيَانَ يُكْرَهُهُ وَالْبِرَّ يَرْضَاهُ مَعَ سُخْطٍ لِحُرْمِهِمْ

«يُحِبُّ الْإِحْسَانَ» والمحسنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

[البقرة: ١٩٥]، «وَالْعِصْيَانَ يُكْرَهُهُ»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ

خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، والآيات في هذا

المعنى كثيرة.

والكره من صفاته الفعلية، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ

فَتَبَطَّوهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقوله ﷻ: «وَالْبِرَّ يَرْضَاهُ مَعَ سُخْطٍ لِحُرْمِهِمْ» كما قال تعالى: ﴿إِنْ

تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]،

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

«لِحُرْمِهِمْ»؛ حُرْم: مصدر للفعل «حَرُمَ»، يقال: حُرْمٌ حُرْمًا وَحَرَامًا،

والمراد: مع سخطه لفعل ما حَرَّمه عليهم، فَمَنْ فَعَلَ الْمَحْرَمَاتِ بَاءً بِسَخَطِ اللَّهِ

وْغَضَبِهِ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى -.

* ثُمَّ قَالَ ﷻ:

٢١٦- بِمُقْتَضَىٰ ذَيْنِ فِي الدَّارَيْنِ مُطَرِّدٌ لَا ظُلْمَ يُخْشَى وَلَا خَيْرٌ بِمُنْهَضِمٍ

أي بمقتضى قيام العبد بفعل ما يحبه الله ويرضاه، وتجنب ما يسخطه

ويكرهه ويأباه؛ لا يخاف ظلمًا ولا هضمًا، فلا يخاف ظلمًا: بأن يُحمَّل من الذُّنوب أو الآثام ما لم يقترفه، ولا هضمًا: فلا يخاف أن يُهضم شيء من حسناته أو طاعاته، فلا يزداد عليه سيئاتٌ لم يفعلها، ولا يهضم حسنات فعلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢١٧- فاعْمَلْ عَلَى وَجَلٍ وَاذْأَبْ إِلَى أَجَلٍ وَاغْزِلْ عَنِ اللهِ سُوءَ الظَّنِّ وَالتُّهْمِ
في هذا البيت ثلاث وصايا:

الأولى: «فاعْمَلْ عَلَى وَجَلٍ»: «الْوَجَلُ» بالتحريك: الخوف، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، والمراد: اعمل - أيها العبد - واجتهد في تكميل أعمالك، وفي نفس الوقت: كن خائفًا من أن لا تُقبل منك، وقد جاء هذا التفسير للآية عن رسول الله ﷺ، كما في حديث عائشة قالت: قلت: يا رسول الله! ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أَهْوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ؟ قال: «لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصَّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ»^(١).

الثانية: «واذْأَبْ إِلَى أَجَلٍ»: «الدَّأْبُ»: هو الاستمرار والمداومة، كما قال

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٠٥)، والترمذي برقم (٣١٧٥)، وابن ماجه برقم (٤١٩٨).

صاحب «القاموس»: «دَابَّ في عمله دَابًّا ودُؤِبًا - بالضم -: جدَّ وتعب»^(١)، والمراد بـ«الأجل»: الموت، والمعنى: جدَّ واجتهد وواصل العمل إلى أن يأتي أجلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي: الموت، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّفُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

الثالثة: «واعزِلْ عن الله سوء الظنِّ والتَّهم»: أي لا تظنَّ بالله إلا خيرًا، واحذر أن تظنَّ به غير ذلك، فالعبدُ المؤمن الصادق يعلم أن الله - سبحانه - لا يظلمُ مثقال ذرَّة، ويعلم أن الله - سبحانه - عند ظنِّ عبده به، ولهذا جاء في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قال: يقول الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»^(٢)، وجاء في «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه: سمعت النَّبيَّ ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»^(٣).

* قال رحمته الله:

٢١٨ - للشرع فأنقذ وسلِّم للقضاء ولا تُخاصِمَنَّ به كالمُلحدِ الخصِمِ
قوله رحمته الله: «للشرع فأنقذ»؛ أي كن مُنقادًا لشرع الله، بامتنال أوامره - سبحانه وتعالى - واجتناب نواهيه، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا

(١) «القاموس المحيط» (١ / ١٠٥).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٩٧٠)، ومسلم برقم (٢٦٧٥).

(٣) رواه مسلم برقم (٢٨٧٧).

الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً ﴿البقرة: ٢٠٨﴾، وقال تعالى:
﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا
مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله ﷺ: «وَسَلِّمَ لِلْقَضَاءِ وَلَا تُخَاصِمَنَّ بِهِ كَالْمُلْحِدِ الْخَصِمَ»؛ أي
ليكن شأنك في هذا الباب - باب القضاء -: الإيقان والإيمان، وعدم التردد،
وإيّاك والخصومة فيه؛ لأنّ الخصومة في الأمور الثابتة والأحكام البيّنة الواضحة
في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ سبيل أهل الضلال وطريق أهل الباطل، وقد جاء
في الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ
هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا
بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، رواه الإمام أحمد والترمذي وصحّحه^(١).

وقد جاء عن السلف الصالح - رحمهم الله - نقولٌ عديدة في ذمّ الخصومة
في الدين والتحذير منها، ومن ذلكم قول الإمام أحمد رضي الله عنه: «واعلم - رحمك
الله - أنّ الخصومة في الدين ليست من طريق أهل السنة...»^(٢).

وقال الإمام أبو يوسف - صاحب الإمام أبي حنيفة - رحمهما الله: «الخصومة
في الدين بدعة»^(٣).

(١) «المسند» (٢٥٦/٥)، و«جامع الترمذي» برقم (٣٢٥٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٩٠ / ٧).

(٣) المصدر السابق (٤٧٥ / ١٦).

* قال النّازم رحمه الله:

٢١٩- وبالمقادير كُنْ عَبْدًا لِلْإِكِّهِ وعابِدًا مُخْلِصًا فِي شَرْعِهِ الْقِيمِ

أي كن موقناً مؤمناً بأن ما قدره الله عز وجل كائن، وأن الأمور كلها بقضاء الله وقدرته.

وفي الأثر عن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه أنه قال لابنه: يا بُنَيَّ! إنَّكَ لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتّى تعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، يا بُنَيَّ! إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»^(١)، رواه الإمام أحمد وأبو داود وصحّحه الألباني.

وفي قوله: «وبالمقادير كُنْ عَبْدًا لِلْإِكِّهِ وعابِدًا مُخْلِصًا» ذكر شيئين: عبداً وعبداً. «عبداً»؛ هذه في باب توحيد الربوبية والإيمان بالقضاء والقدر، أي تقرُّ بأنَّك عبدٌ، أي معبّد مدلّل، لا خروج لك عمّا يقضيه الله، فما شاء الله كان وما لم يشأه لم يكن.

«وعابداً مُخْلِصًا»؛ هذا في باب توحيد العبادة، أي كُنْ قائماً بالعبادة التي أمرك - سبحانه وتعالى - بها على وجه الإخلاص.

وقوله: «فِي شَرْعِهِ الْقِيمِ»؛ أي الذي لا عوج فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا

(١) «المسند» (٣١٧/٥)، و«سنن أبي داود» برقم (٤٧٠٠).

إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ [البينة: ٥].

❖ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٢٠- إِيَّاهُ فَاعْبُدْ وَإِيَّاهُ اسْتَغْنِ فَبِذَا تَصِلْ إِلَيْهِ وَإِلَّا حُرْتَ فِي الظُّلْمِ
أي اجمع بين العبادة والاستعانة، كما قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
فَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، بدأ - جَلَّ وعلا - بالعبادة؛ لأنَّها الغاية، ثم ذكر
الاستعانة؛ لأنَّها الوسيلة، وهذا الأسلوب يفيد الحصر: والمعنى نعبدك ولا
نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعينُ بغيرك.

والناظم أتى بهما على ترتيب الآية قال: «إِيَّاهُ فَاعْبُدْ وَإِيَّاهُ اسْتَغْنِ»،
و«العبادة» هي تحقيق قول «لا إله إلا الله»، و«الاستعانة» هي تحقيق «لا حول
ولا قوة إلا بالله»، فلا يُعبد إلا الله، ولا يُستعان إلا بالله.
«فَبِذَا تَصِلْ إِلَيْهِ»؛ أي إلى الله - جَلَّ وعلا -، فتَفُوز برضاه، وتَنَال جَنَّتَهُ،
وتنجو من عقابه.

«وإِلَّا حُرْتَ فِي الظُّلْمِ»؛ يعني إن لم تحقِّق هذين الأمرين وتَقُم بهذين
المطلبين تكن حائرًا في بحر الظلمات.

❖ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٢١- وَخُذْ بِالْأَسْبَابِ وَاسْتَوْهَبْ مُسَبِّبَهَا وَثِقْ بِهِ دُونَهَا تُفْلِحْ وَلَمْ تُضْم
قوله: «وَخُذْ بِالْأَسْبَابِ وَاسْتَوْهَبْ مُسَبِّبَهَا»؛ أي بآشِرِ الأسبابِ وافعلها؛

الأسباب الشرعية التي هي القيام بالعبادة والطاعة التي أمرت بها لتنال رضا الله ﷻ ، والأسباب الدنيوية التي تنال بها أمور معاشك طلباً للرّزق وسعيًا في المباح، ولكن لا تعتمد على الأسباب، وإنّما اطلب من مسببها أن يهبك ويمنّ عليك، وأن يُنعم عليك، ولا تعتمد عليها ولا تتركز إليها.

والناس ينقسمون في هذا الباب إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأوّل: الذين جمعوا بين فعل الأسباب والتّوكل على الله - جلّ وعلا - كما جاء في قول النّازم: «وخذ بالأسباب واستوهِب مُسببها»، والله ﷻ أمر عباده بذلك، وأمرهم به رسوله ﷺ، وقد جاءت آيات وأحاديث عديدة في الأمر بالجمع بين الأمرين، ففعل الأسباب والتّوكل على الله كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وكقوله ﷺ: «اُحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ»^(١)، وقوله لرجل سأله في شأن النّاقة: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»^(٢)، والنّصوص في الباب كثيرة.

القسم الثّاني: من يترك الأسباب معتمداً على الله؛ لا يفعل السّبب معتمداً على الله ومتوكّلاً عليه، وهذا خلاف ما أمر الله ﷻ عباده به، وخلاف

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤).

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٥١٧)، وحسنه الألباني.

ما أمر به رسوله ﷺ، وهذا مثله كمثل من قال: إن شاء الله سأكون عالماً، ولكن لن أطلب العلم!! أو إن شاء الله سيكون لي ذريةً سالحةً، لكن لا أتزوج!! وهكذا.

القسم الثالث: من يفعل السبب ويعتمد عليه، لا على الله، وهذا نهايته إلى الحرمان، والعياذ بالله.

فإذا؛ المطلوب من المسلم الجمع بين الأمرين، كما قال النّازم: «وخذ بالأسباب واستوهِب مُسَبِّها»، ونظيره قول الشيخ السّعودي رَحِمَهُ اللهُ فِي منظومته في السّير إلى الله والدار الآخرة:

صَحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَعَ بَذْلِ جُهْدٍ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

وقوله: «وَتَقِ بِهِ دُونَهَا تُفْلِحَ»؛ أي ثِقْ بالله دون الأسباب، فإن فعلت هذا؛ تَكُنْ من الفالحين، ومن الأخطاء الشائعة الدّعوة إلى الثّقة بالنّفس، والثّقة توَكَّل، بل هي خلاصة التّوَكَّل ولُبُّهُ^(١)، وهو لا يكون إلّا بالله؛ وفي الدّعاء المأثور: «اللَّهُمَّ رَحِمَتِكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(٢)؛ قال الشّيخ محمّد بن إبراهيم في جواب من سأل عن قول من قال: تجب الثّقة بالنّفس؟ قال: «لا تجب ولا تجوز الثّقة بالنّفس، في الحديث:

(١) انظر: «مدارج السّالّكين» لابن القيم (٢/ ١٤٣).

(٢) رواه أبو داود رقم (٥٠٩٠)، والإمام أحمد رقم (٢٠٤٣٠)، وابن حبان رقم (٩٧٠) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٢).

«فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ...»^(١).

وقوله: «وَلَمْ تُضْمِ»؛ أي لا يلحقك ظلم ولا هضم، و«الضَّيْمُ»: الظُّلم، يقال: قد ضِمتُ، أي ظلمت.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٢- بِالشَّرْعِ زَنْ كُلِّ أَمْرٍ مَا هَمَمْتَ بِهِ فَإِنْ بَدَأَ صَالِحًا أَفْدِمَ وَلَا تَجِمَ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «بِالشَّرْعِ زَنْ كُلِّ أَمْرٍ مَا هَمَمْتَ بِهِ»؛ أي إذا أردت أن تُقَدِّمَ على عملٍ من الأعمال؛ فأَوَّل ما تبدأ به هو أن تَزِنَ هذا الأمر بالشَّرْع، تعرضه على الأدلَّة والنُّصوص - كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ -، فإذا كان قد دَلَّ عليه الشَّرْع افعله، وإن كان خلاف الشَّرْع فاتركه.

وقوله: «وَلَا تَجِمَ»: جاء في «اللِّسَان»: وَجَمَ يَجِمُ وَجْمًا وَوُجُومًا، و«الْوُجُومُ»: السُّكُوتُ على غَيْظٍ، و«الوَاجِمُ» الَّذِي اشْتَدَّ حُزْنُهُ حَتَّى أَمْسَكَ عَنِ الْكَلَامِ^(٢)، ولعلَّ المعنى في قول النَّازِمِ: «وَلَا تَجِمَ»؛ أي أَقْدِمَ وافعل، ولا تسكت وتتوقَّف.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٣- أَخْلَصْهُ وَاصْلُقْ أَصْبَ وَهْضَمْ فَلْيِ شُرْطَتْ فِي صَالِحِ السَّعْيِ أَوْ فِي طَيِّبِ الْكَلِمِ

(١) «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ١٧٠)، وانظر: «معجم المناهي

اللفظية» للشيخ بكر أبو زيد (ص ١٨٥).

(٢) «اللِّسَان» (١٦/ ١١٥).

٢٢٤- أَخْلِصْهُ لِلَّهِ وَاصْدُقْ عَازِمًا وَأَصْبِ صِرَاطَهُ وَاهْضِمَنَّ النَّفْسَ تَنْهَضِمِ

ذكر في هذين البيتين أمورًا أربعة، في البيت الأول ذكرها، وفي البيت الثاني شرحها وبيّنها، وهي: الإخلاص والصدق والإصابة - إصابة السُّنة -، وهضم النفس، يقول هذه الأمور الزمها وحافظ عليها؛ فإنها مطلوبة منك في أعمالك الصالحة، ومطلوبة منك في أقوالك الطيبة، فكلُّ عمل صالح تقوم به وكلُّ قول طيب تقوله؛ حافظ فيه على هذه الأمور الأربعة؛ ليكن خالصًا، ولتكن فيه صادقًا، وليكن للسُّنة موافقًا، مع رؤية التقصير.

ثم شرح هذه الأمور الأربعة فقال: «أَخْلِصْهُ لِلَّهِ»؛ أي اجعله خالصًا لله، و«الإخلاص» الصَّافي النَّقي، الَّذي لم يُرد به إِلَّا وجه الله، كما قال الله ﷻ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

«واصدق عازمًا»: «الصدق»: توحيد الإرادة، و«الإخلاص» توحيد

المراد كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «النونية»:

فلو اُحد كن واحدًا في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

ف«الإخلاص» أن لا تريد بالعمل إِلَّا الله، و«الصدق» توحيد الإرادة؛

بأن تجمع قلبك وعزمك، مثل ما قال النَّاظم: «واصدق عازمًا».

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس للعبد شيءٌ أنفع من صدقه ربّه في جميع

أموره مع صدق العزيمة، فيصدقُه في عزمه وفي فعله، قال تعالى: ﴿إِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم، فإذا صدقت عزمته بقي عليه صدقُ الفعل: وهو استفراغُ الوسع، وبذلُ الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمّة، وصدقُ الفعل يمنعه من الكسل والفتور، ومن صدقَ الله في جميع أموره؛ صنع الله له فوق ما يصنع لغيره، وهذا الصدق معنى يلتزم من صحّة الإخلاص وصدق التوكّل، فأصدقُ النَّاس من صحَّ إخلاصه وتوكُّله^(١).

وقوله: «أَصِبْ صِرَاطَه»؛ أي لتكون أفعالك على الصّواب، قال الفضيل ابن عياض في معنى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: «أخلصه وأصوبه، فإنّه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتّى يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله، والصّواب إذا كان على السّنة»^(٢).

وقوله: «وَاهْضِمَنَّ النَّفْسَ تَنْهَضِمَ»: أي لا تعجب بنفسك، مهما تقدّم من الأعمال والطّاعات، ومهما ظهر لك أنّك حقّقت فيها من الإخلاص والصدق، بل اهضم نفسك واتهمها بالتقصير، وإلاّ فإنّ الإنسان يُصاب

(١) «الفوائد» (١/ ١٨٦).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

بالعُجب والغرور، فتكون أعماله قليلة ومقصر فيها، وفي الوقت نفسه يكون معجباً بنفسه وبعمله، يوضح ذلك رَحِمَهُ اللهُ بقوله:

٢٢٥- لَا تُعْجِبَنَّ بِهِ يُحْبَطُ وَلَا تَرَهُ فِي جَانِبِ الذَّنْبِ وَالتَّقْصِيرِ وَالنَّعَمِ
فقوله: «لا تعجبَنَّ به»؛ أي بعملك مهما قدّمت من أعمال: مِنْ صَلَاةٍ
وصيام، وطلبٍ للعلم، وحفظٍ للقرآن وغير ذلك من الأعمال الصّالحة فلا
تعجبَنَّ بها، وقد تقدّم تحذير النّاظم رَحِمَهُ اللهُ من العُجب وأنه يجترّف الأعمال.

وقوله: «يُحْبَطُ»؛ لأنَّ العجب يجترّف الأعمال ويبطلها ويحبطها.
قوله: «وَلَا تَرَهُ فِي جَانِبِ الذَّنْبِ وَالتَّقْصِيرِ وَالنَّعَمِ»؛ أي لا تره شيئاً في
جانب الذَّنْبِ، فإذا أعجبك عملٌ من الأعمال الصّالحة التي قمت بها تذكر
ذنوبك التي اقترفتها هذا أولاً.

ثانياً: تذكر أنّك مقصرٌ حتّى في هذا العمل الذي أنت معجبٌ به؛ لأنّك
مهما حاولت أن تكمل العمل وتتمّه لا تسلم من التقصير.

ثالثاً: تذكر أنّ نعم الله - سبحانه وتعالى - عليك لا تُعدُّ ولا تُحصى، ومنها
أعمالك الصّالحة فهي منّة من الله وتوفيق.

يوضح ذلك ما جاء في «الصّحيحين»^(١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ
قال: قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»، قالوا: ولا أنت يا
رسول الله؟! قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ»، فهو صلوات الله وسلامه

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٦٣)، ومسلم برقم (٢٨١٦).

عليه أخشى الناس وأكملهم عبوديةً له - سبحانه وتعالى - يقول هذا، فكيف بغيره؟!

فإذا تفكّر في مثل هذه المعاني التي أشار إليها الناظم؛ يذهب عنه العجب بإذن الله - سبحانه وتعالى -.

قال العلامة ابن القيم رحمته الله: «ومن تأمل أحوال الصحابة رحمهم الله وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جَمَعْنَا بين التَّقْصِيرِ، بل التَّفْرِيطِ والأَمْنِ، فهذا الصَّدِّيق يقول: «وددتُ أنِّي شعرة في جنب عبد مؤمن» ذكره أحمد عنه، وذكر عنه - أيضًا - أنه كان يمسك بلسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد»، وكان يبكي كثيرًا ويقول: «ابكوا؛ فإن لم تبكوا فتباكوا»، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عودٌ من خشية الله عز وجل، وأتى بطائر يقلِّبه ثم قال: «ما صيد من صيد، ولا قُطعت من شجرة إلا بما ضيَّعت من التَّسْييح»، ولما احتضر قال لعائشة: «يا بُنَيَّة! إنِّي أصبْتُ من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطَّاب»، وقال: «والله لو ددت أنِّي كنت هذه الشَّجرة تؤكل وتعصَّد»^(١).

فقارن الآن من يتأمَّل في حال الصحابة رحمهم الله يجدهم أصحاب أعمال مكَمَّلة وطاعات متَمَّمة، وفي الوقت نفسه خائفون، ونحن مقصِّرون ومفرطون وفي الوقت نفسه آمنون، وفي هذا المعنى يقول الحسن البصري رحمته الله: «إنَّ المؤمن جمع إحسانًا وشفقةً، وإنَّ المنافق جمع إساءةً وأمنًا»^(٢).

(١) «الدَّاء والدَّواء» (٩٣) / ط: عالم الفوائد.

(٢) «تفسير الطَّبري» (١٩ / ٤٥).

وقال ابن القيم أيضًا: «رضاء العبد بطاعته دليلٌ على حسن ظنه بنفسه وجهله بحقوق العبودية، وعدم عمله بما يستحقه الربُّ - جلَّ جلاله - ويليق أن يعامل به، وحاصل ذلك أنَّ جهله بنفسه وصفاتها وآفاتا وعيوب عمله وجهله بربه وحقوقه، وما ينبغي أن يُعامل به يتولَّد منها رضاه بطاعته وإحسان ظنه بها، ويتولَّد من ذلك من العُجب والكِبَر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزَّنا وشرب الخمر والفرار من الزَّحف ونحوها، فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماتها، وأرباب العزائم والبصائر أشدُّ ما يكونون استغفارًا عُقِيب الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه»^(١) اهـ والله المستعان.

* ثمَّ قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٦- وحيثُ كانَ مِنَ النَّهْيِ اجْتِنَبُهُ وَإِنْ زَلَلْتَ تُبْ مِنْهُ وَاسْتَغْفِرْ مَعَ النَّدَمِ

قوله: «وحيثُ كانَ مِنَ النَّهْيِ اجْتِنَبُهُ»؛ أي إذا كان الأمر الذي تقبل عليه نفسك ممَّا نهى الله عنه؛ فاجتنبهه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَرَهُ الْإِنِّمِ وَالْفَوْحِشَ إِلَّا أَلَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿إِنْ يَحْتَبُوا كِبَارَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].
وقال رَحِمَهُ اللهُ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»^(٢).

(١) «مدارج السالكين» (١ / ١٧٥).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٦١٥)، ومسلم برقم (٨٩).

وقوله: «وإن زَلَلْتَ تُبْ مِنْهُ وَاسْتَغْفِرْ مَعَ النَّدَمِ»؛ أي إن زَلَّتْ بك القدم، وفعلت الشيء الذي نهى الله عنه؛ فبادر إلى التَّوْبَةِ والرُّجُوعِ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والتَّوْبَةُ تكون بترك الشيء الذي نهى الله عنه، والنَّدَمُ على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، وقل: أَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إليه، مع النَّدَمِ على مقارَفَتِكَ لهذا الذَّنْبِ الذي نهاكَ الله عنه.

*** قال رَحِمَهُ اللهُ:**

٢٢٧- وَأَوْقِفِ النَّفْسَ عِنْدَ الْأَمْرِ هَلْ فَعَلْتَ وَالنَّهْيِ هَلْ نَزَعْتَ عَنْ مَوْجِبِ النَّقَمِ
هنا يتحدث النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ عن محاسبة النَّفْسِ، أي حاسب نفسك في باب
الأوامر وباب النَّوَاهِي، في باب الأوامر؛ اعرض الأوامر الَّتِي وردت في
الكتاب والسُّنَّةِ على نفسك، هل فعلت هذه الأوامر أم لم تفعلها؟
وفي باب النَّوَاهِي؛ أوقف النَّفْسَ عند النَّهْيِ، هل تركت وابتعدت عن
الأمر الَّتِي نهى الله عنها وَالَّتِي توجب العقوبة والغضب والسَّخَطَ من الله
- سبحانه وتعالى -.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ
قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا؛ فَإِنَّهُ
أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض
الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»، وذكر - أيضاً - عن الحسن قال:
«لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه: ماذا أردتَ عملين؟ وماذا أردتَ تأكلين؟
وماذا أردتَ تشربين؟ والفاجر يمضي قُدُماً لا يحاسب نفسه».

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]: «أضاع نفسه وغبن مع ذلك تراه حافظاً لماله، مضيعاً لدينه».

وقال الحسن: «إنَّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظٌ من نفسه، وكانت المحاسبة من همِّته».

وقال ميمون بن مهران: «لا يكون العبد تقيًّا حتَّى يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً من الشَّريك لشريكه، ولهذا قيل: النَّفس كالشَّريك الخوَّان، إن لم تحاسبه ذهب ببالك»^(١).

وقال رحمه الله: «ومحاسبة النَّفس نوعان: نوعٌ قبل العمل، ونوعٌ بعده، فأما النوع الأوَّل: فهو أن يقف عند أوَّل همِّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتَّى يتبيَّن له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: «رحم الله عبداً وقف عند همِّه، فإن كان لله مضي، وإن كان لغيره تأخر».

وأما المحاسبة بعد العمل، فهو ثلاثة أنواع: أحدها: محاسبتها على طاعة قصَّرت فيها من حقِّ الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

وحقُّ الله تعالى في الطَّاعة ستَّة أمور - تقدَّمت -، وهي: الإخلاص في العمل، والنَّصيحة لله فيه، ومتابعة الرَّسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منَّة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كلِّه.

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١ / ٧٨ - ٧٩).

فيحاسب نفسه: هل وفى هذه المقامات حقَّها؟ وهل أتى بها في هذه الطَّاعة؟

الثَّاني: أن يحاسب نفسه على كلِّ عمل كان تركه خيراً له من فعله.

الثَّالث: أن يحاسب نفسه على أمرٍ مباح أو معتاد: لمْ فعله؟ وهل أراد به الله والدَّار الآخرة فيكون رابحاً؟ أو أراد به الدُّنيا وعاجلها فيخسر ذلك الرِّبح ويفوته الظَّفَر به؟^(١).

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٨- فَإِنْ زَكَتَ فَاحْمَدِ الْمَوْلَى مُطَهَّرَهَا وَنِعْمَةَ اللهِ بِالشُّكْرِانِ فَاسْتَدِم

قوله: «إِنْ زَكَتَ فَاحْمَدِ الْمَوْلَى مُطَهَّرَهَا»: أي إِنْ زَكَتَ نَفْسُكَ بِالتَّحَلِّيِّ
بِالْفَضَائِلِ وَالتَّخَلِّيِّ عَنِ الرَّذَائِلِ، فَاحْمَدِ الله؛ لِأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَكْرَمَكَ
وَتَفَضَّلَ عَلَيْكَ، فَمَنْ عَلَيْهَا بِالطَّهَّارَةِ وَالزَّكَاةِ وَالنَّقَاءِ وَالصَّفَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿بَلِ اللهُ يُرِيكُم مِّنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
مَا زَكَّيْتُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُرِيكُم مِّنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]، وَفِي
الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّهَا أَنْتَ خَيْرٌ مِّنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ
وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا»^(٢).

ولعلَّ النَّازِمَ رَحِمَهُ اللهُ اخْتَارَ اسْمَ «المولى» هُنَا مُوَافَقَةً لِهَذَا الدُّعَاءِ، وَفُوزَ
العَبْدُ بِهَذَا الْمَطْلَبِ مِنْ وَلايَةِ اللهِ الْخَاصَّةِ لَهُ.

(١) المصدر السَّابِقُ (١/ ٨١-٨٢).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِرَقْمِ (٢٧٢٢).

وقوله ﷻ: «وَنِعْمَ اللَّهُ بِالشُّكْرَانِ فَاسْتَدِمَ»؛ أي كُن دائماً شاكراً لله - سبحانه وتعالى - على نعمه، قال تعالى حاكياً عن سليمان عليه السلام: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ﴾ [النمل: ١٩].

فالمراد بقوله: «استدِم»؛ أي داوم شكر الله - سبحانه وتعالى - على نعمه، وأعظم النعم: الهداية إلى الدين، والتوفيق لزكاة القلب، وصلاح النفس، والاستقامة على طاعة الله، فبملازمة الشكر تدوم النعمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فالشكر معه المزيد أبداً؛ ولهذا قيل: فمتى لم تر حالك في مزيد فاستقبل الشكر.

* قال ﷻ:

٢٢٩- وَإِنْ عَصَتْ فَاغْصِهَا وَاعْلَمْ عَدَاوَتَهَا وَحَذَّرْنَهَا وَرُودَ الْمُورِدِ الْوَحِمِ
قوله: «وَإِنْ عَصَتْ فَاغْصِهَا»؛ أي إن أبت نفسك إلا العصيان فأب لها أنت - أيضاً - إلا العصيان، ولا تطعها؛ لأنها تهلكك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَبْرَأَيْ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتَنِي﴾ [يوسف: ٥٣].

وقوله: « وَحَذَّرْنَهَا وَرُودَ الْمُورِدِ الْوَحِمِ »؛ أي حذرها من النعمة ومن السخط ومن العقوبة حتى تطاوع وتلين وتجنب المعاصي وتستكين، كما قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وقوله: «الْوَحِم»: قال ابن منظور: «الْوَحِم بالتسكين، والْوَحِم بكسر

الخاء، والوَخِيمُ: الثَّقِيلُ من الرِّجال... وقد تكونُ الوَخامةُ في المعاني، يقال: هذا الأمرُ وَخِيمٌ العاقبة، أي ثَقِيلٌ رديءٌ^(١).

وعلى هذا؛ فالمعنى ظاهرٌ في قوله: «وَرُودَ المَوْرِدِ الوَخِمِ»؛ أي المورد الرّديء والعاقبة السيئة.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣٠- وأنْظِرْ مَخَازِي^(٢) المُسِيئِينَ الَّتِي أُخِذُوا بِهَا وَحَازِرْ ذُنُوبًا مِنْ عِقَابِهِمْ

أي مِمَّا يَعِينُكَ عَلَى صَدِّ النَّفْسِ وَمَنْعِهَا عَنِ الْآثَامِ وَالْوُقُوعِ فِي الْفَوَاحِشِ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ الْمَخْزِيَةِ وَالنِّهَايَاتِ الْمُؤَلَّةِ الَّتِي بَاءَ بِهَا الْمُسِيئُونَ؛ ففِيهَا عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ، وَالسَّعِيدُ مَنْ اتَّعَظَ بغيره، وَالشَّقِيُّ مَنْ اتَّعَظَ بِهِ غَيْرُهُ.

فانْظُرْ إِلَى مَخَازِي الْعُصَاةِ الَّتِي حَقَّتْ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ الَّتِي اقْتَرَفُوهَا، وَتَجَنَّبِ الذُّنُوبَ الَّتِي تُفْضِي بِكَ إِلَى نَظِيرِ الْعُقُوبَةِ الَّتِي عَاقَبُوا بِهَا.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣١- وَالزَّمْ صِفَاتِ أُولِي التَّقْوَى الَّذِينَ بِهَا عَلَيَهُمُ اللهُ أَثْنَى وَاقْتَدِهِ بِهِمْ

أي حَافِظْ عَلَى صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَالسَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَتَقْوَى اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - هِيَ: «الْعَمَلُ

(١) «لسان العرب» (١٢ / ٦٣١).

(٢) بِإِسْكَانِ الْيَاءِ مِرَاعَاةً لِلْوُزْنِ الْعَرُوضِيِّ.

بطاعة الله على نورٍ من الله، رجاء ثوابِ الله، وترك معصية الله على نورٍ من الله خيفة عذابِ الله»، وقد جاء في القرآن الكريم في مواضع عديدة ثناءً على المتّقين ومدحٌ لهم، وبيانٌ لثوابهم عند الله - سبحانه وتعالى -، ولهذا قال رَحِمَهُ اللهُ: «الَّذِينَ بِهَا عَلَيْهِمُ اللَّهُ أَثْنَى»؛ أي الذين أثنى الله - سبحانه وتعالى - عليهم في القرآن العظيم بهذه الصّفات.

وقوله: «صِفَاتِ أُولِي التَّقْوَى»؛ هذا دليل على أَنَّ التَّقْوَى ليست مجرد دعوى يدّعيها الإنسان، بل هناك صفات من اتّصف بها كان من أهل التَّقْوَى حقًا وصدقًا، وقد جاء بيان هذه الصّفات في كتاب الله وسنّة نبيّه - صلوات الله عليه وسلامه -.

وقوله: «وَاقْتَدِهِ بِهِمْ»؛ أي كن مقتديًا بهؤلاء، كما قال الله - جلّ وعلا -:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذا البيت ينبّه فيه رَحِمَهُ اللهُ على فائدة تربويّة في ترويض النّفس على أفعال الخير وأبواب التّقوى، ألا وهي أَنَّ هذا المقام يحتاج من العبد إلى النّظر في سير الأخيار، وصفات المتّقين الأبرار حتّى يتأثّر بهم، ويأتسي بسلوكهم.

* ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣٢- وَاقْنُتْ وَبَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ قُمْ أَبَدًا تَخْشَى الذُّنُوبَ وَتَرْجُو عَفْوَ ذِي الْكَرَمِ

قوله: «وَاقْنُتْ»؛ المراد بـ«القنوت»: مداومة الطّاعة وملازمة العبادة، قال الله

تعالى: ﴿يَمْرُؤٌ أَفْتَنَى لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرُّكَّعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، قال جلّ

وعلا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقوله: «بين الرَّجَا والخَوْفِ»؛ أي: كن بين الرَّجاء والخوف، تفعل الطَّاعَةَ وأنت ترجو رحمة الله - سبحانه - وتخاف عذابه، كما قال جلَّ وعلا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، والرَّجاء والخوف ركنان لا بدَّ منهما في كل عبادة يتقَرَّبُ العبدُ بها إلى الله - سبحانه وتعالى - بأن يعبد الله راجياً رحمته، خائفاً من عذابه - سبحانه وتعالى -.

وقوله: «قُمْ أَبَدًا»؛ هذا لبيان أنَّ الخوف والرَّجاء لا بدَّ منهما في كلِّ عبادة يتقَرَّبُ بها العبدُ إلى الله في كلِّ وقتٍ وحين.

قوله: «تَخْشَى الذُّنُوبَ وترْجُو عَفْوَ ذِي الْكَرَمِ»؛ هذا معنى قوله بين الخوف والرَّجاء؛ تَخْشَى الذُّنُوبَ وعواقبها وغوائلها، وفي الوقت نفسه ترجو غفران الله - سبحانه وتعالى - ورحمته وعفوه: كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣٣- فالخوفُ مَا أَوْرَثَ التَّقْوَى وَحَثَّ عَلَى مَرْضَاةِ رَبِّي وَهَجَرَ الْإِثْمَ وَالْأَثْمَ

«ما» هنا: اسم موصول بمعنى الَّذِي، يبيِّن أنَّ الخوف الشرعي المطلوب من المسلم هو الَّذِي يورِّث تقوى الله - سبحانه وتعالى -، وخشيته في الغيب والشَّهادة، ويحثُّ على نيل مرضاته سبحانه، ويحجز العبدَ عن المعاصي ويباعده عن الذُّنُوب والآثام وعن مخالطة أهلها.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣٤- كَذَا الرَّجَا مَا عَلَى هَذَا يُحْتَلِصُ دِيقِ بِمَوْعُودِ رَبِّي بِالْجَزَا الْعَظِيمِ
أي: وكذلك الرجاء المشروع المأمور به هو الذي يحثُّ على تقوى الله
وعلى فعل ما يرضيه، والبعد عن المعاصي والذنوب، والإشارة بقوله «هذا» إلى
ما تقدَّم في البيت الذي قبله؛ وهو تقوى الله والحثُّ على مرضاته وهجر
الذنوب.

وقوله: «لَتَصْدِيقِ بِمَوْعُودِ رَبِّي بِالْجَزَا الْعَظِيمِ»؛ أي أنَّ ضابط الخوف
والرجاء المطلوب من المسلم كونه مصدِّقًا بالجزاء العظيم والثواب الجزيل
الذي أعدَّه الله - سبحانه وتعالى - لعباده المتقين، لكن إن خرج المسلم بالخوف
عن حدِّه أو خرج بالرجاء عن حدِّه انعكس الأمر، ولهذا ينبّه الشيخ ويحذّر من
ذلك في البيت الذي يليه، فيقول:

٢٣٥- وَالْخَوْفُ إِنْ زَادَ أَفْضَى لِلْقُنُوطِ كَمَا يُفْضِي الرَّجَاءُ لِلْأَمْنِ الْمَكْرِ وَالنِّقَمِ
أي إنَّ الخوف إن زاد على حدِّه أدَّى بالعبد إلى القنوط من رحمة الله
سبحانه: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]،
وكذلك الشَّانُ في الرجاء؛ إن زاد على حدِّه أفضى للأمن من مكر الله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولهذا يقول أهل العلم:
لابدَّ أن يأتي العبد بالرجاء والخوف معًا؛ حتَّى يمضي في عبادته باتزان؛ لأنَّه إن
غلب الخوف قنط، وإن غلب الرجاء أَمِنَ، وكلُّ من القنوط والأمن من كبائر

الذُّنُوب، فوجب على العبد أن يجمع في طاعاته وعباداته بين الرِّجاء والخوف؛
يرجو رحمة الله ويخاف عذابه - سبحانه وتعالى -.

ولذلك قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣٦- فَلَا تُفْرِطْ وَلَا تُفْرِطْ وَكُنْ وَسْطًا وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فَاسْتَقِم

قوله: «فَلَا تُفْرِطْ وَلَا تُفْرِطْ وَكُنْ وَسْطًا» الأولى بتشديد الرَّاء من التَّفْرِيط وهو التَّقْصِير، والثَّانية بكسرها من الإفراط وهو مجاوزة الحدِّ في الأمر^(١)؛ أي عليك - أيها العبد - أن تكون بينهما بتوسُّط واعتدال، دون إفراط أو تفريط، أي: دون زيادة ودون نقصان.

وخيار الأمور أوساطها، لا تفريطها ولا إفراطها، كما قال الله - سبحانه

وتعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وإذا سألت ما الوسطيَّة - سواء في هذا الباب أو في غيره من أبواب

الشَّرْع -؟ يأتيك الجواب المسدَّد على ذلك بقول الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

«وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فَاسْتَقِم»؛ هذه الوسطيَّة: أن تستقيم مثل ما أمرك

الرَّحْمَن، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، فإذا فعلت هذا؛ كنت متوسِّطًا، فإن زدت فهذا إفراطٌ، وإن قصَّرت فهذا تفريطٌ، وخيار الأمور أوساطها.

(١) راجع «مقاييس اللغة» (٤/ ٤٩٠).

* ثُمَّ قَالَ ﷺ:

٢٣٧- سَدُّ وَقَارِبٍ وَأَبْشُرْ وَاسْتَعِنْ بِغُدُوٍّ وَبِالرَّوَّاحِ وَأَذْلِجْ قَاصِدًا وَدُمِّ

جمع ﷺ في هذا البيت جملةً من الوصايا العظيمة، وهي وصايا جمعها النَّبِيُّ ﷺ في حديث واحد، وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَدُّوْا وَقَارِبُوْا وَاغْدُوْا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا»، متفق عليه^(١)؛ واللفظ للبخاري، واختصره مسلم بلفظ: «قَارِبُوا وَسَدُّوْا» وزاد في رواية: «وَأَبْشُرُوا».

فالشيخ رحمه الله في هذا البيت جمع هذه الوصايا الثابتة في سنة النبي ﷺ. وقوله: «سَدُّ»؛ المراد بـ«السَّدَاد»: الإتيان بالعمل موافقاً للسُّنَّة، مطابقاً لهدي النبي ﷺ.

وقوله: «وقارب»؛ «المقاربة» أن يكون العمل قريباً من السُّنَّة، يعني إن لم تستطع أن يكون عملك مطابقاً؛ فاجتهد أن يكون عملك مقارباً للسُّنَّة، وكلُّ من المسدِّ والمقارب له البشارة، كما قال ﷺ: «وَأَبْشُرُوا» ولم يذكر المتعلق؛ ليعم ذلك كلَّ خير في الدنيا والآخرة، وحظُّ أهل السَّدَاد من هذه البشارة أعظم.

ويوضح معنى السَّدَاد والمقاربة الرَّمْيُ بالسَّهْمِ لهدف معيَّن، فالذي يصيب سهمه الهدف يكون قد سدَّ، والذي يقع سهمه قريباً منه يكون قد قارب، أمَّا الذي لا يرمي السَّهْمَ أصلاً أو يذهب ويرميه إلى جهة أخرى، فهذا

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٦٣) واللفظ له، ومسلم برقم (٢٨١٦).

ليس من أهل السداد ولا المقاربة.

وقوله: «استعين بغدو وبالرّواح»؛ كما في الحديث: «واغدوا ورؤحوا»، و«الغدو» هو أوّل النهار، و«الرّواح»؛ هو آخر النهار، وهذا فيه فضل هذين الوقتين، وأهميّة العناية فيهما بذكر الله - سبحانه وتعالى -، وفعل الطّاعات.

وقوله: «وأذليج»؛ «الدُّلجة»: السَّير في آخر الليل، فهذه ثلاثة أوقات فاضلة نصّ عليها في الحديث: «واغدوا ورؤحوا وشيءٌ من الدُّلجة».

وقوله: «قاصداً»؛ هذا أخذه من الحديث نفسه: «والقصدُ القصدُ تبُّلغوا»، و«القصد» هو التَّوسُّط بين الغلوّ والجفاء والإفراط والتّفريط، كما في وصيّة لقمان لابنه: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]؛ أي ليكن مشيك وسطاً بين السَّريع الطَّائش وبين البطيء المتهاوت.

وقوله: «ودم»؛ أي داوم على هذه الوصايا العظيمة إلى الممات.

وللحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ مؤلّف خاصّ، شرّح فيه هذا الحديث سمّاه: «المحجّة في سير الدُّلجة» وهو مطبوع، وقد شرح - أيضاً - هذا الحديث شرحاً موجزاً في كتابه «فتح الباري شرح صحيح البخاري»^(١)، فقال:

«وقوله ﷺ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا»؛ «التَّسديد» هو إصابة الغرض المقصود، وأصله من تسديد السَّهم؛ إذا أصاب الغرض المرمى إليه ولم يخطئه، و«المقاربة»: أن يقارب الغرض، وإن لم يصبه؛ لكن يكون مجتهداً على الإصابة،

(١) (١/ ١٣٧ - ١٣٩).

فيصيب تارةً ويقارب تارةً أخرى، أو تكون المقاربة لمن عجز عن الإصاغة كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(١).

وفي «المسند»^(٢) و«سنن أبي داود»^(٣)، عن الحَكَم بن حَزْنِ الكُلْفِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمَنبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا - أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا - كُلَّ مَا أَمَرْتُكُمْ؛ وَلَكِنْ سَدُّوا وَأَبْشَرُوا».

وقيل: أراد بالتَّسديد: العمل بالسَّداد - وهو القصد والتَّوسُّط في العبادة -، فلا يَقْصُرُ فيما أُمِرَ به، ولا يَتَحَمَّلُ منها ما لا يَطِيقُه، قال النَّضْرُ ابن شَمِيل: «السَّداد: القصد في الدِّين والسَّبيل، وكذلك المقاربة المراد بهما: التَّوسُّط بين التَّفريط والإفراط، فهما كلمتان بمعنى واحد».

وقيل: بل المراد بـ«التَّسديد»: التَّوسُّط في الطَّاعات بالنِّسبة إلى الواجبات والمندوبات، وبـ«المقاربة»: الاقتصار على الواجبات، وقيل فيهما غير ذلك. وقوله: «أَبشَرُوا» يعني: أَنَّ مَنْ قَصَدَ المراد فليَشْرُ، وَخَرَجَ البخاريُّ في موضع آخر من «صحيحه»^(٤) من حديث عائشة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشَرُوا».

(١) رواه البخاري برقم (٦٨٥٨)، ومسلم برقم (١٣٣٧).

(٢) برقم (١٧٨٥٦).

(٣) برقم (١٠٩٦).

(٤) برقم (٦١٠٢).

وقوله: «وَأَسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»؛ يعني أَنَّ هذه الأوقات الثلاثة أوقات العمل والسَّير إلى الله، وهي أوَّل النَّهار وآخره، وآخر الليل، فـ«الغدوة»: أوَّل النَّهار، و«الرَّوْحَة» آخره، و«الدُّلْجَة»: سير آخر الليل اهـ.

* قال النَّازِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣٨- فَمِثْلُ مَا خَانَتْ الْكُسْلَانَ هِمَّتُهُ فَطَالَمَا حُرِمَ الْمُنْبِتُ بِالسَّامِ

هذان شخصان يحذّر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من مسلكهما:

الشَّخص الأوَّل: الشَّخص المصاب بالكسل الَّذي ثَبَطَهُ كسلُهُ عن النَّشاط والجدِّ والاجتهاد في الخيرات وفي الأمور الَّتِي توصله إلى المعالي، فالكسلان هِمَّتُهُ فاترة تحوُّنه عندما يرى الخيرات، ويشاهد أبواب المعالي فلا يفعل.

والشَّخص الآخر: الشَّخص الملول، الَّذي يُقبل على العمل ثمَّ سرعان ما يملُّ فينقطع ويترك العمل، وفي «الصَّحيحين» عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ»^(١)، وفي رواية لمسلم: «فَوَاللَّهِ لَا يَسْأَمُ اللَّهُ حَتَّى تَسْأَمُوا»^(٢).

وقوله: «الْمُنْبِتُ بِالسَّامِ»؛ «المنبت»: المنقطع في وسط الطَّرِيق، قال ابن منظور في «اللِّسان»^(٣): «بَتَّ الشَّيْءُ يَبِيتُّ وَيَبِيتُّ بَتًّا، وَأَبَتَهُ: قَطَعَهُ قَطْعًا مُسْتَأْصِلًا،

(١) «صحيح البخاري» (٥٨٦١)، و«صحيح مسلم» (٧٨٢).

(٢) رقم (٧٨٥).

(٣) «لسان العرب» (٣١٠ - ٣١١).

والأنبتات: الانقطاع، ويقال للرجل إذا انقطع في سفره وعطبت راحلته: صار مُنبِتًا، ومنه قول مُطَرِّفٍ: «إِنَّ الْمُنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»؛ يريد أنه بقي في طريقه عاجزًا عن مَقْصِدِهِ، ولم يَقْضِ وَطَرَهُ، وقد أعطَبَ ظَهْرَهُ» اهـ.
أي الدابة التي يركبها، فهذا شأن المنقطع المنبت، لما انقطعت به دابته في الطريق ولم تعد تمشي؛ بدأ يضرب ظهرها يريد منها أن تسير وهي واقفة لا تتحرك، فلا أرضًا قطع بضربه لها، ولم يسلم ظهر دابته.
وقوله: «بالسَّام»؛ من السَّامة، وهي الملل والضجر كما في «اللَّسان»^(١).

✽ قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ:

٢٣٩- ودُمَّ عَلَى الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَحَوْ قِلْ وَاسْأَلِ اللهُ رِزْقًا حُسْنِ مُحْتَمٍ
ثم قال: «ودُمَّ عَلَى الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ»؛ أي داوم وحافظ عليها، قال الله تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، و«الباقيات»: المراد بها أنواع الطاعات وصنوف القربات، ويأتي في مقدمة ذلك الكلمات الأربع التي هي أحبُّ الكلام إلى الله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»؛ فهذه أعظم الباقيات شأنًا، وأرفعها مكانًا، وسُمِّيت بـ«الباقيات الصَّالِحَاتِ»؛ لأنَّها يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها، ومعنى قوله سبحانه: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾؛ أي خير أمل يؤمله العبد، وأفضل ثواب يرجوه، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

(١) انظر (١٢/ ٢٨٠).

«خُذُوا جُنَّتَكُمْ»، قلنا: يا رسول الله! من عدو قد حضر؟ قال: «لَا، جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدِّمَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»، رواه الحاكم وصححه^(١).

أي: خذوا ما دتم في الحياة الدنيا واقياً لكم، يقيكم من النار، وقوله: «مُنْجِيَاتٍ»؛ أي لصاحبهنَّ من النار، و«مُقَدِّمَاتٍ» أي: له إلى الجنة.

وقول الناظم رَحِمَهُ اللهُ: «وَحَوْقُلْ»؛ «الْحَوْقَلَةُ»: قول «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، وقد جاء في السُّنَّةُ الأمر بالإكثار من هذه الكلمة، وأنها من كنز تحت العرش^(٢)، و«الْحَوْقَلَةُ» هي كلمة عظيمة، تتضمن طلب العون من الله؛ لأنَّ معناها: لا تحوُل من حال إلى حال، ولا حصول قُوَّة للعبد إلا بالله - سبحانه وتعالى - فهي كلمة استعانة.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وذلك أنَّ هذه الكلمة كلمة استعانة، لا كلمة استرجاع، وكثير من النَّاس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع ويقولها جزعاً لا صبراً»^(٣).

ف«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»؛ كلمة استعانة، يُؤتى بها بين يدي الطَّاعات والعبادات، ويشهد لذلك قول النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ هُدِيتَ وَكُفِّيتَ

(١) «المستدرک» (١/٧٢٥).

(٢) رواه أحمد من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (٥/١٥٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٨٦).

وَوُفِّيتَ، فَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانُ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هَدَىٰ
وَكُفِّي وَوُفِّي؟! ^(١).

وكذلك حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا
قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ
اللَّهِ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ
قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مَنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ» ^(٢).

فالعبد يحتاج إلى الإكثار من: «لا حول ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»؛ ليعان على
العلم، وعلى العبادة، وعلى كلِّ عمل صالح يقربه إلى الله - سبحانه وتعالى -،
وعلى عموم أعماله ومصالحه، قال ابن القيم رحمته الله: «وهذه الكلمة لها تأثيرٌ
عجيبٌ في معاناة الأشغال الصَّعبة، وتحمل المشاقِّ، والدُّخول على الملوك ومن
يُخاف، وركوب الأهوال» ^(٣).

وقوله: «وَأَسْأَلُ اللَّهَ رِزْقًا حَسَنًا مُحْتَسِمًا»؛ أي أسأل الله - سبحانه - أن يرزقك
حسن الخاتمة، وأن يثبتك على الدِّين، وكان من أكثر دعاء نبيِّنا ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ

(١) رواه أبو داود برقم (٥٠٩٧)، والترمذي برقم (٣٤٢٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم برقم (٣٨٥).

(٣) «الوابل الصَّيب» (ص ١٥٧).

الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١).

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٠- واضرَعُ إِلَى اللهِ فِي التَّوْفِيقِ مُبْتَهَلًا فَهُوَ الْمُجِيبُ وَأَهْلُ الْمَنِّ وَالْكَرَمِ

قوله: «واضرَعُ إِلَى اللهِ فِي التَّوْفِيقِ مُبْتَهَلًا»؛ أي ادْعُ الله - سبحانه

وتعالى - متضرِّعًا إليه، كما قال - جَلَّ و علا -: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾

[الأعراف: ٥٥]، وقال - جَلَّ و علا -: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً

وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥]،

وملحًا عليه؛ طمعًا في نواله أن يوفِّقَكَ وأن يسدِّدَكَ.

وقوله: «فَهُوَ الْمُجِيبُ وَأَهْلُ الْمَنِّ وَالْكَرَمِ»؛ أي أَنَّ الله - سبحانه وتعالى -

هو المجيب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

[غافر: ٦٠]، وهو - سبحانه - أهل المنِّ والكرم، ومن أسماؤه - جَلَّ و علا -:

«الْمَنَّانُ» و«الكَرِيمُ»؛ فَالْحَّ عَلَيْهِ بالسُّؤَالِ.

* ثُمَّ إِنَّ النَّازِمَ رَحِمَهُ اللهُ بَعْدَ أَنْ حَثَّ عَلَى الدُّعَاءِ خَتَمَ مَنْظُومَتَهُ بِبَعْضِ الْأَدْعِيَةِ

العظيمة في هذا الباب فقال:

٢٤١- يَا رَبَّ يَا حَيُّ يَا قِيَوْمُ مَغْفِرَةً لِمَا جَنَيْتُ مِنَ الْعِصْيَانِ وَاللَّئِمِّ

(١) رواه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي برقم (٢١٤٠) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

«يا ربَّ يا حيُّ يا قيُّومُ مَغْفِرَةٌ»؛ أي اسأله المغفرة، وناده - سبحانه وتعالى - بأسمائه الحسنی؛ عملاً بقوله - جلَّ وعلا -: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فناده بأسمائه: يا ربَّ، يا حيُّ، يا قيُّوم مغفرةً أي أرجو منك مغفرةً للذنوب بسترها والعفو عنها، والصَّفْح والتَّجَاوُز.

وقوله: «لما جنيتُ من العِصْيَانِ وَاللَّئِمِّ»؛ أي تجاوز عني فيما وقعت فيه من المعاصي، - وأيضاً - فيما وقعت فيه من اللَّئِمِّ، و«اللَّئِمِّ»؛ جاء ذكره في قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّئِمَّ﴾ [النجم: ٣٢]، قال ابن كثير في قوله: ﴿إِلَّا اللَّئِمَّ﴾: «وهذا استثناء منقطع؛ لأنَّ اللَّئِمَّ من صغائر الذُّنُوب، ومحقرات الأعمال»؛ ثمَّ أورد قول ابن عباس رضي الله عنهما في «الصَّحِيحِينَ»^(١) أَنَّهُ قَالَ: ما رأيت شيئاً أشبه باللَّئِمِّ ممَّا قال أبو هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزَنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ، وَزَنَا اللِّسَانَ النَّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمْنَى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»^(٢).

✽ قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٤٢- وَاْمُنُّنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضِيكَ وَأَقْضِهِ لِي مِنْ اِعْتِقَادٍ وَمِنْ فِعْلٍ وَمِنْ كَلِمٍ

قوله: «وَاْمُنُّنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضِيكَ وَأَقْضِهِ لِي»؛ أي: يا ربَّ يا حيُّ يا قيُّوم وفَّقني لفعل الطَّاعَاتِ والعبادات الَّتِي تَرْضَى بها عني، واقضها لي كوناً وقدرًا،

(١) رواه البخاري برقم (٥٨٨٩)، ومسلم برقم (٢٦٥٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠).

واكتبني في عداد عبادك المطيعين المنيين المخبئين.

وقوله: «مِنْ اِعْتِقَادٍ وَمِنْ فِعْلٍ وَمِنْ كَلِمٍ»؛ هذا توضيح لقوله: «وَأَمْنُنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضِيكَ»؛ أي وفَّقني لما يرضيك من العقائد الصَّحيحة، وما يرضيك من الأفعال الزَّاكية والطَّاعات المقرَّبة، وما يرضيك من الكَلِم الطَّيِّب.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٣- وَأَعْلِ دِينَكَ وَأَنْصُرْ نَاصِرِيهِ كَمَا وَعَدْتَهُمْ رَبَّنَا فِي أَصْدَقِ الْكَلِمِ
يسأل الله ﷻ أَنْ يُعْلِي دينه، وَأَنْ يَنْصُرَ ناصري دينه، كما وعدهم - سبحانه - في كتابه.

وقد وعد الله تعالى بنصر من ينصر دينه، فقال - سبحانه -: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١] ، وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧]، والله لا يخلف الميعاد.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٤- واقصم بِبَاسِكَ رَبِّي حِزْبَ خَاذِلِهِ وَرُدَّ كَيْدَ الْأَعَادِي فِي نُحُورِهِمْ
قوله: «واقصم بِبَاسِكَ رَبِّي حِزْبَ خَاذِلِهِ»؛ هنا يدعو على أعداء دين الله، فيقول: يا ربَّ أنزل بِأَسْكَ عَلَيْهِمْ، واقصم ظهورهم حتَّى لا ترتفع لهم راية ويكونوا عبرة لمن خلفهم وآية.

وقوله: «وَرُدَّ كَيْدَ الْأَعَادِي فِي نُحُورِهِمْ»؛ أي من أراد بالإسلام والمسلمين

كيدًا؛ فَرَدَّ كيدَه في نحره، وكان من دعاء نبيِّنا ﷺ إذا خاف قومًا قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ»^(١).

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٥- وَاشْدُدْ عَلَيْهِمْ بِزْلَالٍ وَدَمْدَمَةٍ كَمَا فَعَلْتَ بِأَهْلِ الْحِجْرِ فِي الْقَدَمِ
أي اشدّد وطأتك وعقوبتك على أعداء دينك وخاذليه، كما فعلت بأهل
الحجر سابقًا، وهم قوم صالح الذين عقروا الناقة، والنّاظم رَحِمَهُ اللهُ يشير إلى ما
جاء في سورة الشمس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤].

قال الشيخ عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: دَمَّرَ عليهم وعمَّهم بعقابه،
وأرسل عليهم الصَّيْحَةَ من فوقهم، والرَّجْفَةَ من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على
ركبهم، لا تجد منهم داعيًا ولا مجيئًا»^(٢)، ومعنى «دَمْدَمَ» أي أطبق عليهم العذاب.

* قال رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٦- وَاجْعَلْهُمْ رَبَّنَا لِلْخَلْقِ مَوْعِظَةً وَعِبرَةً يَا شَدِيدَ الْبَطْشِ وَالنِّقَمِ
أي اجعل أعداء دينك وخاذليه، موعظةً وعبرةً لمن يأتي بعدهم، يا الله، يا
شديد النِّكال والبطش والعقوبة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

(١) رواه أبو داود برقم (١٥٣٧)، وأحمد (٤/ ٤١٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) «تفسير السَّعدي» (٩٢٦).

ثم ختم ﷺ هذا النظم المبارك الطيّب النافع بالصلاة على رسول الله ﷺ وآله وصحبه.

* قال ﷺ:

٢٤٧- ثم الصلاة على المعصوم من خطأ مُحَمَّدٍ خَيْرُ رُسُلِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
٢٤٨- والآل والصَّحْبُ ثُمَّ التَّابِعِينَ لَهُمْ وَتَمَّ نَظْمِي بِحَمْدِ اللَّهِ ذِي النِّعَمِ

بهذين البيتين ختم ﷺ هذا النظم كما بدأه بحمد الله والصلاة على رسوله ﷺ وآله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

وبهذا ينتهي التعليق على هذا النظم المبارك النافع الماتع، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ونسأل الله ﷻ بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وصفاته العلى وبأنه الله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَنْ يَنْفَعَنَا جَمِيعًا بِمَا عَلَّمَنَا وَأَنْ يَجْعَلَ مَا تَعَلَّمْنَاهُ حِجَّةً لَنَا لَا عَلَيْنَا، وَأَنْ يَهْدِيَنَا لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا هُوَ، وَأَنْ يَصْرِفَ عَنَّا سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنَّا سَيِّئَهَا إِلَّا هُوَ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَأَنْ يَصْلَحَ لَنَا شَأْنُنَا كُلَّهُ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدِينَا وَلِمَشَايِخِنَا، وَلِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

الفهرس

- تقریظ فضيلة الشَّيخ زيد بن محمَّد بن هادي المدخلي ٥
- المقدمة ٧
- نصُّ المنظومة ١٠
- شرح المنظومة ٢٣
- معنى الحمد ٢٣
- معنى ذي الملك والملکوت ٢٤
- معنى «الواحد» و«الصَّمد» ٢٦
- معنى «البرّ» و«المهيمن» ٢٦
- العلم والبيان فضلٌ من الله على النَّاس ٢٧
- معنى الصَّلَاة على النَّبِيِّ ﷺ ٢٩
- منزلة النَّبِيِّ ﷺ وفضل أمته ووجوه خيريتها ٢٩
- المراد بآل النَّبِيِّ ﷺ ٣٢
- فضل العلم والفقہ في الدِّين ٣٤
- المراد بالفقہ في الدِّين ٣٤
- حثُّ القرآن على التَّفَقُّه في الدِّين ٣٥
- امتنان الله على النَّاس بالعلم ٣٦
- التَّميُّز بالعلم حتَّى بين الحيوانات ٣٨

- ذمُّ الجَهِلِّ بالدِّينِ ٣٩
- معنى الغِبطَةِ ومن يُغِبطُ ٣٩
- من صفات أهل الإيمان الحرص على العلم والنَّهْمَةُ في طلبه ٤٠
- العلم أعلى وأحلى في السَّمْعِ والنُّطْقِ ٤١
- العلم أشرف مطلوب وطالبه أكرم مخلوق ٤٢
- طلب العلم عبادة يشترط فيها الإخلاص ٤٢
- العلم نور وحياة للقلوب، ومكانة العلماء ٤٣
- ظلمة الجَهِلِّ ٤٥
- الحياة الحقيقيَّة بالعلم ٤٦
- الجَهِلُّ أصل الضَّلال والشَّقاء، والعلم أصل الهدى والسَّعادة ٤٧
- من ثمار الجَهِلِّ الخوف والحزن ٤٩
- العلم ميراث النُّبُوَّة ٥٠
- العلم ميزان الشَّرْع ٥٤
- السُّلطان في القرآن هو العلم والحجَّة ٥٥
- سلطة العلم أعظم من سلطة اليد ٥٧
- ذهاب الدُّنيا والدِّين بذهاب العلم ٥٨
- استغفار أهل السَّمَوَات والأَرْض والحِيتَان للعالم ٥٩
- الخارج في طلب العلم بمنزلة المجاهد في سبيل الله ٦٢
- الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم ٦٣
- السَّالِك لطريق العلم سائر في طريق الجنَّة ٦٤
- دعاء النَّبِيِّ ﷺ بالنِّصْرَةِ لسامع الحديث ومبلِّغه ٦٦
- رفعة درجات الذين أوتوا العلم ٦٧

- ٦٨ - تفضيل آدم عليه السَّلام على الملائكة بالعلم
- ٦٨ - تفضيل يوسف عليه السَّلام على غيره بالعلم والحكم
- ٦٩ - رحلة موسى الكليم عليه السلام إلى الخضر لأجل العلم
- ٧١ - تقديم النَّبيِّ ﷺ لحامل العلم والقرآن على غيره
- ٧٢ - أهل العلم قلوبهم أوعية للوحي
- ٧٣ - أهل العلم هم أهل الخشية والعقل عن الله
- ٧٤ - قرن الله تعالى شهادة أهل العلم بشهادته
- ٧٥ - شهادة أهل العلم على غيرهم يوم الحشر
- ٧٥ - فضل العالم على العابد
- ٧٧ - موت العالم ليس كموت غيره
- ٧٨ - العلماء مثل النُّجوم والشُّهب
- ٨٠ - كثرة فضائل أهل العلم

نبذة في وصية طالب العلم

- ٨١ - تجنُّب الصَّوارف
- ٨٢ - تقديس العلم ومعرفة حُرْمته
- ٨٣ - بذل الجهد في طلب العلم بعزم قوي
- ٨٤ - بذل العلم وتقديم النَّصيحة
- ٨٦ - احترام المعلِّم والشيخ
- ٨٧ - الحفاوة والترَّحيب بطالب العلم
- ٨٨ - وصية رسول الله ﷺ بطالب العلم
- ٨٩ - إخلاص النِّية في طلب العلم
- ٩٠ - خسران صفقة من طلب العلم لغير الله

- سوء عاقبة من طلب العلم للدُّنيا ٩٢
- الآيات الواردة في ذلك ٩٣
- ترك ممارسة السُّفهاء ومباهاة أهل العلم ٩٤
- التحذير من داء العُجب ٩٥
- التَّدرج في طلب العلم ٩٧
- تقديم النَّص على الرَّأي في الدِّين ١٠٠
- تقديم علوم الدِّين على غيرها ١٠١
- أعظم المصائب المصيبة في الدِّين ١٠٢
- التَّمسُّك بالعتيق ١٠٣
- العلم هو الكتاب والسُّنة ١٠٤
- عقوبة من كتم العلم ١٠٥
- صون العلم ليس كتمًا له ١٠٦
- ثمرة العلم العمل ١٠٧
- التحذير من عدم العمل بالعلم ١٠٨
- أقوال بعض السَّلف في العمل بالعلم ١١٠
- الدَّعوة إلى الله تكون بالتَّبيان والحكم ١١١
- الصَّبر على الأذى في سبيل الدَّعوة إلى الله ١١١
- فضل من كان سببًا في هداية النَّاس ١١٣
- سلوك الصُّراط المستقيم ولزوم الاستقامة ١١٣
- الوصيَّة بكتاب الله عزَّ وجلَّ
- تلاوة القرآن بالتَّدبُّر والترتيل ١١٥
- أفضل الأوقات لقراءة القرآن ١١٨

- ١١٨ العمل بالقرآن وتحكيمة
- ١١٩ التحذير من الخوض في القرآن بالرأي المجرد
- ١٢٠ ردُّ المتشابه إلى المحكم
- ١٢٢ التحذير من المراء في القرآن
- ١٢٣ امتثال أوامر القرآن واجتناب نواهيه
- ١٢٤ المتشابه في القرآن
- ١٢٥ التحذير من أهل الزَّيغ والبدع والضلال
- ١٢٧ قارئ القرآن كأنَّما خاطب الرَّحمن
- ١٢٧ من أوصاف القرآن الكريم
- ١٣٠ القرآن شفاء لأهل الإيَّان العاملين به
- ١٣٢ وعد من أقام القرآن ووعد من أعرض عنه
- ١٣٣ فضل سورتي البقرة وآل عمران
- ١٣٥ القرآن معجزة دائمة مستمرة
- ١٣٦ قارئ القرآن لا يسأم من كثرة تردادده
- ١٣٨ القرآن مهيمن
- ١٤٠ القرآن فيه بيان الأحكام والشَّرائع وأخبار الماضين
- ١٤١ القرآن فيه شرح لأحكام الشَّريعة الواضحة الميسرة
- ١٤٢ القرآن يهدي إلى كلِّ صلاح ويزجر عن كلِّ فساد
- ١٤٤ لا يغني عن هداية القرآن النُّظم الأرضية
- ١٤٥ كلام عظيم الفائدة لابن القيم في الاستغناء بالشَّريعة عن غيرها
- ١٤٧ أخبار القرآن وأمثاله فيها العظة والاعتبار
- ١٤٨ الجنُّ الذين سمعوا القرآن من النَّبي ﷺ

- إعجاز بلاغة القرآن الكريم ١٤٩
- خيبة وعجز من أراد معارضة القرآن ١٥٠
- تحدي القرآن لأهل البلاغة والفصاحة من العرب ١٥٢
- عجز الجن والإنس على أن يأتوا بمثل القرآن ١٥٤
- القرآن كلام الله المنزل على قلب محمد ﷺ ١٥٥

الوصية بالسنة

- تحقق النجاة لمن تمسك بالسنة ١٥٧
- لزوم أهل العلم والأخذ عن الأكابر ١٥٩
- السير على منهاجهم وترسم خطاهم ١٦٠
- الأصل في حملة العلم العدالة ١٦٠
- سمات أهل العلم وعلاماتهم ١٦٣
- أهل العلم هم حماة الدين ١٦٤
- أهل العلم لا يغيب نورهم ويبقى ذكرهم ١٦٥
- رفعة مقام أهل العلم ١٦٧
- أهل العلم يحيون السنة ١٦٨
- أهل العلم يروون السنة ويذبون عن الشريعة ١٦٩
- صيانة أهل العلم للرواية ١٧٠
- أهل العلم لم يشغلهم عنه شاغل ١٧٢
- نيل المجد بالعلم والعمل ١٧٣
- الأمن والنور والفوز والبشرى لأهل العلم والعمل ١٧٤
- لزوم التقوى لنيل المجد والرفعة ١٧٥
- العكوف على السنة والمداومة على حفظها وفهمها ١٧٦

- الحثُّ على قراءة كتاب في علم مصطلح الحديث ١٧٦
- السُّنَّة هي المحجَّة والحنيفيَّة السَّمحة ١٧٨
- السُّنَّة وحي كالقرآن ١٧٨
- السُّنَّة خير الكلام ١٧٩
- السُّنَّة بيانٌ للقرآن ١٧٩
- تحكيم السُّنَّة مع الرِّضا والانقياد ١٨٠
- العُصُّ على السُّنَّة واجتناب كلِّ بدعة ١٨٠

فصل في الفرائض والآلة والتَّحذير من العلوم المبتدعة

- تعريف علم الفرائض ١٨٢
- ضرورة الاعتناء بعلم الفرائض ١٨٢
- من فضل الفرائض تولى الله قسمتها ١٨٣
- من أصول علم الفرائض ١٨٣
- المراد بالكلالة ١٨٥
- الحثُّ على تعلُّم علوم الآلة ١٨٥
- التَّحذير من علم الكلام ١٨٦
- علم الكلام قاموس فلسفة ومفتاح زندقة ١٨٧
- أهل الكلام يقصدون تعطيل أحكام الله بقوانينهم ١٨٨
- أهل الكلام يقدِّمون العقل على الوحي ١٨٨
- أهل الكلام يحرفون القرآن عن مواضعه ١٩٠
- أهل الكلام يردُّون أخبار الآحاد ١٩٠
- تحذير السَّلف من علم الكلام ١٩٢
- تحديد معنى علم الكلام الَّذي ذمَّه السَّلف ١٩٢

- من الوجوه الدالة على بطلان علم الكلام ١٩٣
- نقول عن علماء السلف في ذم علم الكلام ١٩٣
- شهادة أئمة المتكلمين على أنفسهم بالخير والشك ١٩٥
- التحذير من الكهانة والتنجيم ١٩٦
- الجن لا تعلم الغيب ١٩٩
- فوائد النجوم ٢٠٠
- من تأول في النجوم غير ما خلقت له فهو الكذوب ٢٠٢
- المنجمون مثلهم مثل عبّاد الهياكل ٢٠٣
- من تحرّصات المنجمين ٢٠٥
- التحذير من المجالات الفاسدة ١٩٤
- التحذير من وسائل الفتن المعاصرة ٢٠٦
- المفاصد التي تدعو إليها هذه المجالات ٢٠٧
- . الدعوة إلى نبذ الهدى والدين والعلم والعقل ٢٠٩
- . الدعوة إلى الركون إلى الدنيا وزخارفها ٢١٠
- . الدعوة إلى التّهتك والخلاعة ٢١٠
- . الدعوة إلى الاعتماد على الأسباب دون المسبب ٢١٢
- . الدعوة إلى الكفر بأصول الإيثار الستة ٢١٣
- . الدعوة إلى اعتقاد أنّ الطبيعة ليس لها خالق مدبر ٢١٤
- تسمية هذا الكفر والباطل بالعلم الجديد ٢١٦
- الكفر الجديد هو كفر قديم في صور جديدة ٢١٦
- محاولة بعضهم جمع الباطل مع الإسلام ٢١٨
- خلاصة ما تروّج له هذه المجالات ٢١٩

خاتمة في تحصيل ثمرات العلم النّافعة واجتناء قطوفه الدّانية

- ليس العلم مجرد مظاهر وشهادات مزخرفة ٢٢٠
- العلم النّافع الحقيقي هو خشية الله في السرّ والعلن ٢٢٣
- الدّعوة إلى العلم بالله ومعرفته ٢٢٤
- معرفة حقّ الله عليك والقيام بموجبه ولزوم منهج الحقّ ٢٢٧
- الشّقاء والسّعادة والإضلال والهداية كلّها بيد الله ٢٢٨
- الوحي والتّشريع بيد الله ٢٢٩
- الله يحبّ البرّ والإحسان ويكره العصيان وفعل المحرّمات ٢٣١
- العمل مع الوجل ٢٣٢
- الاستمرار في العمل ٢٣٢
- لا يُظنُّ بالله إلّا خيرًا ٢٣٣
- الانقياد للشرع والتّسليم للقضاء ٢٣٣
- ذمُّ الخصومة في الدّين ٢٣٤
- الإيمان بالقدر ٢٣٥
- الجمع بين العبادة والاستعانة ٢٣٦
- الأخذ بالأسباب، وأقسام النّاس في هذا الباب ٢٣٦
- من الأخطاء الشّائعة الدّعوة إلى الثّقة بالنّفس ٢٣٨
- وزن جميع الأعمال بالشرع ٢٣٩
- الحثُّ على الإخلاص والصّدق وإصابة السُّنة وهضم النّفس ٢٣٩
- التّحذير من العُجب ٢٤١
- اجتناب النّواهي والمبادرة إلى التّوبة عند الزّلل مع النّدم ٢٤٤

- محاسبة النفس في باب الأوامر والنواهي ٢٤٥
- من زكت نفسه فليحمد الله ٢٤٧
- من عصت نفسه فليعصها ٢٤٨
- الاعتبار بالعواقب المخزية للمسيئين ٢٤٩
- الحثُّ على لزوم صفات المتقين ٢٤٩
- لزوم الطاعة مع الخوف والرَّجاء ٢٥٠
- الرَّجاء المشروع ٢٥٢
- الخوف المشروع ٢٥٢
- الوسطية دون إفراط أو تفريط ٢٥٣
- الوصية بالسَّداد والمقاربة والقصد ٢٥٤
- كلام ابن رجب في معنى قوله ﷺ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا» ٢٥٥
- التَّحذِير من مسلكي: الكسول والملول ٢٥٧
- المداومة على الباقيات الصَّالحات والحويلة ٢٥٨
- التَّضَرُّع إلى الله بالدُّعاء وسؤال التَّوفيق ٢٦١
- بعض الأدعية العظيمة في ختام المنظومة ٢٦١